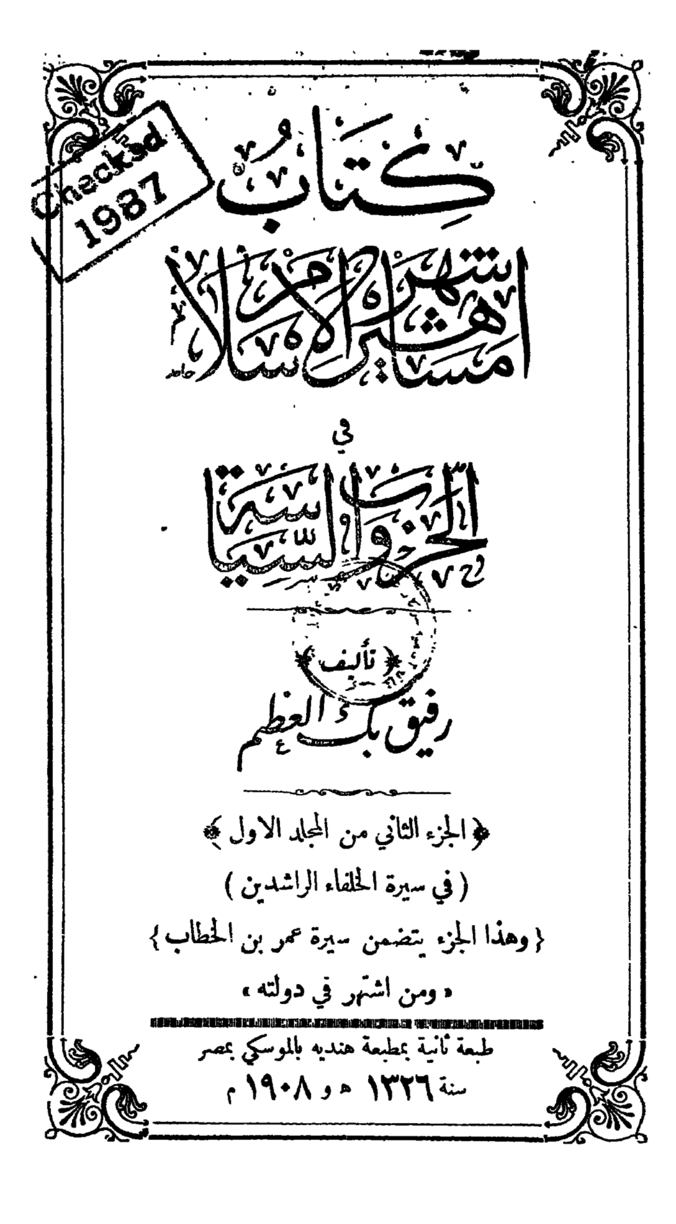


كتاب اشهر مشاهير الاسلام في الحرب والسياسة

تأليف

رفيق بك العظم

الجزء الثاني من المجلد الاول

(في سيرة الخلفاء الراشدين)

{ وهذا الجزء يتضمن سيرة عمر بن الخطاب

« ومن اشتهر في دولته »

طبعة ثانية بمطبعة هنديه بالموسكي بمصر

سنة ١٣٢٦ ه و ١٩٠٨ م

عمر بن الخطاب

باب

حاله في الجاهلية

«نسبه وأصله»

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزي بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب القرشي العدوي أبو حفص وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وقيل حنتمة بنت هشام ابن المغيرة فعلى هذا تكون أخت أبي جهل وعلى الأول تكون بنت عمه لان هاشماً وهشاماً ابني المغيرة أخوان فهشام والد أبي جهل وأخيه الحارث وأما هاشم فانه والد حنتمة وعم أبي جهل والحارث هكذا صححه في أسد الغابة

شرفه وصناعته

سبق لنا في صدر الجزء الاول من هذا الكتاب ذكر الرهط من قريش الذي انتهى اليهم الشرف في الجاهلية ومنهم عمر بن الخطاب وكانت تنتهي اليه السفارة . كما سبق لنا ذكر حرف الصحابة الذين سترد سيرتهم في هذا الكتاب ومنهم عمر بن الخطاب فانه كان تاجراً وما زالت هذه صناعته في الجاهلية والاسلام حتى ولي الخلافة فحينئذ تركها اشتغالاً عنها بمصالح المسلمين كما سيمر عليك مفصلا ان شاء الله

﴿ مكانته عند قومه وسيرته فيهم ﴾

مكانة عمر عند قومه تعلم مما سيأتي في ذكر اسلامه وحسبه من ذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا ان يعز الاسلام بعمر فاستجيب دعاؤه وقد كان في قومه مشهوراً بالشدة عزيز الجانب مع انه لم يكن ذا مال وغنى بل كان قليل المال يتاجر بماله أحياناً الى الشام فقد روى الحافظ بن عساكر في تاريخه انّ عمر قدم الشام غير مرة في الجاهلية وأسر في أحدها وأخرج عن زيد بن أسلم عن أبيه في حديث طويل ان عمر أسر في الجاهلية بطريق من دمشق واستعمله في بعض عمل [illegible] وقتل [illegible] وخرج [illegible] من دمشق

وكان في حال صغره قبل ان يتجر يرعى غنم أبيه فقد روى بن عساكر عن يحيي بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قال كنت مع عمر بن الخطاب بضفيان (اسم مكان) فقال : كنت أرعى للخطاب بهذا المكان فكان فظاً غليظاً فكنت أرعى أحياناً واحتطب أحياناً وأصبحت اضرب الناس ليس فوقي أحد الا رب العالمين ثم قال

لا شيء مما ترى الا بشاشته يبقى الاله ويودي المال والولد

هذا كان حال هذا الرجل العظيم في جاهليته وسترى كيف كان حاله في الاسلام والى أية درجة بلغ به علو الهمة ومضاء العزيمة والرأي والاخلاص في خدمة الرسول الاكرم ودين الله القويم

باب

﴿ اسلامه وصحبته ﴾

(اسلامه)

كان المسلمون قبيل اسلام عمر بن الخطاب يجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي في أصل الصفا مستخفين لقلّتهم وشدّة قريش عليهم ولم يكونوا كما يزعم بعض المتخرصين من فقراء الناس وأداني قريش بل كان فى ذلك العدد القليل من المسلمين كثير من سادات قريش وأغنيائهم وذوي الشرف فيهم ومنهم أبو بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله وعثمان بن عفان المشهورون بالغنى والثروة وسعيد بن زيد وحمزة بن عبد المطلب واضرابهم من صناديد قريش وأشرافهم الا أن معظمهم هاجروا الى الحبشة لاضطهاد قريش لهم وكانوا لقلتهم في حاجة الى الاستكثار من ذوي العصبية أو الجرأة والاقدام من رجالات قريش ليستطيعوا اعلان دينهم والذب عن نبيّهم وكان ممن عرف من قريش بنفوذ الكلمة والبطش وسمو المكانة عمر بن الخطاب وأبو جهل وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتوقع خيراً للمسلمين باسلام أحد هذين الرجلين لهذا قال (اللهم أعز الاسلام بأحب الرجلين اليك عمر بن الخطاب او عمرو بن هشام) يعني ابا جهل

استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء نبيّه صلى الله عليه وسلم بأحب الرجلين اليه وهو عمر بن الخطاب فأسلم في ذي الحجة لمضي ست سنين من البعثة وبعد اسلام تسعة وثلاثين رجلا وثلاث وعشرين امرأة وقيل بعد اربعين رجلا واحدى عشرة امرأة وكان له من العمر ست وعشرون سنة

واما سبب اسلامه فقد جاءت فيه روايات كثيرة ومنها ما اخرجه الحافظ

عزالدين الجزري في أسد الغابة عن أسامة بن زيد عن أبيه عن جده أسلم انه قال.
قال لنا عمر بن الخطاب أتحبون ان أعلمكم كيف كان بدؤ اسلامي قلنا نعم. قال كنت
من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينا أنا يوماً في يوم حار شديد الحر
بالهاجرة في بعض طرق مكة اذ لقيني رجل من قريش فقال أين تذهب يا ابن
الخطاب أنت تزعم انك هكذا وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك. قال قلت
وما ذاك. قال أختك قد صبأت. قال فرجعت مغضباً وقد كان رسول الله صلى
الله عليه وسلم يجمع الرجل والرجلين اذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه
ويصيبان من طعامه وقد كان ضم الى زوج اختي رجلين قال فجئت حتى قرعت
الباب فقيل من هذا قلت ابن الخطاب قال وكان القوم جلوساً يقرأون القرآن في
صحيفة معهم فلما سمعوا صوتي تبادروا واختفوا وتركوا أو نسوا الصحيفة من ايديهم
قال فقامت المرأة ففتحت لي فقلت يا عدوة نفسها قد بلغني انك صبوت قال فارفع
شيئاً في يدي فاضربها به قال فسال الدم فلما رأت المرأة الدم بكت ثم قالت يا ابن
الخطاب ما كنت فاعلا فافعل فقد اسلمت قال فدخلت وانا مغضب فجلست على
السرير فنظرت فاذا بكتاب في ناحية البيت فقلت ما هذا الكتاب اعطينيه فقالت
لا اعطيك لست من اهله انت لا تغتسل من الجنابة ولا تطهر وهذا لا يمسه الا
المطهرون قال فلم ازل بها حتى أعطتنيه فاذا فيه ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فلما مررت
بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدي قال ثم رجعت الي نفسي فاذا
فيها (سبح لله ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم) قال فكلما مررت
باسم من اسماء الله عز وجل ذعرت ثم ترجع الي نفسي حتى بلغت (آمنوا بالله
ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) حتى بلغت الى قوله (ان كنتم مؤمنين)
قال فقلت اشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فخرج القوم

يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه مني وحمدوا الله عزّ وجلّ ثم قالوا يا ابن الخطاب أبشر فانّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا يوم الاثنين فقال (اللهم اعز الاسلام باحد الرجلين اما عمرو بن هشام واما عمر بن الخطاب) وإنّا نرجو ان تكون دعوة رسول الله لك فأبشر قال فلما عرفوا مني الصدق قلت لهم اخبروني بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا هو في بيت في اسفل الصفا وصفوه قال فخرجت حتى قرعت الباب قيل من هذا قلت ابن الخطاب: قال: وقد عرفوا شدتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعلموا باسلامي: قال: فما اجترأ احد منهم ان يفتح الباب قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم افتحوا له فانه ان يرد الله به خيراً يهده قال ففتحوا لي واخذ رجلان بعضدي حتى دنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أرسلوه فأرسلوني فجلست بين يديه فأخذ بمجمع قميصي فجذبني اليه ثم قال أسلم يا ابن الخطاب اللهم اهده قال قلت أشهد أن لا إله الا الله وانك رسول الله فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة قال وقد كان استخفى [1] قال ثم خرجت فكنت لا أشاء ان أرى رجلاً أسلم يضرب الا رأيته [2] قال فلما رأيت ذلك قلت لا احب الا ان يصيبني مايصيب المسلمين قال فذهبت الى خالي (يعني أباجهل بن هشام) وكان شريفاً فيهم فقرعت الباب عليه فقال من هذا فقلت ابن الخطاب قال فخرج الي فقلت له أشعرت اني قد صبوت. قال فعلت قلت نعم. قال لا تفعل. فقلت بلى قد فعلت. قال لا تفعل فأجاف الباب دوني وتركني: قال: فلما رأيت ذلك انصرفت فقال لي رجل تحب ان يعلم

---

(١) هكذا ولعلها وقد كانوا مستخفين

(٢) وفي رواية فلم أشأ أن أرى رجلا يضرب ويضرب الا رأيته ولا يصيبني من ذلك شيء

اسلامك: قال: قلت نعم : قال: فاذا جلس الناس في الحجر واجتمعوا أتيت رجلاً لم يكن يكتم السر فاصغ اليه وقل له فيما بينك وبينه اني قد صبوت فانه سوف يظهر عليه ويصيح ويعلنه : قال : فاجتمع الناس في الحجر فجئت الرجل فدنوت منه فاصغيت اليه فيما بيني وبينه فقلت أعلمت اني قد صبوت: فقال: ألا انّ عمر بن الخطاب قد صبأ: قال: فمازال الناس يضربونني وأضربهم فقال خالي ما هذا : قال: فقام على الحجر فأشار بكمه فقال ألا اني قد أجرت ابن أختي فانكشف الناس عني وكنت لا أشاء ان ارى احداً من المسلمين يضرب الا رأيته[1] وانا لا أضرب: قال: فقلت ما هذا بشيء حتى يصيبني مثل ما يصيب المسلمين : قال: فأمهلت حتى اذا جلس الناس في الحجر وصلت الى خالي فقلت اسمع فقال ما أسمع : قال : قلت جوارك عليك ردٌّ : فقال :لا تفعل يا ابن اختي : قال: قلت بل هو ذاك: فقال: ما شئت : قال : فما زلت اضرب وأضرب حتى اعز الله الاسلام اهـ

وروي انّ عمر لما اسلم: قال: يارسول الله علامَ نخفي ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : انا قليل وقد رأيت ما لقينا فقال له عمر والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر الا جلست فيه بالايمان ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفين من المسلمين حمزة في أحدهما وعمر في الآخر حتى دخلوا المسجد فنظرت قريش الى حمزة وعمر فأصابتهم كآبة شديدة ومن يومئذ سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاروق لانه أظهر الاسلام وفرق بين الحق والباطل

وأخرج الحاكم عن ابن عباس : قال : لمّا أسلم عمر قال المشركون

(١) يريد الا رأيته يضرب فحذف لفظ يضرب وهو استعمال شائع والمعنى ان الناس وافوا رغبته ولم يحتج هو الى الضرب بنفسه

قد انتصف القوم اليوم منا وأنزل الله (يا ايها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين)

وانت ترى من هذا مكانة عمر في قومه وسمو منزلته في قبيله وما كان لاسلامه من دخول الوهن على نفوسهم اذ اقروا بظهور المسلمين عليهم ورجحان كفة المؤمنين على كفتهم وحسبك دليلاً على هذا شهادة القرآن كما رأيت ويؤيدها شاهد العيان ايضاً فان المسلمين بعد اذ كانوا يعبدون الله مستخفين اعلنوا بعد اسلام عمر دينهم واخذوا يبثون بين الناس دعوتهم لا يبالون بما قام في نفوس قريش من الحقد عليهم وتعمد ايصال الضرر والاذى اليهم فقد روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه انه قال (كان اسلام عمر فتحاً وكانت هجرته نصراً وكانت امارته رحمة ولقد رأيتنا وما نستطيع ان نصلي في البيت حتى اسلم عمر فلما اسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا) أخرجه في اسد الغابة واخرج البخاري عن ابن مسعود ايضاً قال (ما زلنا اعزة منذ اسلم عمر)

ولا جرم ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الرجل الفذ الجليل الذي قوّى الله به الاسلام في منبته واعزه في هجرته ومهد سبيل النشر لدعوته والفتح لاهله فكان رضي الله عنه القدوة الصالحة للمسلمين والمثل المضروب في التقوى والعدل والشهامة ونصرة الدين وتأييد الحق والشدة على الاعداء وإقامة الميزان بالقسط وتعميم دعوة الاخاء والحرية بين الامم فاسلامه كان من المنن العظيمة التي من الله بها على المسلمين وايد بها جانب الدين

﴿ صحبته ﴾

صحب عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسن صحبته وبذل في نصرته مهجته وما زال منذ اسلم يناضل عن المسلمين وينافح عن سيد المرسلين ويظهر

من الشدة على أعدائه والمظاهرة لا وليائه ما ازعج قريشاً عن اذى النبي صلى الله عليه وسلم وخفف وطأة تعسفهم على اتباعه واضطهادهم للمسلمين قبل الهجرة الى المدينة حتى اذا اذن الله للنبي صلى الله عليه وسلم واصحابه بالهجرة اخذوا يهاجرون مستخفين الا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فانه لشجاعته وقهره لقريش وشدة بأسه عليهم هاجر على ملأ قريش. فقد اخرج الحافظ عز الدين الجزري والحافظ ابن عساكر عن علي رضي الله عنه : قال : ما علمت ان احداً من المهاجرين هاجر الاّ مختفيا الاّ عمر بن الخطاب فانه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى في يده أسهما واختصر عنزته ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها فطاف بالبيت سبعاً ثم اتى المقام فصلى متمكناً ثم وقف على الحلق واحدة واحدة وقال لهم شاهت الوجوه لا يرغم الله الاّ هذه المعاطس من أراد ان تثكله امه وييتم ولده ويرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي. قال عليّ فما تبعه احد الاّ قوم من المستضعفين علّمهم وارشدهم ومضى لوجهه

وأخرجا عن البراء بن عازب : قال : أول من قدم علينا من المهاجرين مصعب بن عمير اخو بني عبد الدار ثم قدم علينا بن ام مكتوم الاعمى اخو بني فهر ثم قدم علينا عمر بن الخطاب في عشرين راكبا فقلنا ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هو على اثري ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وابوبكر معه

وما زال عمر في هجرته كما كان في مكة شديداً على المخالفين قوّاماً على الحق منافحاً عن رسول الله مراقبا لاعدائه حريصا عليه من وصول اذاهم اليه مبغضاً لمن ابغضه لا يفتأ يراقب حركات المنافقين ويستطلع ضمائر الوافدين حتى اذا تفرّس في احدهم سوءنية لازمه في دخوله وخروجه وألزمه حد الادب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والاحجام عنه والخنوع بين يديه . روي

ان عمير بن وهب الجمحي عاهد صفوان بن امية القرشي بعد وقعة بدر على ان يأتي المدينة ويقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدمها واستأذن على رسول الله فخرج اليه عمر بن الخطاب وتفرّس فيه الشر فأخذ بحمالة سيفه وقال لرجال معه من الانصار ادخلوا على رسول الله واحذروا هذا الخبيث فلما رآه رسول الله قال لعمر اتركه ياعمر ثم سأله عما جاء به فقال جئت لهذا الاسير (يعني اباه وهبا لانه كان اسيراً عند المسلمين اسروه في وقعة بدر) : قال : اصدقني : قال : ماجئت الا لذلك : قال : بل قعدت انت وصفوان وجرى بينكما كذا وكذا فدهش عمير واسلم لساعته

وكان ممن يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسانه من قريش سهيل بن عمرو فأسره في وقعة بدر مالك بن الدخشم الانصاري فلما أتى به رسول الله قام اليه عمر وقال دعني أنزع ثنيته يارسول الله فلا يقوم عليك خطيباً أبداً : فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه ياعمر فسيقوم مقاماً تحمده عليه فتركه [1]

ورأى مرة يهودياً ممسكا برسول الله يطالبه بدين له فعظم ذلك عليه واخذ بخناق اليهودى : وقال : دعني اقتله يارسول الله : فقال : دعه ياعمر ان لصاحب الحق مقالا

وله من هذا القبيل اخبار كثيرة ايام صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم تدل على عظيم محبته له واخلاصه في الذب عنه والشدة على من ناواه

(١) تحقق مقام سهيل هذ الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ايام الردة وذلك ان قريشاً لما وصلهم نعي رسول الله اضطربوا وكادوا يرتدون فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بهم فاجتمعوا اليه فقال ياأهل مكة لاتكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد والله ليتمن هذا الامر كما ذكر رسول الله الى آخر ما قال مما هو مسطور في التواريخ فامتنع أهل مكة عن الردة

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه في بعض الامور فكان أبو بكر وعمر أفضلهم عنده رأياً لصدق لهجتهما وعظيم اخلاصهما ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام في عمر (ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه) رواه الترمذي عن ابن عمر وفي رواية أبي داود عن أبي ذر: قال (ان الله وضع الحق على لسان عمر يقول به) وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لقد كان فيما قبلكم من الأمم مُحَدَّثُون (ملهمون) فان يك في أمتي أحد فانه عمر (متفق عليه كما في المشكاة) لهذا كان رضي الله عنه يرى الرأي فينزل به القرآن حتى بلغت موافقاته عشرين ونيفاً ومنها آية تحريم الخمر فانه لما قال (اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً) نزلت آية التحريم ومنها آية الحجاب فانه أمر نساء النبي صلى الله عليه وسلم ان يحتجبن فقالت له زينب: وانك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل في بيوتنا: فانزل الله تعالى (واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) ومنها آية الاستئذان في الدخول وذلك انه دخل عليه غلامه وكان نائماً فقال: اللهم حرّم الدخول: فنزلت آية الاستئذان

الى هذا المقام وصل عمر رضي الله عنه في صدق اللهجة وقول الحق وجميل الصحبة وحسبه فضيلة في نفسه وفضلا على المسلمين في صحبته كونه كان سبباً في تحريم الخمر الذي هو آفة الانسانية وجرثومة الشر وعلة العلل الاجتماعية والامراض العقلية والجسمانية في كل زمان ومكان

هكذا كان عمر رضي الله عنه نافعاً في صحبته ملازماً للنبي صلى الله عليه وسلم شديد الحرص عليه والحب له والمدافعة عنه وشهد معه من المشاهد بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وحنيناً والفتح وخيبر وغيرها وكان ممن ثبت مع رسول الله في أحد

أخرج في أسد الغابة عن الزهري وعاصم بن عمر قال : لما أراد أبوسفيان الانصراف (عقب وقعة أحد) أشرف على الجبل ثم نادى بأعلى صوته ان الحرب سجال يوم بيوم بدر أعل هبل (أي أظهر دينك) : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : قم فأجبه : فقال الله أعلى وأجل لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار : فلما أجاب عمر أبا سفيان قال ابوسفيان هلم الي ياعمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائته فانظر مايقول : فجاءه فقال له أبوسفيان : انشدك بالله ياعمر أقتلنا محمداً : قال : لا وانه ليسمع كلامك الآن فقال ابوسفيان انت اصدق عندي من ابن قمئة وابر (لقول بن قمئة لهم قد قتلت محمداً)

وارسل رسول الله صلي الله عليه وسلم عمر غازياً الى ذات السلاسل في جيش اميره عمرو بن العاص وارسله في جيش اميره اسامة بن زيد مولى رسول الله وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسافر اسامة بالجيش بعد وفاته وبقي عمر بالمدينة استبقاه ابو بكر كما رأيت في سيرته وبالجملة فان عمر رضى الله عنه خدم الاسلام في صحبته كما خدمه في خلافته وكان مخلصاً في ايمانه مخلصاً لنبيه عظيم الحب له حتي بلغ من حبه له انه لما مات صلى الله عليه وسلم لم يصدق بموته او اصابه من شدة الحزن دهشة وذهول حتى قام فقال . من قال ان محمداً قد مات علوت رأسه بسيفي هذا وليبعثنه الله فليقطعن ايدي رجال وارجلهم . والقصة مشهورة اوردنا المهم منها في سيرة ابي بكر رضي الله عنه فكأن عمر الهم هذا القول حتى ارهب المنافقين فأذهلهم عن الكلام ريثما جاء ابو بكر وسكن اضطراب النفوس ببيانه

باب

خلافته

تقدم معنا في الجزء الأول ان أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه عهد بالخلافة الى عمر بن الخطاب قبل وفاته فوليها يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة يوم وفاة ابي بكر ولما تلي كتاب العهد على المسلمين بايعوه جميعاً ولم يتخلف عن بيعته احد من المهاجرين والانصار مع انه كان توقف بعضهم عن بيعه ابي بكر حالة كونها شورى بين المسلمين كما رأيت في الجزء الأول وانما رضي المسلمون بعهد ابي بكر لعمر بن الخطاب وان خالف قاعدة الشورى وتسامحوا بحق انتخابهم الخليفة لامرين

(الامر الاول) توقعهم الخلاف على الخلافة بين النفر المتطاولين اليها من المهاجرين السابقين فيما لو تركت شورى تتنازعها الاهلية وتتجاذبها العصبية وقيام العذر لأبي بكر في عدم تركها شورى لهذا السبب الذي استشعر به قبل وفاته وقد بسطنا الكلام على هذا في باب خلافته فلا حاجة للمزيد

(والامر الثاني) تفرس المسلمين في عمر الكفاءة على القيام بهذا الامر واقتداره على سد ذرائع الفتنة كما تفرس فيه ذلك ابو بكر وكبار الصحابة الذين استوثق له منهم قبل عهده اليه بالخلافة وقد صدقت في عمر رضي الله عنه فراستهم وتحقق بكفاءته رجاؤهم فكانت خلافته رحمة على الأمة كما مرّ في حديث ابن مسعود

اخرج الحافظ بن عساكر عن ابي عبيدة قال: قال عبد الله بن مسعود: افرس الناس ثلاثة. الملك حين تفرّس في يوسف والقوم فيه زاهدون. والمرأة

التي تفرّست في موسى فقالت (يا أبت استأجره انّ خيرمن استأجرت القويّ الامين) وأبو بكر حين تفرس في عمر فاستخلفه

ثم قد استاء بعضهم من استخلاف أبي بكر لعمر الا ان استياءهم لم يكن لفقد الكفاءة ممن أسندت اليه الخلافة وانما كان لصرفها عنهم أو خوفاً من شدة عمر عليهم كما بسطنا هذا في سيرة أبي بكر ومع هذا فانّ أبا بكر رضي الله عنه لم يقض الا بعد ان جعل الساخط راضياً فقد أخرج الامام ابو الفرج ابن الجوزي في السيرة العمرية وابن عساكر في تاريخه عن عاصم قال : جمع ابوبكر الناس وهو مريض فأمر من يحمله الى المنبر فكانت آخر خطبة خطب بها فحمد الله واثنى عليه ثم قال : ايها الناس احذروا الدنيا ولا تثقوا بها فانها غرارة وآثروا الآخرة على الدنيا واحبوها فبحب كل واحدة منهما تبغض الأخرى وان هذا الأمر الذي هو املك بنا لا يصلح آخره الا بما صلح به اوّله ولا يحمله الا افضلكم مقدرة واملككم لنفسه اشدكم في حال الشدّة واسلسكم في حال اللين واعلمكم برأي ذوي الرأي . لا يتشاغل بما لا يعنيه ولا يحزن لما ينزل به ولا يستحي من التعلم يتحيّر عند البديهة قويّ على الأمور لا يجوز لشيء منها حده بعدوانٍ ولا تقصير يرصد لما هو آت عتاده[1] من الحذر والطاعة (وهو عمر بن الخطاب) ثم نزل فحمل[2] الساخط امارته الراضي بها على الدخول معهم توصلا

ومن هذا يعلم ان ابا بكر انما اختار للخلافة عمر رضي الله تعالى عنهما علماً بحقيقته وسداً لذرائع الفتنة وطلباً لخير المسلمين ومصلحتهم لا محاباة ولا لغرض آخر كما شهد بذلك عليّ بن ابي طالب رضي الله عنه فقد اخرج الحافظ عز الدين الجزريّ

---

(١) بفتح العين الذخيرة المعدودة لوقت الحاجة (٢) هكذا في السيرة العمرية وفي تاريخ ابن عساكر وجعل الخ ولم يذكرا متعلق (لتوصلا)

في أسد الغابة عن سويد بن غفلة الجعفي انه دخل على علي بن ابي طالب في خلافته فقال. ياامير المؤمنين اني مررت بنفر يذكرون ابا بكر وعمر بغير الذي هما اهل له من الاسلام. فقام (اي علي) فخطب الناس خطبة طويلة مما جاء فيها عن ابي بكر واستخلافه لعمر قوله (حتى حضرته الوفاة فرأى ان عمر اقوى عليها ولو كانت محاباة لآثر بها ولده) الى آخر كلامه وربما جاء معنا في مكان آخر

وهذا الذي تحقق عند المسلمين من حسن نية ابي بكر وكفاءة عمر دعاهم الى الرضا ببيعته والاتفاق على قبول خلافته وان خالفت قاعدة الشورى بين المسلمين وقد قام رضي الله عنه بهذه الوظيفة السامية قياماً محموداً لا يجاريه فيه أحد من قادة الأمم وساسة الحكومات بل كان من عظيم أثره وأثر ابي بكر في الخلافة الاسلامية ان كانا مثلا لمن بعدهما يضرب بالعدل وحسن السياسة وحجة على من تنكب طريقهما من الخلفاء وخالف سيرتهما من الامراء

أخرج في اسد الغابة عن عليّ بن ابي طالب رضي الله عنه قال « ان الله جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما من الولاة الى يوم القيامة فسبقا والله سبقاً بعيداً واتعبا والله من بعدهما اتعابا شديداً فذكرهما حزن للأمة وطعن على الأئمة »

ولقد صدق رضي الله تعالى عنه فيما قال فانه لم يخرج قوم من المسلمين على الامراء بعد ذينك الخليفتين الا مطالبين بمثل عدلهما محاجين بسيرتهما حتى فريق الخوارج الذين يذهبون الى عدم الحاجة الى الامام كانوا يحتجون على الخلفاء بسيرة الامامين الاولين واول ماخرجوا كان خروجهم على عليّ رضي الله تعالى عنه هذا على مكانته من الدين وتقواه وعدله حتى ان الخوارج لم يستطيعوا ان يأخذوا عليه في سيرته الا مسألة التحكيم التي لم تنبعث في الحقيقة الا عنهم

وحسب عمر رضي الله تعالى عنه من خلافته ان يكون مثلا في العدل وحجة

على الخلفاء والولاة من بعده بل حسبه من سيرته فخراً وذكراً ان كل المؤرخين سواء كانوا من المسلمين أو المنصفين من غير المسلمين أجمعوا على انه أعدل من ساس الأمم وأعظم رجل في الاسلام ولو قدر المسلمون قدر هذا الرجل العظيم الذي يفتخر به تاريخ الاسلام لشيدوا بأسمه الآثار العظيمة في كل مكان ليبقى ذكره حياً بين الناس كما هو حيٌّ في التاريخ وبعد فان أحط البشر عقولا وأضعفهم بصيرة فريق الغلاة من الشيعة الذين يطعنون في ذلك الرجل العظيم الذي أصبح في حسن السيرة مثلا في العالمين وحجة على الخلفاء والسلاطين فأيّ عار على المسلمين بإزاء الأمم الأخرى ان يكون فيمن ينتسب الاسلام جماعة يقدحون بمثل عمر ابن الخطاب على تفرده بالشهرة وجلالة قدره وجلائل أعماله وآثاره وسبقه بالامتياز وخدمته الاسلام في صحبته وخلافته حتى كان غرة جبين التاريخ الاسلامي وذكرى الفخر الغابر الخالدة مع ان الاسلام يبرأ الى الله من أمثال تلك الفرق التي أسس نحلتها ابن سبأ اليهودي واضرابه من أعداء الاسلام ومريدي الشر بالمسلمين ولا يزال أولئك الناس يدعون النسبة الى الاسلام وهو يبرأ الى الله من نحلهم الفاسدة التي لا يقبلها ذو عقل ولا تنطبق على دين ولا حكمة وانما هو التقليد الاعمى والجهل يفعلان في العقول والاوهام ما لا تفعله السموم في الاجسام

باب

أول أعماله في الخلافة

كان أول كلام تكلم به عمر رضي الله عنه يوم استخلف ان صعد المنبر فخطب الناس فقال : انما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده

حيث يقود وأما أنا فورب الكعبة لاحملنهمْ على الطريق

وأول عمل عمله في خلافته ثلاثة أمور : إستداب الناس مع ابي عبيد الثقفي لحرب الفرس: وعزل خالد بن الوليد وتوسيد الامارة العامة في الشام الى أبي عبيدة عامر بن الجراح: وبعث يَعلَى بن أمية لأجلاء اهل نجران : فأما خبر ابي عبيد فسيأتي معنا في باب الكلام على فتوحات عمر (رض) واما خبر خالد بن الوليد فقدمر معنا ذكره في سيرته وربما نعود الى شيء منه عند الكلام على فتوح الشام: واما خبر نجران فنتكلم عليه هنا لأنه لا يخلو من فائدة تاريخية فيها موعظة وذكرى لقوم يعقلون

﴿ إجلاء أهل نجران ﴾

سبق لنا فيما مر من هذا الكتاب كلام على الدعوة الى الاسلام وأن لا إكراه فيها وان اساسها التبليغ فمن قبلها كان من المسلمين ومن ابى فعليه ان يخضع لسلطانهم وان يعطيهم جزءا من ماله يستعينون به على حماية ماله وعرضه ونفسه وله عليهم حق الوفاء بما عاهدوه عليه وان لا يفتن عن دينه ولا يؤخذ منه من الجزاء الا ما رضيه في عهده وان تكون له الذمة والعهد اني حل وحيثما وجد من ممالك الاسلام مادام وافياً بعهده مؤدياً لجزيته لا يخون المسلمين ولا يمالىء عليهم عدوهم واحسن شاهد على هذا نسوقه اليك في هذا الفصل خبر اهل نجران اليمن وكانوا من الكتابيين لتعلم كيف كانت معاملة اهل الذمة ومبلغ محافظة الخلفاء على عهودهم معهم مالم يخونوا او يغدروا وتحرير الخبر عنهم انه كان وفد وفدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم الى الاسلام فأبوا وسألوه الصلح وان يقبل منهم الجزاء فصالحهم على شيء معلوم يؤدونه كل سنة للمسلمين وكتب لهم بذلك كتاباً جعل لهم فيه ذمة الله وعهده وان لا يفتنوا عن دينهم ومراتبهم فيه ولا يحشروا ولا يعشروا وان يؤمنوا على انفسهم وملتهم وارضهم واموالهم وغائبهم وشاهدهم وعيرهم وبعثهم

وامثلتهم لا يغير ما كانوا عليه ولا يغير حق من حقوقهم ولا يطأ ارضهم جيش ومن سأل منهم حقاً فبينهم النَّصَفُ غيرظالمين ولا مظلومين ولهم على ذلك جوار الله وذمة رسوله ابداً حتى يأتي امر الله ما نصحوا واصلحوا واشترط عليهم ان لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف ابو بكر الصديق رضي الله عنه اقرهم على حالهم وكتب لهم كتاباً على نحو كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع انه كان يتخوفهم ويود إجلاءهم لما روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يبقين في جزيرة العرب دينان : ولما حضرت ابا بكر الوفاة اوصى عمر بن الخطاب باجلائهم لنقضهم العهد بأصابتهم الربا

فانظر كيف ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يرى ان لا يجتمع في جزيرة العرب دينان لان العرب امة حديثة عهد بالاسلام وقد عانى صلى الله عليه وسلم ما عانى في جمع كلمتها وتوحيد وجهتها فمن الخطر ان يوجد بين ظهرانيها قوم يدينون بغير دينها فيفتنون من جاورهم عن الاسلام على حداثة عهدهم فيه وعدم تمكنهم بعدُ من أصوله الصحيحة

هذا من وجه ومن وجه آخر فان النجرانيين كانوا يتاجرون بالربا ولا يخفى ما فيه من الضرر على من جاورهم من اهل اليمن الذين ينضب التعامل بالربا معين ثروتهم ويؤذر بفقرهم على غير شعور منهم لاسيما وان الشريعة الاسلامية قد حرمته تحريماً باتاً ولا يؤمن من ان النجرانيين باستمرارهم على تعاطي الربا يحملون بعض من جاورهم من المسلمين على ارتكاب الاثم بالتعامل معهم بالربا

مع هذه الاسباب التي تلجئ الى إكراه النجرانيين على الاسلام فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكرههم على ذلك لان شريعته لم تأذن باكراه اهل الكتاب على الاسلام لهذا تركهم على دينهم بعد ان دعاهم الى الاسلام بالتي هي احسن

فأبوا واعطاهم كتاب العهد المذكور إلا انه اشترط عليهم فيه ان لا يخونوا المسلمين ولا يتعاملوا بالربا كما رأيت ولما استخلف ابو بكر اكد لهم عهدهم الأول مع انه كان يرى في وجودهم في جزيرة العرب من الخطر ما كان يراه النبي صلى الله عليه وسلم فلم يسعه في امرهم الا ما وسع الرسول (ص) حتى اذا علم انهم خانوا العهد وتعاملوا بالربا امر في حال مرضه عمر بن الخطاب (رض) باجلائهم عن جزيرة العرب دون ان يفتنوا في دينهم

ولما استخلف عمر (رض) كان اول بعث بعثه بعث أبي عبيد الى العراق كما قدمنا وبعث يُعلَى بن أمية الى اليمن وأمره باجلاء أهل نجران وأن يعاملهم بالرأفة ويشتري أموالهم ويخيرهم عن أرضهم في أي أرض شاؤا من بلاد الاسلام (لا أن يعاملهم معاملة القوي الغالب للضعيف المغلوب كما هو شأن كل دولة من الدول قبل الاسلام وبعده حتى الآن في معاملة الأمم التي تخالف مذهبها وتخضع لقوة سلطانها)

أخرج الطبري عن سالم في حديث مر معنا ما هو بمعناه قال فيه عن عمر انه أوصى يَعلَى بن أمية باهل نجران فقال

ائتهم ولا تفتنهم عن دينهم ثم أجلهم من أقام منهم على دينه وأقرر المسلم وأمسح ارض كل من تجلى منهم ثم خيرهم البلدان واعلمهم انا نجليهم بأمر الله ورسوله ان لا يترك بجزيرة العرب دينان فليخرجوا من اقام على دينه منهم ثم نعطيهم ارضاً كأرضهم إقراراً لهم بالحق على انفسنا ووفاءً بذمتهم فيما امر الله من ذلك بدلاً بينهم وبين جيرانهم من اهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم بالريف

وكتب لهم كتاباً هذه صورته كما اوردها البلاذري في فتوح البلدان

« اما بعد فمن وقعوا به من اهل الشام والعراق فليوسعهم من حرث

الارض وما اعتملوا من شيءٍ فهو لهم مكان ارضهم باليمن »

على هـذا الوجـه اجلي عمر (رض) النجرانيين النصارى منهم واليهود فتفرقوا فنزل بعضهم الشام وبعضهم النجرانية بناحية الكوفة وبهم سميت

ولم تقف العناية بهم في اجـلائهم والمحافظة على ما بيدهم من العهد وتعويضهم عما تركوه من العقار والمال عند هذا الحد بل كانوا يجدون بعد ذلك من الخلفاء كل رعاية ورفق ولم يرفعوا لاحد منهم مظلمةً إلا انصفهم ورفع اذى عماله عنهم وشملهم بالعدل وحاطهم بالعناية

من ذلك انهم شكوا مرة الى عثمان رضي الله عنه لما استخلف ضيق ارضهم ومزاحمة الدهاقين لهم وطلبوا اليه تخفيف جزيتهم فكتب الى الوليد ابن عتبة بن ابي معيط عامله على الكوفة كتاباً يوصيه فيه بهم ويأمره أن يضع عنهم مائتي حلة من جزيتهم لوجه الله وعقبي لهم من ارضهم . وستأتي صورة الكتاب في خلافة عثمان رضى الله عنه

وروي البـلاذري عن الكلبي انه لما ولي معاوية اويزيد بن معاوية شكوا اليه تفرقهم وموت من مات منهم واسلام من اسلم منهم واحضروه كتاب عثمان بن عفان بما حطهم من الحلل وقالوا انما ازددنا نقصاناً وضعفاً فوضع عنهم مائتي حلة تتمة اربعمائة حلة فلما ولي الحجاج العراق وخرج ابن الاشعث عليه اتهمهم والدهاقين بموالاته فرد جزيتهم الى ما كانت عليه فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة شكوا اليه ظلم الحجاج ونقصهم فأمر فأحصوا فبلغوا العشر من عدتهم فألزمهم مائتي حلة جزية عن رؤوسهم فقط فلما ولي يوسف بن عمر العراق في خلافة الوليد بن يزيد الاموي ردهم الى ما كانوا عليه عصبية للحجاج فلما انقضت دولة الامويين واستخلف ابو العباس السفاح رفعوا اليه امرهم وما كان من عمر بن عبد

العزيز ويوسف بن عمر فردهم الى مائتي حلة ولما استخلف هرون الرشيد شكوا اليه تعنت العمال اياهم فأمر فكتب لهم كتاب بالمائتي حلة وبالغ بالرفق بهم فأمر أن يعفوا من معاملة العمال وان يكون مؤداهم بيت المال بالحضرة كي لا يتعنتهم أحد من العمال

هذا ما رواه المؤرخون في شأن هؤلاء الكتابيين الذين أجلاهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن جزيرة العرب وقد رأيت مما مر مبلغ عناية عمر (رض) بهم لما لم يرَ بداً من اجلائهم للاسباب التي مر ذكرها وقد كان من السهل اكراههم على الاسلام ودخولهم فيه كما دخل أولئك الملايين من مشركي العرب وعامة سكان الجزيرة العربية طوعاً أو كرهاً وانما هو الشرع الاسلامي منع من اكراه غير مشركي العرب على الاسلام كما منع من نقض العهد وخفر الذمة الا بسبب مشروع لهذا لما خان النجرانيون عهدهم بتعاملهم بالربا وقد عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يتعاملوا به في الجزيرة ساغ لامير المؤمنين اجلاؤهم الى غيرها بعد ان عوضهم عن المال والعقار بمثله وما زال الخلفاء بعده مبالغة بالرفق بأهل الكتاب وقياماً بواجب السيادة العادلة ووفاءً بعهد الله والرسول يعاملون النجرانيين بأحسن ماتعامل به عامة الرعية من المسلمين ويدفعون عنهم أذى الظلم والاجحاف كما رأيت

﴿ حكم الاسلام في المسيحيين وحكم الاوربيين في المسلمين ﴾

ينتج معنا من هذه الحكاية ثلاثة أمور (الامر الاول) عدم اكراه النجرانيين على الاسلام مع تعين الخطر من وجودهم في جزيرة العرب لحداثة عهد أهلها بالاسلام ذلك لان عدم الاكراه من أصول الشريعة الاسلامية والجهاد الذي يعظم أمره أعداء المسلمين انما شرع لحماية الدعوة لا للاكراه الا

جهاد مشركي العرب يومئذ فقد شرع لارغامهم على الاسلام لاسباب حكمية لا تخفى على بصير أهمها تطهير نفوس تلك الامة العظيمة من شرور الوثنية واستئصال شأفة الجهل والتوحش من جزيرة العرب التي كانت وسطاً بين ممالك الشرق والغرب من آسيا وافريقيا وأوربا بل هي نقطة الصلة السياسية والتجارية بين تلك الممالك فانتشار أنوار المدنية والدين فيها يستلزم انتشارها بطبيعة المجاورة والاشراف على تلك الممالك أيضاً وقد كان ذلك كما هو معلوم

(والامر الثاني) عدم حيد الخلفاء عن امر الشارع فيما امر به من الوفاء بالعهود وتأكيدهم لعهد النجرانيين الواحد تلو الآخر على ضعف هؤلاء وقلتهم وقوّة الخلافة الاسلامية وسلطتها وان ذلك لم يكن عن رهبة او رغبة بل عن محض تمسك بالعهد وعدل بين الشعوب الخاضعين لسلطة الخلافة وسلطان الاسلام من كل ملة ودين

(والامر الثالث) حرص امير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) على قاعدة حماية الذمي في نفسه وماله بتعويضه النجرانيين عن ارضهم ومالهم بالمثل من ارض المسلمين وما لهم لما قضت الضرورة باجلائهم عن ارضهم الى غيرها من بلاد المسلمين وقد رأيت ما ذكرناه استطراداً في سيرة ابي بكر عن عمر رضي الله عنهما وما فعله من هذا القبيل مع اهل عربسوس من ثغور الروم وكيف انه لما امر باجلائهم عن ارضهم لخيانتهم جوار المسلمين ونكثهم عهد الامانة والصدق امر بأن يعوّضوا عن مالهم وعقارهم ونعمهم ضعفين وما زال الخلفاء في ايام الفتوح العظيمة وما بعدها يحافظون على حق القرار الثابت والملك القديم للاقوام المغلوبين للمسلمين الخاضعين لسلطانهم سواء كانوا من المسيحيين او غيرهم ولم يؤثر عن احد منهم انه طرد قوماً من ارضهم او انتزعها منهم بغير حق ولا عوض ولا

عبرة بما ربما يقع من هذا القبيل على بعض الافراد من جور بعض العمال الذين غلبت شهواتهم على الفضيلة فحادوا عن طريق الشرع فانه قد يصيب افراد المسلمين من جور هؤلاء اكثر مما يصيب غيرهم وليس في هـذا ما يقدح بأصول الحكم الاسلامي الذي يأبى الظلم ويدعو الى الرأفة والعدل

هذا شأن الاسلام فى المحافظة على حقوق الأمم المغلوبة وقد رأيت مما تقدم انه لم يعط للمسلمين من حقوق الغلب التي ينتحلها الغالبون في كل عصر الا ماتدعو اليه الضرورة القصوى وتستلزمه سلامة الملك والدين لاماتدعو اليه شهوات الملك ورغبات الأمة الغالبة وقد علم هذا المسلمون وخلفاؤهم وان لاهل الذمة ما لهم وعليهم ما عليهم فبالغوا في الرأفة باهل جوارهم والداخلين في ذمتهم من ارباب الملل الأخرى فتركوا لهم حرية التملك والدين ولم ينازعوهم حقاً من حقوق المواطنة والجوار بل كانوا يعتبرونهم جزءاً من الدولة وعضواً من اعضاء مجتمعهم لاغنى عن مشاركته في العمل ومشاطرته اسباب السعادة المدنية والحياة الوطنية يؤيد هذا اعتماد الخلفاء الامويين والعباسيين على اهل الكتاب من اليهود والنصارى في ترتيب دواوين الخراج وترجمة علوم اليونان وتقريب النابغين منهم في علوم الهندسة والطب اليهم واعتمادهم في شفاء عللهم عليهم بل بلغ بالمسلمين اعتبارهم لاهل الكتاب عضواً من جسم هيئتهم الاجتماعية لا يجوز فصله في حال من الاحوال ان جيوش التتار لما اكتسحت بلاد الاسلام من حدود الصين الى الشام ووقع في اثرهم من وقع من المسلمين والنصارى ثم خضد المسلمون شوكة التتار في الشام ودان ملوكهم بالاسلام خاطب شيخ الاسلام ابن تيمية رأس العلماء في عصره امير التتار قطلوشاه باطلاق الأسرى فسمح له بالمسلمين وابى ان يسمح له باهل الذمة فقال له شيخ الاسلام : لا بد من افتكاك

جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ولا ندع اسيراً لا من اهل الملة ولا من اهل الذمة فاطلقهم له [١]

وكيف لا يقوم علماء المسلمين وخلفاؤهم بحماية اهل ذمتهم وقد استوصى بهم النبي صلى الله عليه وسلم امته خيراً وكذلك الخلفاء الراشدون من بعده كما رايت فيما مر من هذا الكتاب وكما سترى بعد ونحن ننقل اليك هنا على سبيل الاستطراد ما جاء في كتاب كتبه عمر بن الخطاب (رض) الى عمرو بن العاص عامله على مصر وهو قوله

« واعلم ياعمرو ان الله يراك ويرى عملك فانه قال تبارك وتعالى في كتابه (واجعلنا للمتقين إماما) يريد ان يقتدي به وان معك اهل ذمة وعهد وقد اوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم واوصى بالقبط فقال « استوصوا بالقبط خيراً فان لهم ذمة ورحماً » ورحمهم ان ام اسماعيل منهم وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ظلم معاهداً اوكلفه فوق طاقته فانا خصمه يوم القيامة » احذر ياعمرو ان يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصماً فانه من خاصمه خصمه . والله ياعمرو لقد ابتليتُ بولاية هذه الامة وآنست من نفسي ضعفاً وانتشرت رعيتي ورق عظمي فأسأل الله ان يقبضني اليه غير مفرط . والله اني لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعاً ان أُسأل عنه يوم القيامة »

---

(١) رأيت هذه الحكاية التاريخية المهمة في نسخة خطية من الرسالة القبرصية التي قدمها شيخ الاسلام ابن تيمية لسرجوان ملك قبرص لافتكاك أسرى المسلمين منه ودفعت هذه الرسالة الى الفاضل الشيخ على أفندي يوسف صاحب جريدة المؤيد الخطيرة فطبعها من عهد قريب على نفقته ومن الاسف أن يغفل مؤرخو المسلمين أمثال هذه الحوادث المهمة التي هي مرمى غرض التاريخ الصحيح ولو عنوا بنقل كل الحوادث الاجتماعية التي لها علاقة باصول المدنية الاسلامية وعصورها لنفعوا الاسلام والمسلمين

تأمل قول هذا الخليفة العظيم الذي يوصي به عامله بأهل الكتاب ترى الرهبة من الله بادية على كلامه . وعلائم الخشوع والحنان المنبعثة عن وجدانه الطاهر مرتسمة في تضاعيف كتابه حتى كأنما هو واقف بين يدي الله يسأل عن حقوق خلقه ويحاسب عن عمله في رعيته . إن في هذا لآيات من العدل وغايات في انصاف الرعية غير المسلمة لايدرك شأوها الولاة والسلاطين في كل امة من امم الارض الآن

واعظم من هذا واجل ان آخر وصايا عمر التى اوصى بها عند وفاته كانت بالمهاجرين والانصار واهل الذمة اذ كتب لمن يخلفه كتاباً قال فيه : واوصيه باهل ذمة الله وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ان يوفي بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وان يقاتل من ورائهم الخ ماجاء في الكتاب كما ستراه في محله ان شاء الله

هذا شأن الحكم الاسلامي في اهل الذمة ومبلغ عناية الخلفاء بالخاضعين لسلطانهم من غير المسلمين اوردناه مؤيداً بالشواهد التاريخية مع انه يكاد يدرك ببداهة الحس لان اليهود والنصارى في البلاد الاسلامية مازالوا يتمتعون بكل ما يتمتع به المسلمون من الحقوق مدى ثلاثة عشر قرناً فلم تنزع منهم ارض ولم يطردوا ويشردوا عن اوطانهم ولم يفتنوا عن دينهم ولو اصيبوا بما يصاب به المسلمون في ممالك النصرانية لما بقي منهم في هذه القرون الطويلة باقية مع ان الاسبانيول ما لبثوا ان دخلوا بلاد الاندلس واكتسحوا ذلك الملك الاسلامي المريض حتى فتنوا المسلمين عن دينهم وطردوهم عن ملكهم واغتصبوا تراثهم وسفكوا دماءهم وشردوهم عن بلاد الاندلس تشريداً ما أبقى لهم في بضع سنين باقية ومحا كل ما تركوه من آثار العلم والمدنيـة في تلك البلاد التي كانت جنة الارض في عصرهم

واذا انتحل للاسبانيول عذر البربرية والتوحش وانهم انما كانوا يومئذ في عصور الجهالة الاوربية فهل يقال انهم كانوا أحط في الاخلاق والمدنية من تلك الامة البدوية التي نشأت في جزيرة العرب على الغارة والسلب وسفك الدماء وعبادة الاوثان ثم لما اندفعت للفتح وأتيحت لها قوة الغلب على الأمم وأخصها أهل الكتاب كانت سياستها في الملك ورأفتها بالمغلوبين مارأيت فيما تقدم

نقول ولا نكر ان الحق ان الاسبانيول لم يكونوا في تلك الدرجة من الهمجية بل كانوا وكل الأمم الاوربية في دور تمدن جديد نبتت أصوله بين العرب يومئذ وأظلت فروعه ممالك المغرب وانما هم حملة علوم الدين وتعصبهم الدنيء هو الذي جعل هذا البون البعيد بين الفريقين وباين في السياسة بين الفاتحين وأين من يوصي الجيوش الفاتحة بالرفق بالمسيحيين واعتبارهم بعد الغلب كجزء لاينفصل عن مجتمع المسلمين له ما لهم من رعاية وعليه ماعليهم من حق كما في وصايا الخلفاء التي رأيت ممن يصور الامم المسيحية المسلمين في صورة وحش ضار يتحفز للوثوب على الشعوب وهؤلاء هم قادة المسيحيين وحملة الدين المسيحي ومنهم مثيرو نار الحروب الصليبيـة من القسس ومدبر ومكائد جمعية التفتيش الديني (الانكيزسيون) في اسبانيا بل ومنهم كان في هذا العصر عصر المدنية والنور المستر غلادستون وزير انكلترا الشهير بحملاته الخطابية على الاسلام والمسلمين

أليس بعجيب ان يقرر الاسلام مبدأ المساواة بين الشعوب الخاضعين لسلطانه ويحتم على أهله حماية اليهود والنصارى في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ونحلهم ويعاهدهم على هذه الحماية خلفاء المسلمين كلما جاء خليفة يؤكد عهد السابق مدى هذه القرون الطويلة ولا يوجد الى هذا العهد من قادة الامم النصرانية وحملة الانجيل في الممالك الغربية من يمزق غشاء التعصب الصفيق

ويُنصف المسلمين في دينهم ويعاملهم ولو بحسنة من حسناتهم اللهم ان هذا لمنتهى الضعف في الوجدان والتجرد عن العدل والتقمص في لباس الاوهام والى الله نبرأ عنه معاشر المسلمين مهما كان حالنا وانى بلغ انحطاطنا والتاريخ شاهد عدل

رب معترض يقول انا بالغنا في تعنت الأمم المسيحية والتبرئ من وصمة التعصب الذميم الذي نرمي به الدول الغربية مع أن المسلمين بشر كاولئك الناس لا تتنزه نفوسهم عن الظلم والتعصب ولم يخل تاريخ حكوماتهم من اعنات رعيتها من غير المسلمين وان كان دينهم يأمرهم بمحاسنة اهل جوارهم من الكتابيين فنجيب عن ذلك نعم ان المسلمين بشر كالآخرين ما هبطت عليهم السكينة من السماء الا ان دينهم الذي [illegible] العدل بين الرعية [illegible] رجاء التأليف بين القلوب ونهى عن ظلم اهل الكتاب والتعدي [illegible] الجوار هذب نفوسهم واجتث جذور التعصب الاعمى من افئدتهم فكانوا احسن الامم معاشرة مع مجاوريهم من الكتابيين فأعطوهم حرية الدين [illegible] والعادات وأمنوهم على المال والارض وحرية التجارة وشاركوهم في الاعمال وحسبك من ذلك أن الشارع سمى الرعية غير المسلمة ذميين أي داخلين في ذمة المسلمين وعهدهم لا يضارون في عرض ولا نفس ولا مال فأصبح هذا الاسم علماً على المسيحيين واليهود عند المسلمين يذكرهم بالعهد [illegible] قسوا وانما تناسى المسلمون هذا الاسم الآن كما تناسوا كثيراً من شعائر دينهم وتسامحوا بأصول شرعهم . اذا نُفخ في المسلمين شيء من روح التعصب على المسيحيين وجفوا اخوانهم في الوطنية وان لم يكونوا اخوانهم في الدين فانما كان نافخ هذه الروح ومضرم نار الفرقة والجفاء بين الفريقين حروب الصليب التي أسعر لهيبها في المشرق خطباء الدين والسياسة في الممالك المسيحية وما تلا ذلك من

تحول قوة الغلب في العصور المتأخرة الى الدول الاوربية وايغالها بسبب ذلك في التحكم الجائر على دول الاسلام والتداخل بشؤون المسيحيين في الشرق تداخلا ممزوجاً بالاغراض السياسية مبنياً على القسوة والجبروت في مناواة دول الاسلام مع ما يضاف الى هذا من دس الدسائس للتغرير بالمسيحيين في مناوأتهم لمجاوريهم المسلمين والخروج على الحكومة الاسلامية بدعوى التظلم من جور الحكام الظالمين حتى اصبحت المملكة العثمانية منذ قرن تقريباً كميدان حرب تباع فيه ارواح المسلمين والمسيحيين بلا جريرة ولا اثم الا الجهل الذي يزج بهم في غمار الفتن خدمة لمصلحة الدول الاوربية على غير علم بمن يخدمون ومن ثَمّ كان المسؤل عن بث روح الجفاء والتعصب في نفوس المسلمين هم قادة المسيحية وساستها وحملة كتابها لا المسلمون انفسهم

اجل وقد وجد في بعض العصور الاسلامية ناس من علماء الدين الاسلامي متعصبون تناسوا وصايا نبيهم وخلفائه الراشدين بأهل الذمة لكنهم افراد من اهل العلم الناقص لا يبنى على عملهم حكم وإنما تطرق اليهم ذلك التعصب من بعض مذاهب الشيعة الذين يتأولون الآيات بما يوافق مذهبهم الباطل سامحهم الله وهداهم ومع هذا فلن يبلغوا مبلغ علماء الدين المسيحي من التعصب ضد الاسلام والمسلمين كما انه وجد حكام تعسفوا في الحكم وآذوا اهل الكتاب فسلبوهم كثيراً من مزايا التمتع بحسن المجاورة والمعاشرة مع المسلمين لكن اولئك قوم قد نزع الله الرحمة من قلوبهم وقصرت على مدارك العدل مداركهم فكان المسلم والذميّ في جورهم سواء ولقي ويلقي المسلمون منهم من البلاء اكثر مما يلقى المسيحيون . على ان الدول الاوربية لو تركت المسلمين وشأنهم مع مواطنيهم من المسيحيين ولم تنفث فيهم سم التنافر والجفاء لوجدوا لأنفسهم سبيلا للراحة

ومندوحة عن تحمل الظلم والعناء

ومع هذا فان جور بعض الحكام لا يعتبر أساساً في نوع الحكم والحكم في معاملة الذميّ في الاسلام هو مارأيت مما مر في هذا الفصل من عناية الخلفاء بالكتابيين ووصاياهم باهل الذمة والعهد واذا قابلنا بين هذا الحكم وبين الحكم في معاملة المسلم عند الدول المتمدنة المسيحية في هذا العصر لرأينا الفرق واضحاً والتباين بينهما فاضحاً إذ أنّ الاسلام لم يأت بقانونين متباينين لحكم الامم الغالبة والمغلوبة وانما اتى بقانون واحد الناس كلهم في شرعه سواء واما قوه الغالب التي انبحت في العصور المتأخرة للدول المسيحية فقد نزعت من قلوب زعمائها كل حنان و رحمة في معاملة المسلمين معاملة القويّ القاهر للضعيف المغلوب حتى بلغ بتلك الدول ان جعلن وزارة المستعمرات منفصلة عن جسم الحكومة الوطنية تدير شؤون رعيتها فيها على اساس العسف والاستبداد وان كانت تدار شؤون امتها الغالبة على اساس الدستور والعدل وحسبك من هذا ان دولة فرانسا التي توسعت في هذا العصر بدعوى الانسانية والعلم والحرية اصبحت اشد الدول المسيحية وطأة على رعاياها المسلمين ونزع الفرنساويون في الجزائر منازع القوّة والجبروت فانتزعوا من المسلمين اراضيهم واملاكهم واوقافهم وحجروا على حرية التعليم عندهم واستبدوا في اموالهم وارواحهم حتى بات الجزائري في حالة من الضنك والفقر والجهالة ينفرط لها القلب وحتى كانت الدولة الفرنساوية ابغض الدول الى المسلمين في هذا العصر ويتلوها في المرتبة هولاندا في معاملتها القاسية لمسلمي الجاوى ويتلوهما النمسا في معاملتها لمسلمي البوسنه والهرسك ويتلو هذه الروسية وحكومات البلقان وهكذا كل دولة اوربية لها نصيب من ظلم المسلمين وتمنتهم ومع ان دولة انكلترا هي اخف الدول المسيحية وطأة على المسلمين واسدهن

سياسة في المستعمرات واطلقهن لحرية التعلم والتملك والمتاجرة والدين فى مستعمراتها الشرقية سواء كانت اسلامية اوغير اسلامية الا انا نرى بين الحكومة الانكليزية في حكمها في البلاد الشرقية وبين الأمة الانكليزية في معاملتها الشرقيين بوناً شاسعاً وفرقاً عظيماً اذ بينا نرى أساس الحكم الانكليزي في الأمم الخاضعة له خارج الجزيرة البريطانية مبنياً على ما تقدم من حسن السياسة نرى من وجه آخر أفراد الأمة الانكليزية يمتهنون الشرقي امتهاناً لا يطيقه بشر بل لا يجوز صدوره من بشر رويناالرذي في حب الذات الى حد يكاد يبغض للسامين وغيرهم من الحاكرين لتلك الأمة ذلك الحكم الانكليزي مهما بلغ من العدل ومن أغرب ما رأينا في الجرائد من هذا القبيل ان أحد أمراء الهند الكبار مر على مدينة رأس الرجاء الصالح في افريقيا الجنوبية من عهد قريب فلم يتيسر له النزول في فندق من فنادق تلك المدينة لانها كانت تضيف الانكليز ولا سبيل لشرقي مهما كان مقامه ان يدخل مكاناً فيه رجل انكليزي بل والانكليز هناك يأبون ان يروا معهم حيثما كانوا ارجلا من الشرقيين ورأينا كثيراً من أمثال هذه الحادثة في الجرائد مما يدل على التناهي في الجبروت والاغراق في حب الذات [1]

(١) بعد كتابة هذا الفصل اطلعنا في العدد ٣٥٨١ من جريدة المؤيد الصادرة يوم الاحد عشرة ذى القعدة (سنة ١٣١٩) على رسالة من دربان نتال في أفريقا الجنوبية يقول المراسل فيها ما نصه . ارسلت اليكم نسخة من جريدة (مكرى) المطبوعة في نتال في (بور تايزبيت) وفيها ان المؤذن بينما كان واقفاً على رأس منارة عالية يؤذن فلم يشعر الا وطلق ناري أصابه من يد أحد المتمدنين الانكليز لانه أزعجه بصوته فسقط المؤذن على أم رأسه أجزاء متفرقة قضت نحبها في هويها (كذا) وقد قبض على الجاني وهيهات ان يلاقي عقاب الموت لانه لم يعهد ان انكليزياً يقتل في وطني بهذه الديار ولا في الشرق كله ثم ذكر حادثة أخرى وقعت لامام هذا الجامع يأبى القلم أن يسود بذكرها صفحات هذا الكتاب

فأين ما تعامل به المسلمين الدول الاوربية في هذا العصر الذي دالت به لهن الدولة وأتيح لهن الغلب على الأمم مما كانت تعامل به دولة المسلمين في ابان مجدها وايام فتوحها رعيتها من المسيحيين وأين ما عامل به عمر بن الخطاب ومن بعده من الخلفاء اهل الكتاب من النجرانيين مما تعامل به دولة فرانسا مسلمي الجزائر الذين لم يبق لهم ارض ولا مال ونزع ذلك منهم الفرنساويون بلا عوض ولا حق ولا عدل

لاجرم أن الحق والعدل والانصاف يقضي على حملة الدين المسيحي الذين كانوا يصورون المسلمين في صورة وحش ضار ان يصوروا التمدن الاوربي واهله في اقبح صور الحيوانية واخس ابالس التوحش والهمجية . هذا باستناد من المقابلة بين حكم الاسلام في المسيحيين بحكم التمدن في المسلمين ومن التمادي على هذه المدنية ان تصل الى ارقى درجات الزخارف الظاهرة وهي تنحط الى دركات التسفل في الاخلاق والتدني عن الحياة والبعد عن تغذية النفس فتنقض أوربا على المسلمين انقضاض الجوارح على فريستها الضعيفة ولا ذنب لاولئك المسلمين الا كونهم كانوا امة عزيزة الجانب قوية السلطان فأتاحت لهم وسائل الغلبة على الأمم وبسط جناح السلطان على جزء عظيم من الارض حكموا أهلها بالعدل وساسوا رعيتهم بقاعدة الاخاء والمساواة وأحيوا تمدن الرومان واليونان ونشروا على الممالك نور المدنية والعلم حتى اذا دالت بحكم تنازع البقاء دولتهم وانطفأ مصباح مدنيتهم واختل نظام ملكهم بتغلب شهوات أمرائهم وجهل قادتهم أصبحوا في نظر الدول الاوربية ذات الغلب عليهم لا يستحقون الرأفة ولا يجازون بغير الظلم والاستبداد ان هذا الشيء عجاب

يقول الاوربيون إن المسلمين أمة نفخ فيهم روح التعصب والجفاء

والبغض لمن لا يدين بدينهم من الناس وهو قول مبني على الاستقراء الناقص عند الباحثين وعلى الغرض او التعصب الدميم عند السياسيين وعامة القائلين بهذا القول وانما تسلط هذا الوهم على عامة الاوربيين لما كان يكتبه عن الاسلام رؤساء الدين المسيحي في أوروبا في القرون المتوسطة من الاضاليل التي كانوا يريدون بها إيقاف تيار الاسلام ومن ثم اصبح الاوربيون حتى هذا العهد كأنما هم في عالم والاسلام في عالم آخر لم يتحققوا من أمره وامر اتباعه شيئاً في الدين والأخلاق ولو بحثوا عن ذلك أقل بحث مجرد عن الغاية السياسية او التعصب لأدركوا خطأهم ببداهة الحس اذ أنّ قوماً مضى عليهم ثلاثة عشر قرناً وهم باسطون جناح السلطان على قسم عظيم من الارض يقطنه ملايين من المسيحيين يتمتعون الى الآن بسائر مايتمتع به الوطني في وطنه اقوم تشهد لهم بداهة التاريخ بأنهم ألزم الاقوام لأدب الجوار وابعدهم عن تحكم الغاب وجبروت السيادة الذي يظهر من كل فاتح عظيم

آن للاوربيين ان يمزقوا عن بصائرهم حجب الغرض والوهم ويعلموا ان الاسلام يأمر أهله بالتآلف وحسن المعاشرة والجوار ومحاسنة من احسن اليهم وان لا يخاشنوا الا من خاشنهم واراد امتهانهم وان المسلمين بما فطروا عليه من كرم الاخلاق وجميل المعاشرة اعظم الناس اعترافاً بالجميل ورضىً بالقضاء وميلا للفضيلة وقد قضي جهل امرائهم بتقلص ظل سلطانهم السياسي عن معظم ممالكهم الشاسعة فدالت دولة المشرق للغربيين فاذا حكمهم هؤلاء بالعدل وساسوهم بالرأفة وعاملوهم معاملة النظير امتلكوا قلوبهم واستأنسوا نافرهم واستفادوا من إخلاصهم كما تستفيد الآن دولة انكلترا من اخلاص المسلمين الذين تحت حكمها الواسع لاطلاقها لهم حرية الفكر والدين ونشرها بينهم انوار المعارف والعلم والا فمن الظلم الفاضح والعار المشين على الدول المتمدنة المسيحية

وأخصها جمهورية فرانسا الجائرة على المسلمين أن تعامل محكوميها من المسلمين بعكس ما تعامل به الدول الاسلامية حتى هـذا اليوم رعاياها المسيحيين من منحهم حرية لتمتع بسائر ما يتمتع به رعاياها المسلمون من الحقوق لاسيما في المملكة العثمانيـة ومن البعث ان تخط الدول الاوربية لنفسها خطة العسف وحب الأثرة والجور في حكمها في المشرق وترجو مع هذا تمكن سلطانها في هذا الجزء العظيم من الارض وفيه ثلاثمائة مليون من المسلمين كانت لهم السيادة عليه والسلطان العظيم فيه ومن الحكمة وحسن السياسة أن يعوضوا عن هذا السلطان بجميل المعاملة وحقوق الوطنية والقرار ولو كانوا أمة صغيرة أوشعباً حقيراً لا يؤبه له كهنود أميركا فلا ساغ للدول الاوربية أن تذيقهم ما شاءت من ضروب القسوة والاذلال حسبما يوحيه اليها شرع التمدن الحديث وأما أمة كالمسلمين شأنها ما ذكرنا فمن المحال ان ترضى لنفسها الاذلال وإن طال عليها المطال والله ولي الرشد وهو الموفق بين القلوب

باب

فتوح الشام

علمنا مما مر في الجزء الاول كيف أن الجيوش الاسلامية فلّت جموع الروم على اليرموك وذكرنا ثمة ما كان من الخلاف بين المؤرخين في ترتيب الوقائع التي كانت قبل ذلك الى فتح دمشق وفي الحقيقة إنّ تلاحق الوقائع التي حدثت بالشام من أوائل السنة الثالثة عشرة الى أوائل السنة الرابعة عشرة أوجد اضطراباً في الروايات في ترتيب تلك الوقائع واختلافاً بين الرواة في تعيين الزمن لا في أصل

الوقائع بل هذه اتفق عليها ثقات المتقدمين من رواة تاريخ الفتح الاسلامي كسيف بن عمر الاسدي وابن اسحاق والواقدي ومن تلاهم من مدوني التاريخ كابن جرير الطبري والدينوري وابن واضح وغيرهم من المتقدمين وقد استقصى ابن جرير في تاريخه معظم الروايات الواردة عن المحدثين بأخبار الفتح على اختلافها وترك الحكم فيها للناقد شأن كل المؤرخين في الاسلام ونحن نعتمد ما اعتمده المؤرخون بعد في سرد الوقائع المختلفة في تعيين زمنها إذ ليس سرد الروايات من الاهمية في شيء ما دام من الثابت حصول الوقائع وما أظن ذلك الاختلاف بين الرواة ناشئاً الا عن حصول عدة من الوقائع في آن واحد أوردها الرواة متفرقة من طرق شتى فاختلط أمرها على المؤرخين وبعض الرواة أو ان تلاحق بعض الوقائع ببعض أوجب ذلك الاختلاف كما ذكرنا قبل والعبرة في كلا الحالين في تحقيق الخبر لا في تعيين الزمن كما لا يخفى على بصير

فتح دمشق

وانحياز هرقل الى حمص

لما انتصر المسلمون في وقعة اليرموك كان هرقل في أورشليم وقد جاءها لاجل الاحتفال بعيد تخليص الصليب المقدس الذي استرده من دولة الفرس قبل ذلك ولم يكن هو ورجال دولته بموقنين بان قوة المسلمين تبلغ من كيدهم مالم تبلغه جيوش دولة الفرس العظيمة حتى جاءه خبر انتصار المسلمين في اليرموك فنخب قلبه وأسقط في يده فنظر فرأى أن مقامه في أورشليم (القدس) خطر عليه سيما اذا انساح المسلمون في أحشاء البلاد فأسرع بالرحيل الى شمال سورية ولحق بمدينة حمص ليجعلها مقراً لاعماله الحربية ومن ثم أخذ يبث المقاتلة ويذكي العيون ويسرح القواد الى مواقف الحرب وسلم أخاه تذارق (لعله تيودور) القيادة العامة

وتربص هو في حمص. وقد اخذ عليه بعض المؤرخين عدم حضوره الوقائع بنفسه وانه لو حضرها لكان ذلك أدعى لتشجيع جنوده وأرجى للنصر على أن هرقل كان ملكا حازماً ليس بالجاهل ولا الجبان يدلك على هذا ظفره قبل حربه مع العرب بالفرس[1] لهذا فلا بد لتخلف هرقل عن جيشه في حرب المسلمين من عذر

(١) كان الفرس غزوا بلاد الروم ودوخوا ممالك الدولة البزنطية حتى وصلوا الى القسطنطينية وذلك حوالى سنة (٦١٤م) فاشهر هرقل عليهم الحرب ثانية سنة (٦٢١م) أي بعد الهجرة بسنة واسترد هذه البلاد والقصة مشهورة جاءت في القرآن الكريم في قوله تعالى (ألمَ غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) ويعني بادنى الارض اذرعات وهي ادنى ارض الروم الى العرب وكانت الروم قد هزمت بها في بعض وقائعها وكان سبب نزول الآيات ان النبيّ صلى الله عليه وسلم كان قد ساءه وساء المسلمين ظفر الفرس اولا بالروم لان الروم أهل كتاب وفرح مشركو العرب لان المجوس اميون مثلهم فلما نزلت هذه الآية راهن أبو بكر الصديق ابيّ بن خلف على أن الظفر يكون للروم الى تسع سنين مصداقاً لما نزل به القرآن والرهن مائة بعير (ولم يكن الرهن يومئذ حراماً) فظفرت الروم وغلب أبو بكر وأتى الخبر بظفر الروم النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وكانت سنة ست للهجرة واذ كانت حملة هرقل على الفرس ابتدأت سنة (٦٢١م) و التي بعدها أي قبل الهجرة بسنة واحدة وكان الروم غلبوا مرة في هذه السنة فتكون استمرت هذه الحرب نحو سبع سنين وانتهت بظفر الروم مصداقاً لما نزل به القرآن الكريم في قوله تعالى (في بضع سنين) والبضع ما بين الاربعة الى التسعة وقد جاء في تواريخ الغربيين ما يؤيد ذلك وحصل ما ذكره عن هذا الحادث ادورد جبون الانكليزي في (تاريخ الامبراطورية الشرقية) ان كسرى ابرويز ملك الفرس غزا بجيوشه مملكة الرومان الشرقية « البزنطية » في سنة « ٦١٤ م » لاسباب لامحل لذكرها هنا فدوخ سورية ومصر وآسيا الصغرى حتى وصل الى حدود القسطنطينية ولما رأى الامبراطور هراكليوس « هرقل » ذلك الخطر المحدق بعاصمته خشي ان هو حارب الفرس قربها ان تسقط في ايديهم فجهز اسطولا عظيما شحنه بالمقاتلة والمؤن وخرج به في سنة «٦٢٢م» من القسطنطينية حتى بلغ هلسبونت « جناق قلعه » ومن ثم مخر الاسطول في عباب

اضطره لهذا التخلف ولعله لما رأى منهم شدة البأس والدربة على الحرب وحسن السياسة في البلاد التي افتتحوها وشعر بميل السوريين اليهم وتأففهم من جور الحكام الرومانيين خامر نفسه شيء من اليأس من امكان دفع المسلمين عن البلاد لاسيما وان الحرس الروماني في البلاد السورية لم يكن في عدد كافٍ لحماية البلاد وانما كان حملتها من العرب المتنصرة ومن نفس سكان البلاد الذين كانوا خليطاً من السريان والعرب واليهود والروم واذا صح هذا الظن فلا يؤآخذ هرقل على انحيازه الى حمص وتباعده عن مواقع القتال أخذاً بالحيطة لنفسه وتمسكا بأسباب النجاة اذا ظفر المسلمون بجنود الروم وانكفأوا على شمال البلاد

لم يكن المسلمون يومئذٍ على ما يعهد فيهم من البداوة جاهلين بأحوال البلاد غير خبيرين بقوة اهلها وطرقها ومسالكها بل كانوا على بصيرة من امرهم ووقوف على مبلغ قوة عدوهم بمن كان فيهم من سادات قريش الذين اختبروا حالة البلاد في الجاهلية باختلافهم اليها للمتاجرة لهذا أعدوا لهذه الحرب عدتها من التدرب والاناة وحسن البصيرة في ترتيب الجيوش وقيادتها يضاف الى هذا

البحر الابيض حتى انتهى الى الاسكندرون بعد معاناة نصب شديد في البحر وهناك رأى هرقل في جون الاسكندرون مرسى أميناً لسفنه لا يصل اليه كيد البحر ولا كيد العدو فأمر بان ترسو فيه السفن وانزل الجنود الى حدود سورية وكيلكيا « ادنه » ورتب معسكره قرب اسس في السهل الذي انتصر فيه الاسكندر المقدوني على ملك الفرس « وهو سهل الاسكندرون » وأخذ يدرب جنوده على فنون الحرب ويهيئهم للطعن والضرب ولما علم بذلك الفرس اكتفأوا لقتاله من داخل البلاد فانتصر عليهم بحسن تدبيره الحربي ومزق جموعهم كل ممزق ثم جهز عليهم حملة ثانية ومازال بهم حتى أجلاهم عن مملكته ولما كانت سنة « ٦٢٨ م » استقر الصلح بين الفريقين وكان ولي ملك فارس كسرى ازدشير بعد ان قتل أباه ابرويز فصالح هرقل على ان تعاد تخوم المملكتين الى أصلها اه وجاء في تاريخ الكامل لابن الاثير ما يطابق معنى ما ذكره جبون وفيه زيادة تفصيل

مايصاحب عامة المقاتلين من الشجاعة العربية وكمال الايمان وعدم الرهبة من الموت في سبيل نصرة الأسلام وتعميم دعوة القرآن . لهذا فلا يتوهمن متوهم من بداوة أولئك الفاتحين الشجعان أن حروبهم مع الروم أو الفرس كانت همجية على غير نظام ولا ترتيب بل انهم كانوا على أحسن ما يكون من البصيرة بأمر الحرب يعلم هذا من دقق النظر في كيفية حروبهم مع الروم في الشام وكيفية قيادتهم للجيوش وتبصرهم في تدويخ البلاد كما سيأتي بيانه في غضون الكلام في فتح دمشق وغيرها وسنفرد له فصلا خاصاً نفصل فيه الكلام على ذلك أحسن تفصيل ان شاء الله تعالى وها نحن ذاكرون هنا كيفية مسير المسلمين الى دمشق بعد اليرموك نقلاً عما ذكره الطبري من رواية سيف وذلك بعض تصرف واختصار قال

لما هزم الله جند اليرموك وتهافت أهل الواقوصة وفرغ من المقاسم والانفال وبعث بالاخماس وسرّحت الوفود استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب بن ابيّ الحميريّ كي لا يغتال بردة ولا تقطع الروم على موادّه[1] وخرج أبو عبيدة حتى نزل بمرج الصفّر وهو يريد اتباع الفالّة ولا يدري يجتمعون أو يفترقون فأتاه الخبر بأنهم اجتمعوا بفحل وانّ المدد قد أتى أهل دمشق من حمص فهو لا يدري أبدمشق يبدأ أو بفحل من بلاد الاردن فكتب في ذلك الى عمر وانتظر الجواب وأقام بالصفّر فلما جاء عمر فتح اليرموك أقرّ الامراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر الاّ ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فانه ضم خالداً الى أبي عبيدة وامر عمراً بمعونة الناس حتى يصير الحرب الى فلسطين ثم يتولى حربها

ولما انتهى كتاب أبي عبيدة الى عمر بالذي ينبغي ان يبدأ به كتب اليه (أما بعد

(١) أي كي لا تقطع عليه خط المواصلة على الاصطلاح المعروف الآن في فن الحرب

فابدأوا بدمشق فانهدوا لها فانها حصن الشام وبيت مملكتهم وأشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بازائهم في نحورهم وأهلَ فلسطين وأهلَ حمص فان فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب وان تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها وانطلق أنت وسائر الامراء حتى تغيروا على فحل فان فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد الى حمص ودع شرحبيل وعمراً وأخلهما بالاردن وفلسطين وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من امارته

فسرّح أبو عبيدة عشرة قواد أبا الاعور السلميّ وعبد عمرو بن يزيد ابن عامر الجرشي . وعامر بن حثمة . وعمرو بن كليب من يحصب . وعمارة ابن الصَّعق بن كعب . وصَيْفيّ بن علبة بن شامل . وعمرو بن الحبيب بن عمرو . ولبدة (أو وليدة) عامر بن خَثْعَمَة . وبشر بن عصمة . وعمارة بن مُخَشٍ (أو مخشي) قائد الناس ومع كل رجل خمسة قواد وكانت الرؤساء تكون من الصحابة حتى لايجدوا من يحتمل ذلك منهم فساروا من الصُفَّر حتى نزلوا قريباً من فحل فلما رأت الروم ان الجنود تريدهم بثقوا المياه حول فحل فاردغت الارض ثم وحلت واغتم المسلمون من ذلك وحبس من فيها عن المسلمين وكان أول محصور بالشام أهل فحل ثم أهل دمشق

وبعث ابو عبيدة ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص ردءًا . وبعث علقمة بن حكيم ومسروقاً فكانا بين دمشق وفلسطين والامير يومئذ يزيد بن أبي سفيان[1] فقدم خالد بن الوليد وعلى مجنبتيه عمرو وأبو عبيدة وعلى الخيل عياض ابن غنم وعلى الرجل شرحبيل بن حسنة فقدموا على دمشق وعلى الروم نسطاس ابن نسطوس (وفى رواية باهان) فحصروا أهل دمشق ونزلوا حواليها . فكان

(١) يعني انه امير على حرب دمشق

أبو عبيدة على ناحية وعمرو على ناحية وخالد على ناحيـة ويزيد على ناحية وهرقل (هراكليوس) يومئذ بحمص فحاصروا أهل دمشق نحواً من سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحف والترامي والمجانيق والروم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث وذو الكلاع بينهم وبين حمص يمنع عنهـم المدد وجاءت خيول هرقل مغيثة لأهل دمشق فاشجتها الخيول التي مع ذى الكلاع وشغلتها عن نصرة الدمشقيين فلما أيقن أهل دمشق أن الامداد لا تصل اليهم فشلوا ووهنوا وقد كانوا يظنون انها كالغارات قبل ذلك اذا هجم البرد قفل المسلمون فسقط النجم والقوم مقيمون فعند ذلك انقطع رجاؤهم وندموا على دخول دمشـق وفي غضون ذلك ولد للبطريق الذي على أهل دمشق مولود فأعد للقوم وليمة فأكلوا وشربوا وغفلوا عن مواقفهم ولا يشعر بذلك أحد من المسلمين الا ما كان من خالد فانه كان لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه من أمورهم شيء عيونه ذاكية وهو معنيّ بما يليه قد اتخذ حبالا كهيئة السلاليم وأوهاقاً فلما امسى من ذلك اليوم نهد ومن معه من جنده الذين قدم بهم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عديّ وأمثاله من أصحابه وقالوا اذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا الينا وانهدوا للباب فلما انتهى الى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشرف وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها الخندق فلما ثبت لهم وهقان تسلق القعقاع ومذعور واثبتا الاوهاق بالشرف فتسلق خالد وأصحابه وكان المكان الذي اقتحموا منه احصن مكان يحيط بدمشق واشده مدخلا ولما استووا على السور حدر خالد عامة اصحابه وانحـدر معهم وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي وامرهم بالتكبير فكبر الذين على راس السـور فنهد [1] المسلمون الى الباب ومال الى الحبال

(١) في القاموس نهد الرجل نهض ونعدوه صمد لهم

بشر كثير فوثبوا فيها وانتهى خالد الى أول من يليه فأناموهم وانحدر الى الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة وفزع الناس ولا يدرون ما الشأن وتشاغل أهل كل ناحية بمن يليهم وقطع خالد بن الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم من داخل حتى مابقي مما يلي باب خالد مقاتل الا أنيم ولما شد خالد على من يليه وبلغ منهم الذي أراد عنوة اجتمع من أفلت الى أهـل الابواب التي تلي غيره وقد كان المسلمون دعوهم الى المشاطرة فأبوا وابعدوا وجاءوا الآن يبذلون لهم الصلح فاجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم الابواب وقالوا ادخلوا وامنعونا من أهل ذاك الباب فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد مما يليه عنوة فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا استعراضاً وانتهاباً وهذا صلحاً وتسكيناً فاجروا ناحية خالد مجرى الصلح فصار صلحاً وكان صلح دمشق على المقاسمة الدينار والعقار ودينار عن كل راس فاقتسموا الاسلاب فكان اصحاب خالد فيها كاصحاب القواد وجرى على الديار ومن بقي في الصلح جريب حنطة من كل جريب ارض ووقف ما كان للملوك ومن صوب معهم فيئا [1] وقسموا لذي الكلاع ومن معه ولأبي الأعور ومن معه ولبشير ومن معه (وهم القواد الذين ارسلهم ابو عبيدة ليحولوا بين دمشق والامداد) وبعثوا بالبشارة الى عمر وقدم على أبي عبيدة كتاب عمر ان اصرف جند العراق الى العراق فسرحهم وهم عشرة آلاف وعليهم هاشم بن عتبة ومعه القعقاع بن عمرو

(١) الفيء هو مايـنال من محارب بعد وضع الحرب اوزارها وصيرورة داره دار اسلام وهو الجزية وعشر التجارة وما يصالح عليه من المال وحكمه ان يكون لسائر المسلمين فيه نصيب وقد فصلنا الكلام على هذا تفصيلاً في كتابنا (تنبيه الافهام الى مطالب الحياة الاجتماعية والاسلام) وبينا ثمة ان ما ترمي اليه مقاصد الاشتراكيين في هذا العصر سبقهم اليه الاسلام لكن على وجه معقول لايصادم أحكام العقل والحس

وذكر البلاذري في سبب فتح دمشق غير ما تقدم من رواية الطبري وقال ان فتحها كان بممالأة الاسقف الذي كان اعطاه خالد عهداً وأماناً على دمشق حين مروره عليها في اول مجيئه الشام وذلك بان أرسل اليه الاسقف بعض أصحابه وأعلمه بان القوم في عيد لهم وان الباب الشرقي ردم وليس عليه أحد من الحرس (وقد مرت حكاية هذا الاسقف وصورة الكتاب في سيرة خالد بن الوليد) وان خالداً لما دخل المدينة كان ابوعبيدة دخلها من باب آخر عنوة فالتقيا في دخولهما بالمقسلاط وهو موضع النحاسين بدمشق وهوالبريص الذي ذكره حسان بن ثابت في شعره حين يقول

يسقون مَنْ وَرَدَ البُرَيْصَ عليهم بَرَدَى يصفّق بالرحيق السلسل

ولا يخفى ما في هذه الرواية من الوهن لان الصحيح الثابت في الاخبار ان ابا عبيدة لم يدخل دمشق عنوة بل دخلها صلحاً

وقد اتفق كثير من الرواة والمؤرخين على ان الذي تولّى عقد الصلح مع الدمشقيين هو خالد بن الوليد وامضاه له ابو عبيدة بعد ان أطلعه على كتاب عمر رضي بعزله عن امارته وممن ذكر هذا الطبري في روايته عن ابن اسحق والبلاذري في تاريخه فتوح البلدان وفي هذا ما يدل على ان خبر عزل خالد لم يأت وهم على اليرموك بل انما أتى وهم على دمشق او مرج الصفر وكتمه عنه ابو عبيدة ريثما تم الفتح وفي حكاية قيام المسلمين من اليرموك وتربصهم في الصفر في انتظار كتاب عمر بالذي ينبغي ان يبدؤا به ما يستنتج منه ترجيح ورود الكتاب بعزل خالد وهم على الصفر والله اعلم

واما صلح اهل دمشق فقد كان كما مر في رواية الطبري على دينار على كل رأس وجريب من الحنطة على كل جريب من الارض وعلى المقاسمة على العقار

والدينار على ان هناك ما يوهن رواية من روى أمر المقاسمة فقد جاء في كتاب كتبه عمر بن الخطاب الى ابي عبيدة بن الجراح ما نصه (واما الحنطة والشعير التي وجدتموها في دمشق وكثرت مشاجرتكم عليها فهي للمسلمين واما الذهب والفضة ففيهما الخمس) وهـذا يدل على ان المسلمين اختلفوا في هل يشاطروا الدمشقيين على نصف ما وجدوه عندهم من الدينار والدرهم فكتب ابو عبيدة يستشيره في الامر فأمره بأخذ خمس الفضة والذهب فقط وسيرد معنا هذا الكتاب بجملته في باب كتبه ان شاء الله

وقال البلاذري في فتوح البلدان ما نصه « زعم الهيثم بن عدي ان أهل دمشق صولحوا على انصاف منازلهم وكنائسهم وقال محمد بن سعد قال أبو عبدالله الواقدي قرأت كتاب خالد بن الوليد لاهل دمشق فلم أر فيه انصاف المنازل والكنائس وقد روي ذلك ولا ادري من أين جاء به من رواه ولكن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من اهلها بهرقل وهو بانطاكية فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون » انتهى ما نقله البلاذري من قول الواقدي ويؤيده كتاب خالد بن الوليد الذي اعطاه لاهل دمشق وفيه الامان على كنائسهم ودورهم لا يسكن منها شيء وقد مرت صورة الكتاب في سيرة خالد على انه سواء صحت هذه الرواية او الرواية الأولى فان المسلمين أجروا نصف كنيسة ماريوحنا مجرى الصلح والنصف الآخر مجرى السيف وهو النصف الشرقي الذي يلي الباب الذى دخل منه خالد بن الوليد وجعلوه مسجداً لهم وما زال كذلك حتى أيام الوليد بن عبد الملك فاشترى النصف الآخر منهم وجعله كله جامعا لم يزل يعرف لهـذا العهد بجامع بني أمية وسيأتي الكلام عليه في سيرة الوليد ان شاء الله

وأما باقي كنائس دمشق فالمعروف انه كان منها بيدهم بعهد من المسلمين

الى خلافة عمر بن عبد العزيز خمسة عشر كنيسة وروي البلاذري ان بعضهم أقطع كنيسة منها لبني نصر فردها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الى النصارى هذا واما الجزية فانها كانت في بادئ الامر ديناراً على كل رأس كما علمت مما تقدم ثم عدلها عمر بن الخطاب (رض) فجعلها على ثلاث طبقات على الغني بنسبة غناه والمتوسط بنسبة توسطه والفقير بنسبة فقره

الى هنا انتهى ما احببنا ايراده من الخبر عن فتح دمشق التي كانت ام المدن السورية ومهد الصناعة الشرقية وزهرة البلاد وازدادت بعد الفتح الاسلامي لا سيما في عهد الامويين مجداً على مجدها وعمراناً على عمرانها واما ولايتها بعد الفتح فقد صارت الى يزيد بن ابي سفيان ثم الى اخيه معاوية ثم قدر لها ان تكون بعد ذلك عاصمة ذلك الملك الاسلامى العظيم الممتد من حدود الهند في الشرق الى شطوط الاطلانتيك في الغرب اي عهد الامويين لا عاصمة سورية وحدها وسيأتي الكلام على هذا في محله ان شاء الله

وقد اختلف المؤرخون في الزمن الذي افتتحت به دمشق فروى بعضهم انها فتحت في اواخر سنة ١٣ للهجرة وبعضهم قال فى اوائل المحرم افتتاح سنة ١٤ وبعضهم قال انها فتحت فى رجب من هذه السنة ولعله لاصح

﴿ بطلان خبر ﴾

سألني بعضهم عن حكاية رآها فى تاريخ انكليزي وهي ان خالد بن الوليد لما افتتح دمشق صالح اهلها على ان من يريد منهم الجلاء يمهل بعد سفره ثلاثة ايام اذا مضت وادركه المسلمون فدمه مهدور وان اهل دمشق جلوا وتبعهم المسلمون بعد ثلاثة ايام فقتلوهم ولا يخفى ما فى هذه الحكاية من العار على المسلمين يومئذ فيما لو صح عنهم مثل هذا الخبر مع انهم كانوا اوفى الأمم الفاتحة بالعهد وابعدهم عن مثل

هذا الظلم الذي يأباه دينهم وتنزه عنه شيمهم العربية واخلاقهم الفطرية فبحثت عن هذا الخبر فيما دوّنه رواة الأخبار من المتقدمين كالطبري والبلاذري وابن واضح المعروف باليعقوبي وفى تواريخ المتأخرين كتاريخ ابن الأثير الذي هو اوثق التواريخ فلم اجد لهذا الخبر من اثر وانما رايته فى بعض تواريخ معاصرينا من المسيحيين كتاريخ سورية لجرجي افندي ينى وتاريخ الوافي لامين افندى شميل وكلا التاريخين وان كان مؤلفاهما عربيين الا ان عبارتهما تدل على ان مافى التاريخين مترجم عن لغة اعجمية لم تذق طعم العربية البتة وان المؤرخين كانا ابعد الناس عن تحقيق امثال تلك الحوادث من كتب التاريخ العربية الوثيقة التي لم تغادر كبيرة ولا صغيرة الا اتت على ذكرها تفصيلا فى البعض واجمالا فى البعض الآخر ولم تغفل حادثة من ادنى حوادث الفتح فكيف تغفل مثل هذه الحادثة ولعل بعض مؤرخي الاوربيين الولعين بالبحث عن مساوي المسلمين وستر محاسنهم التقطوا ذلك الخبر من كتب المغازي والقصاصين كفتوح الشام وامثاله من الكتب التي هي ابعد عن الثقة واقرب للخلط والخبط منها الى التاريخ او عن كتب مؤرخي الروم وهي لا تخلو عن لغو القول والمبالغة في ذم الفاتح بالطبع

على انه مما يوهن اساس هذه الفرية ويدل على بطلان هذا الخبر ماقاله بعض مؤرخيهم من ان المسلمين ادركوا اولئك الناس وراء اللاذقية وفتكوا بهم بعد انقضاء الاجل (وكان بزعمهم ثلاثة ايام) ومن البديهي ان البلاد يومئذ كانت كلها دار حرب وكانت الجنود الرومانية والسورية كلها مرابطة فى البلاد واقفة على قدم الأهبة لصد المسلمين الذين لم تكن سلطتهم بعد تجاوزت دمشق وحوران والناس واقفون لهم على قدم الاهبة فى كل مكان لما يتوقعونه من انكفائهم على البلاد بعد فراغهم من دمشق فكيف يتيسر لسرية منهم ان تقتحم

البلاد الى ما وراء اللاذقية وهذا حال أهلها من اليقظة والاستعداد وما الحامل لجند المسلمين على تتبع أثر قوم لهم عليهم عهد وميثاق فاذا قيل الطمع فيقال ان امامهم البلاد لم تزل فسيحة الارجاء كثيرة الغنائم والخيرات وليس فيهم من يشك بمصير البلاد وأهلها وكنوزها اليهم في أقرب آن وان قيل غير ذلك من نحو التعصب أو الظلم أو غيره فيقال ان التاريخ يبرئ تلك العصابة المؤمنة بكتاب الله الآمر بالعدل الناهي عن الظلم عن أمثال تلك المساويء الشائنة وقد مرّ معنا في هذا التاريخ ما يدل على ترفع اولئك القوم الفاتحين عن الخسائس التي قضى عليها نظام دينهم الجديد وشرعهم المستقيم وعدا هذا كله فان الفاتحين مهما بلغ بهم فساد الاخلاق والظلم فالسياسة تقضي عليهم بالمجاملة والرفق مع القوم المغلوبين ريثما يتم لهم الفتح والعرب يومئذ قد كان فيهم من القواد المحنكين مثل أبي عبيدة وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان فكيف يمكنون جندهم من إتيان مثل ذلك المنكر والبلاد على وشك الفتح وينبغي للمسلمين ان يتألفوا قلوب أهلها بحسن المعاملة وجميل المعاشرة مع أن العرب لم يكونوا في جاهليتهم مع شهرتهم بسفك الدماء ومثابرتهم على الغزو يعرضون للنساء والاطفال بالقتل فكيف بهم في الاسلام وقد حرم عليهم سفك الدماء ظلما ان يعرضوا لأولئك المساكين بالقتل وربما كان معظمهم من النساء والاطفال انّ هذا لما تأباه نفوسهم العربية وتمنعهم منه المرؤة والدين اذن فذلك الخبر باطل من كل الوجوه واذا ورد في كتب مؤرخي الروم فمصدره الغرض واذا ورد في كتب القصاصين فمصدره الجهل ولا يشك في هذا عاقل البتة

بحث

في هل كانت دمشق قاعدة للغسانيين

سبق لنا في التمهيد الذي قدمناه في الجزء الاول عند الكلام على فتوح الشام ان قلنا على سبيل الاستنتاج ان معظم ولاية الشام كانت على عهد الفتح في أيدي العرب وانه كانت عليهم حماية البلاد واليهم ينتهي نفوذ الكلمة والسلطان الى أن قلنا (والظاهر ان دمشق نفسها كانت عربية يومئذ بدليل انها كانت تحت الحرث الغساني أحد ملوك بني غسان على عهد الفتح الاسلامي فهي اذن عاصمة ذلك الملك العظيم الممتد منها الى الشمال والشرق حتى البادية ومن الجنوب والجنوب الغربي حتى الحجاز والعقبة وكله كان مأهولا بالعرب)

وقد التمسنا في ذلك الجزء من أهل الفضل والعلم ان يتكرموا علينا ببيان مواضع الخطأ فيما ننقله أو نرتئيه في كل جزء لنبادر الى اصلاحه في الجزء الذي يليه فكان ممن أجاب ملتمسنا الفاضل المدقق جورجي افندي زيدان في مجلته (الهلال) الغراء فأخذ علينا ذلك القول بعبارة تدل على كمال أدب وفضل وتنبئ عن سعة في الاضطلاع وميل عرفناه به للتحقيق ومؤدى انتقاده عليّ بهذا الصدد ان العرب لم يكونوا يومئذ الاّ في البادية وحوران وان دمشق لم تكن تحت بني غسان بل كانت حاضرة ولاية يحكمها ولاة من قبل القياصرة وان حاضرة بني غسان كانت بُصرى في حوران وانه لم يقرأ ان احداً من ملوك غسان أقام في دمشق أو تولى حكومتها الا اذا كنا اطلعنا على نص لم يطلع هو عليه وأن عرب الشام لم يكونوا الا آلة بيد الروم يسوقونهم لقتال عرب العراق والفرس عند الحاجة وليسو في المكانة التي وصفناهم بها ثمة : ونحن مع شكرنا لاحلال صديقنا الفاضل كتابنا محل النظر والانتقاد وإقرارنا بالعجز عن بلوغ

شأو المحققين في التاريخ نجيبه بما يلي

بنينا ذلك الاستنتاج ثمة على ما رواه الطبري من أن خالد بن الوليد لما جاء من العراق لنجدة المسلمين بالشام فتح كل ما مرّ عليه في البلاد في مروره على القلمون الاسفل وكان آخر فتحه مما يلي دمشق (قُصَم) وقاتل فيها بني مَشْجَعَة ثم انحدر الى المرج من ثنية العقاب فقاتل فيه بني غسان والذى أوهمنا أن الطريق الذي مر عليه خالد منذ دخل البادية الشامية الى أن بلغ دمشق كان مأهولا بالعرب جَعْلُ الطبري آخر الفتح مما يلي دمشق وقبل وصوله الى ثنية العقاب (قُصَم) وانه قاتل فيها بني مشجعة من قضاعة على اننا بعد ان كتبنا ذلك الفصل راجعنا ما كتبه ياقوت في معجمه عن (قصم) فاذا هو يقول انها موضع بالبادية قرب الشام فذيلنا ذلك الاستنتاج بما يفيد ضعفه اذا صح قول ياقوت تفادياً من ارتكاب الخطأ في وضع الظن موضع اليقين كما رأيت في الجزء الماضي لا أن هذا اذا نفى قولنا أن القلمون الاسفل كان مأهولا بالعرب لا ينفي قولنا أن ما يليه شرقا الى شطوط الفرات كان من أماكن العرب بدليل أن ذلك القسم لم يزل من منازل العرب الرّحل الى الآن والبلاد التي فيه كضُمير والقريتين وتدمر والسُخْنة كل سكانها من العرب بل وهناك بعض القرائن التاريخية التي تدل على أن ذلك القسم الذي كان مملكة مستقلة عاصمتها تدمر الشهيرة كان محكوماً بالعرب ومن تلك القرائن انفراد مدينة تدمر في طرف البرية في وسط منازل العرب

ومنها أن أحد أشراف هذه المدينة المسمى أودينانوس الذي قام وهاجم سابور ملك الفرس وأفتك منه بلاد ما بين النهرين (الجزيرة) التي كان أخذها من الرومان ثم اسس لنفسه ملكا وبسط سلطته على الجزيرة وسورية في اواسط القرن الثالث قبل المسيح قد اختلف المؤرخون في اصله هل هو عربي ام سرياني

فاذا رجحنا كونه عربياً بقرينة موضع وطنه الجغرافي وهو تدمر ثبت معنا ان هذه المدينة وما حولها من البلاد كانت عربية ولم تزل كذلك

وكذلك لا ينفي قولنا ان القسم الواقع شرقي دمشق وهو مرج راهط كان مأهولا ببني غسان لان النص صريح على ان خالداً واقعهم فيه يوم عيدهم .وكذلك لا ينفي قولنا ان القسم الذي يلي دمشق من جهة الجنوب الى حوران حتى العقبة والحجاز كان مأهولا بالعرب فانه معلوم بالبداهة وكان اشهر مدنه بصرى واشمسكين واطلعنا في تاريخ الطبري وفي فتوح البلدان على نص يفيدان شمالي سورية ايضاً كانت بعض مدنه مأهولة بالعرب فقد جاء فيهما ان ابا عبيدة لما افتتح قنسرين صالحه اهل حاضر قنسرين وكانوا من تنوخ ومصّروا هذا الحاضر لما تنخوا فدعاهم الى الاسلام فأسلم بعضهم واقام على نصرانيته بنو سليح من قضاعة ثم اسلموا في خلافة المهدي العباسي وكذلك حاضر حلب وهو غير حاضر قنسرين كان من مدن العرب ولا يبعد ايضاً ان يكون العرب هم الذين مصّروا غزة في الجنوب الغربي من سورية فسميت غزة هاشم نسبة الى هاشم الثريد كما يقولون

وحق لقوم يشغلون بالسكنى قسماً عظيما من سورية ويتوطنون في أحشاء البلاد مع ما اشتهر عن العرب من حب الاستقلال والحرية ان يكون لهم من النفوذ والسلطان في البلاد اكثر مما لغيرهم من العناصر الأخرى التي كانت تقطن هذه الولاية العظيمة كالسريان والأرمن والروم واليهود وبقية الأخلاط الذين هم ليسوا الامن الجالية حاشا العرب والسريان والبلاد وان كانت يومئذ تابعة لدولة الروم الا انه لايعقل أن يكون الجنس الروماني اكثر الاجناس القاطنين في سورية ولا اقواها ايضاً وإن كانت بيده حكومة البلاد

اذا تقرر هذا فلا بدع ان يكون على الملوك من بني غسان حراسة البلاد

وان يكون لهم فيها نفوذ أمر وسلطان لا سيما وانهم رجال حرب كما انهم اهل ثروة وغنى لان البلاد التي هم فيها كحوران والكرك ومعان وتدمر كلها بلاد زرع وضرع وهي من اخصب البلاد السورية ولم تزل كذلك الى هـذا العهد واذا اضفنا الى هذا وهن السلطة الرومانية يومئذ وضعف سلطانها في البلاد لا نكون مبالغين فيما فاننا عن استغلاظ شأن العرب في سورية وان كان ذلك من قبيل الاستنتاج

واما قولنا ان دمشق كانت قبيل الفتح الاسلامي تحت الحارث[1] الغساني فأنا وإن لم نقف في شأنه على نص صريح سوى قول الدكتور فانديك سيأتي بيانه إلاّ أن هناك من الاخبار التاريخية ما يستنتج منه ان عاصمة بني غسان قبيل الفتح كانت دمشق الشام ومن تلك الاخبار ما ذكره الطبري في تاريخه عن مجيء خالد بن الوليد من العراق الى الشام حيث قال مانصه

ثم نزل (يعني خالداً) الـكَثَب حتى صار الى دمشق ثم مرج راهط فلقي عليه غسان وعليهم الحارث بن الايهم (يريد به جبلة) الخ الخبر

وجاء في السير ان النبي صلى الله عليه وسلم ارسل شجاع بن وهب بكتاب الى الحارث بن ابي شمر الغساني يدعوه الى الاسلام فأتاه وهو بغوطة دمشق يهيئ النزل لقيصر وقد كان قاصداً إيلياء فشغل عنه الحارث ثم دعاه يوماً وقرأ الكتاب الذي معه وغضب وقال من ينتزع مني ملكي الخ

ولما وفد حسان بن ثابت الانصاري قبل اسلامه على آل جفنة وهم ملوك

---

(١) اسم الحارث يطلق على كل ملك من ملوك غسان كما يطلق اسم قيصر على ملوك الروم وكسرى على ملوك الفرس وملك غسان الذي كان على عهد الفتح هو جبلة بن الايهم

غسان امتدحهم بأبيات قال فيها

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلّق في الزمان الأول

ومنها

اولاد جفنة حول قبر ابيهم قبرُ بنِ مارية الممّ المُخول

يسقون من وَرَدَ البُرَيْصَ عليهم بَرْدَى يصفّق بالرحيق السلسل

والبريص الذي جاء في الابيات هو قصر لآل جفنة على نهر بردى الذي هو نهر دمشق وجلّق من أسماء دمشق وقد تقدم معنا في خبر فتح دمشق ماقاله البلاذري في تاريخه من انّ خالداً وابا عبيدة التقيا في دخولهما الى دمشق بالمقسلاط وانه هو البريص

ولا يخفى على الناقد ان التصاق ملوك غسان بدمشق كما يرى من هذه الروايات يحمل المؤرخ المحقق على الحكم بانهم كانوا قبيل الفتح اصحاب السيادة على دمشق والذي يترجح عندنا أنّ الفرس لما دوخوا الولايات الرومانية سنة (٦١٤م) أقروا ملوك غسان على ما كان لهم وأقاموهم ملوكا على الشام ولما استعاد هرقل من الفرس البلاد لم يشأ أن ينزع من ملوك غسان الولاية لضعفه في حرب الفرس وخوفه من شغب القوم فاستمرت بيدهم ولاية دمشق لحين الفتح الاسلامي بل هناك دليل آخر على أن سلطة بني غسان يومئذ تجاوزت ولاية دمشق وربما شملت سورية كلها فقد ذكر المؤرخون أن جبلة بن الايهم بن جبلة وهو آخر ملوك غسان ابتنى بين اللاذقية وطرابلس مدينة سماها باسمه وهي جبلة التي لم تزل عامرة الى هذا العهد فاذا كان ملوك جفنة من بني غسان قبيل الفتح انما كانوا أمراء على عرب البادية وحوران وآلة بيدي قيصر الروم يصدُّ بهم غارات عرب العراق (كما قال صديقنا جرجي أفندي زيدان) فما علاقة جبلة

بسواحل الشام وما الداعي له لتمصير الامصار في ارض ليس له ولا لقومه سلطة فيها ولا سلطان

لاجرم ان سلطة العرب كانت يومئذ مبسوطة على الشام وكانت عاصمة ملوكهم دمشق ولولا ذلك لما تسنى لجبلة ان يبتني تلك المدينة ويسميها باسمه ويؤيد ذلك ماقاله الدكتور فانديك في المرآة الوضية عند كلامه على دمشق وهو بنصه

وكانت (يعني دمشق) قبل الاسلام تحت آل جفية ملوك غسان الذين يقول فيهم حسان بن ثابت وذكر البيتين الثاني والثالث من الابيات التي سبق ايرادها

وليت شعري لماذا استعظم صديقنا على العرب أن يكونوا ملوك الشام قبل الفتح الاسلامي وهو يعلم أنهم أبناء بجدتها وانسابقون الى حومتها وانهم تسلطوا على هذه البلاد مراراً قبل الميلاد وبعده كما ذكر ذلك صديقنا في مجلته من عهد قريب نقلا عن يوسيفوس المؤرخ القديم ولامراء في أن الحارث أحد ملوك العرب على عهد طيباريوس قيصر المتوفي سنة ٣٧ للميلاد استولى على دمشق بعد حرب شديدة وقعت بينه وبين صهره هيرودس على أثر طلاق هيرودس لبنت الحارث ومما يؤيد سلطة الحارث على دمشق يومئذ قول بولس في رسالته الثانية الى الكورنثيين وهو بنصه

(وفي دمشق والى الحارث الملك كان يحرس مدينة الدمشقيين يريد ان يمسكني) وقد سبق ان قلنا ان اسم الحارث كان يطلق على ملوك العرب بالشام وعدا هذا فانا اذا رجحنا قول القائلين بان اصل اودينأتوس التدمري الذي سبق ذكره عربي لاسرياني (والجنسان من اصل واحد) فلا يستبعد ان يكون للعرب من السلطة في الشام قبيل الفتح الاسلامي ما كان لهم على عهد طيباريوس قيصر

وعلى عهد اودينا ثوس الذي تملك الجزيرة والشام ثم امتد ملك زوجته الملكة زنوبيا الشهيرة الى مصر وازعجت سطوتها ملوك ذلك العصر

هذا ما انتهى اليه علمنا في تحقيق هل كانت دمشق عربية ام لا هذا على غموض تاريخ هذه الامة العربية ومادام العلماء مجدين في البحث عن آثار الأمم القديمة فستكشف الايام من تاريخ عرب الشام ما كشفته من عهد قريب من تاريخ عرب اليمن (حمير) مما يدل على بلوغ هذه الأمة منتهى درجات المدنية في العصور الغابرة والله اعلم

﴿ وقعة فحل ﴾

رأى المسلمون بعد فتح دمشق ان يناجزوا هرقل الا انهم خافوا ممن وراءهم من جيوش الروم في بيسان وكانوا ثمانين الفا على قول بعض الرواة كما ذكر ذلك الطبري فاختاروا مناجزة هؤلاء اولاً فاستخلف ابو عبيدة على دمشق يزيد بن ابي سفيان وسار بجيش المسلمين قاصداً بيسان وعلى الناس شرحبيل بن حسنة اذ كانت اليه ولاية الحرب في الأردن فبعث خالد بن الوليد على المقدمة وابا عبيدة وعمراً على مجنبتيه وعلى الخيل ضرار بن الازور وعلى الرجل عياضا ولما انتهوا الى ابي الاعور (وقد كان بين الاردن وبين دمشق يمنع المدد عن اهل دمشق) قدموه الى طبرية فحاصرها وهم نزلوا بفحل وكان الروم بثقوا المياه بينهم وبين فحل منعاً للمسلمين عن الوصول اليهم فكان عملهم هذا وبالاً عليهم لانهم اصبحوا بعد خروجهم للحرب كالمحصورين وكان به هلاكهم كما كان ذلك يوم اليرموك اذ تركوا النهر وراءهم وعسكروا على الضفة التي تلي جند المسلمين فاصبحوا بين خطرين حتى اذا تمت عليهم الهزيمة لم يروا طريقاً للفرار فأخذتهم سيوف المسلمين وهذا يدل على ضعف معارف قوادهم يومئذ بفنون الحرب وتمكن

الهلع والاضطراب من نفوسهم تمكناً أضاع منهم الحيلة وأفقدهم حسن التدبير

لما رأى المسلمون تلك المياه والوحل نزلوا بفحل ولم يسعهم التقدم الى حيث يقيم العدو ببيسان فكتبوا الى أمير المؤمنين بذلك وأقاموا ينتظرون الجواب وهم في رغد من ريف الاردن والروم في ضنك وقد ظنوا في المسلمين الغفلة عنهم فخرجوا عليهم بقيادة قائد اسمه سقلار أو صقلار ورجوا أن يأخذوهم على غرة والمسلمون حذرون وكان قائدهم شرحبيل لشدة يقظته وحزمه لا يبيت ولا يصبح الا على تعبية واستعداد للحرب فلما هجموا على المسلمين لم يناظروهم فاقتتلوا أشد قتال كان ليلتهم ويومهم الى الليل فاظلم الليل عليهم وقد حاروا فانهزموا وهم حيارى وقد أصيب قائدهم سقلار والذي يليه (أي القائد الثاني) واسمه نسطوس وركبوهم فلم يعرف الروم مأخذهم فانتهوا في الهزيمة الى الرحل فأدركتهم أوائل خيل المسلمين فأخذوهم وما يمنعون يد لامس

كان المسلمون يسمون هذه الوقعة ذات الردغ لما لاقوا فيها من الوحل الذي كانوا له كارهين فكان عوناً لهم على العدو ولما انتهت الحرب بفحل انصرف أبو عبيدة ومعه خالد بن الوليد الى حمص وخلى ذي الكلاع الحميري الذي كان مرابطاً بين جنود المسلمين وحمص ليمنع المدد عن العدو

وهن المسلمون بفحل قوى العدو وازدادوا الرعب في قلوب الروم فتأهب كل أمير لقصد الجهة التي ولي حربها فسار ابو عبيدة الى حمص وسار شرحبيل الى بيسان وطبرية وتجهز يزيد بن أبي سفيان للخروج الى سواحل الشام

﴿ بيسان وطبرية ﴾

سار شرحبيل الى بيسان ومعه عمرو بن العاص والحارث بن هشام وسهيل ابن عمرو وكلهم من امجاد قريش وساداتها فلما بلغ أهل بيسان ما أصاب جند الروم

بفحل تحصنوا من المسلمين بكل مكان فحصرهم المسلمون أياما ثم خرج بعضهم لقتال المسلمين فأناموهم وصالحهم من بقي على صلح دمشق وبلغ أهل طبرية الخبر فصالحوا أبا الاعور على ان يبلغهم شرحبيل ففعل فصالحوا شرحبيل على صلح دمشق أيضاً ونزل القواد بجندهم في مدائن الاردن وقراها وكان ذلك سنة أربع عشرة للهجرة

﴿ مرج الروم ﴾

لما علم هرقل بما أصاب جنده في دمشق والاردن وبلغه مسير أبي عبيدة الى حمص رأى أن يرسل جيشا الى دمشق إما ليشغل عن حمص جيش المسلمين وإما ليغنم فرصة تفرق الجيوش الاسلامية عن دمشق فتستردها جنوده من يزيد بن أبي سفيان فارسل ذلك الجيش بقيادة توذر (لعله تيودور) فنزلا بالجيش في مرج الروم غربي دمشق وبلغ ذلك أباعبيدة فجاء ونزل بأزاء شنس وخالد بأزاء توذر. فنازلهم لما نزلوا شنس وسار توذر يطلب دمشق فسار خالد وراءه في جريدة وبلغ يزيد بن أبي سفيان إقبال توذر عليه فاستقبله بالجند فاقتتلوا ولحق بهم خالد وهم يقتتلون فأخذهم من خلفهم ولم يفلت منهم الا الشريد وقتل خالد توذراً وقال

نحن قتلنا توزراً وشوذراً وقبله ما قد قتلنا حيدرا
نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا

وأما أبو عبيدة فقد ناهد بعد خروج خالد شنس فاقتتلوا بمرج الروم وأصابهم ما أصاب توذر وقتل ابو عبيدة شنس وانهزم فلهم الى حمص وتبعهم بعض المسلمين فلما انتهى الخبر الى هرقل امر عامل حمص بالمسير اليها وسار هو الى الرها (اورفا) وفي رواية الى انطاكية وقال للعامل بلغني ان طعامهم (يعني المسلمين) لحوم الابل وشرابهم ألبانها وهذا الشتاء قد أقبل فلا تقاتلوهم الا في كل يوم

بارد فانه لا يبقى الى الصيف منهم أحد

واذا صح صدور هذا الكلام عن هرقل فانه من الغرابة بمكان لان رجلا مثله عجم عودالقوم وجرب حربهم وعرف ثباتهم منذ سنتين لكبير عليه أن يعلق آماله على مجرى الطبيعة ويفوه بمثل هذا الهند من القول الا اذا أراد به تخفيف الهلع عن قلوب الجنود المدافعة وتهوين الخطب على قواده ريثما يتم عليهم أمر القضاء الذي علمه هرقل من خلال الحوادث الماضية وانما يدافع ذلك القضاء باخر ماعنده من وسائل القوة والتحريض كي لا تهن نفوس الجنود ولا يستولي اليأس على ضمائر الشعب

ذكر بعلبك وحمص
وسواحل دمشق

علمنا مماسبق ان يزيد بن ابي سفيان كان يتجهز بعد فتح دمشق للمسير الى سواحل دمشق وان اباعبيدة قصد حمص ولما جاء توذر الى مرج الروم تربص يزيد وعاد اليه ابو عبيدة ولما انتهى امر توذر لما انتهى اليه قصد يزيد سواحل دمشق وذلك سنة (١٤) وعلى مقدمته أخوه معاوية بن ابي سفيان فابتدا بصيدا ففتحها ثم فتح عرقة وجبيل وبيروت رجلا كثيراً من اهلها ممن رغبوا الجلاء وتولى فتح عرقة معاوية بنفسه ثم ان الروم غلبوا على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر واول خلافة عثمان فقصدهم معاوية ففتحها ورمها وشحنها بالمقاتلة واقطعهم القطائع وانما تجرا الروم على غزو السواحل لان المسلمين لم يكن لهم يومئذ اسطول يمنع غارة الروم على السواحل اذ لم يكن من راي امير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) ركوب المسلمين للبحر وغزوهم فيه

واما ابو عبيدة فقد قصد حمص عن طريق بعلبك وقدم اليها السمط بن

الاسود الـكندي وقدّم خالداً الى البقاع فافتتح خالد بلاد البقاع ونزل اهـل بعلبك الى ابي عبيدة فصالحوه على ان يكون لهم الامان على انفسهم واموالهم وكنائسهم وكتب لهم بذلك كتابا ستأتي صورته ثم توجه الى حمص فمن قائل إنه وجد السمط قد صالحهم فأجاز صلحه ومن قائل إنه قاتلهم قتالا شديدا وكانوا يغادون المسلمين القتال ويراوحونهم في كل يوم بارد واقي المسلمون برداً شديداً وطال على الروم الحصار وكان بعض مشايخهم دعاهم الى مصالحة المسلمين فأبوا ولما اشتد عليهم الامر طلبوا من ابى عبيدة الصلح فصالحهم على صلح دمشق وانزلها السمط بن الاسود الـكندي في بني معاوية والاشعث بن ميناس في السكون وَالمقدَاد بن بَلِيّ وانزلها غيرهم

وفي فتوح البلدان ان السمط قسم حمص خططاً بين المسلمين واسكنهم كل مرفوض جلا اهله او ساحة متروكة

اما ابو عبيدة فقد بعث بالاخماس وخبر الفتح الى اميرالمؤمنين عمر بن الخطاب مع عبد الله بن مسعود فكتب اليه عمر : ان اقم في مدينتك وادعُ اهل القوّة والجلد من عرب الشام فاني غير تارك البعث اليك بمن يكانفك ان شاء الله

تحقيق خبر اجنادين واليرموك
واختلاف المؤرخين فيها

اختلف المؤرخون في وقعة اجنادين واليرموك فمن قائل ان الاولى كانت قبل فتح دمشق والثانية بعد فتح حمص ومن قائل بالعكس ولقد يحار المؤرخ الناقد في التفريق بين هاتين الواقعتين وتعيين الزمن الذي وقعتا فيه ويكاد يشتبه عليه امرهما فيتخيل له ان الواقعتين واحدة او ان الواقعتين كانتا في اليرموك واحدة في خلافة ابي بكر والأخري في خلافة عمر رضى الله عنهما وذلك لما فيهما

من التشابه في الاسباب والحوادث وقد كنت أظن أن هذا الاضطراب في خبر الواقعتين قاصر على كتبنا وأن الغربيين ربما لم يقعوا في هذا الاضطراب لما عساهم نقلوه من أخبار الفتح عن مؤرخي الروم الذين كتبوها عن مشاهدة لا من طريق الرواية فاذ بالقوم وقعوا فيما وقع فيه مؤرخو العرب فقد راجعت ما كتبه بهذا الصدد المؤرخ الانكليزي اذوَردجبون [1] في (تاريخ السلطنة الرومانية) والمؤرخ الفرنساوي نويل ديفرجي في كتابه بلاد العرب [2] فلم أعثر على ما يشفي الغليل ويزيح ستار اللبس فان الأول جعل وقعة أجنادين سنة(٦٣٣م) الموافقة سنة(١٢هـ) أي قبل فتح دمشق مع ان الادلة التاريخية تؤيد حصول وقعة اليرموك قبل دمشق لا اجنادين وأما الثاني فقد قال إن ماراه في تاريخ ابي الفداء في شأن اليرموك يدروه اللبس والاشكال وأن هذا يوجب لارتياب في كلام الشرقيين اكثر من الارتياب في كلام الغربيين الى ان قال وهذا المبهم من كلامهم يدعو الى الظن انه حدثت واقعتان في هذا المحل (أي في اليرموك) الاولى قبل فتح دمشق والثانيه بعد الاستيلاء على حمص

ولقد نكاد نجاريه في هـذا الظن وان هناك التباساً في هذ الاسم وان الاسمين ربما يطلقان على مكان واحد لو لم نر ان ياقوت فرق في معجمه بين المكانين فقال ان اليرموك واد في طرف الغور يصب في الاردن وأن اجنادين موضع بالشام من نواحي فلسطين من الرملة من كورة بيت جبرين كما ان الطبريّ ايضاً قال عن اجنادين انه بلد من ارض فلسطين من عمل بيت جبرين وبما ان حصول الواقعتين الواحدة قبل فتح دمشق والثانية بعدها امر

(1) Gibbon's Roman Empire

(2) Arabie Par M. Noel. Desvergers

محقق عند المؤرخين لا خلاف فيه وان اختلفوا في تعيين زمن كل منهما فجعل بعضهم الأولى بمكان الثانية وهذه بمكان تلك وبالعكس فالذي نريد الوصول اليه الآن هو تحقيق ايهما كانت قبل فتح دمشق وايهما كانت بعدها فالذي اعتمده البلاذري في فتوح البلدان ان اجنادين هي الأولى واليرموك هي الثانيه وجاراه على هذا الرأي ابن واضح الكاتب العباسي الشهير باليعقوبي في تاريخه المعروف بتاريخ اليعقوبي [1] وجعل اليرموك بعد حمص واما الطبري فانه اورد خبر اليرموك كما اوردناه في الجزء الأول اي قبل دمشق واورد خبر اجنادين مرة قبل فتح دمشق ومرة بعدها الواحدة من رواية سيف والثانية من رواية ابن اسحق على عادته في نقل الروايات على اختلافها وترك الحكم فيها للمطالع وتكاد هذه الرواية تكون اقرب للحق لو لم يتوهم الرواة ان اجنادين الأولى هي التي اجتمع عليها الامراء ووافاهم اليها خالد بن الوليد وهذه هي التواريخ التي بين ايدينا من كتب المتقدمين الذين نقلوا الاخبار بالرواية واما المتأخرون فاذ كان اعتمادهم في سرد الوقائع على مادونه اولئك اضطربوا ايضاً في تعيين زمان الواقعتين ومكانهما وليس منهم الا من اورد الخبر على علاته دون تمحيص ولا تحقيق وبما ان بعضهم قال ان ابا عبيدة رجع من حمص الى اليرموك بزعم انها بعد فتح حمص مع ان المرجح ان اليرموك هي الواقعة التي حضرها خالد بن الوليد لما جاء لنجدة المسلمين في سنة ١٣ وفتح حمص كان في سنة (١٤) او التي بعدها فقد حملني ذلك على اعتقاد خطائهم في تأخير تاريخ وقعة اليرموك مع الظن باحتمال وصول ابي عبيدة الى حمص قبل مجيء خالد من العراق فبسطت في الجزء الاول هذا الاحتمال خطأً اذ الحقيقة التي ظهرت لي في هذا بعد التدقيق في التاريخ

(١) هذا التاريخ جزءان طبعا في ليدن ويوجد منه نسخة في المكتبة الخديوية

ان رجوع ابي عبيدة من حمص انما كان بعد فتحها ويومئذ اجتمع على الامراء في اجنادين واجتماعهم هذا هو غير اجتماعهم على اليرموك وانما تضارب الروايات في هذه الوقايع يدعو الى غموض الحقيقة وتشويش الذهن والذي صح عندي من تحقيق هذه الروايات الآن والتدقيق فيها ان هناك ثلاث وقائع متشابهات اضطرب في ترتيبها المؤرخون لتشابه البواعث والاسم وهي اجنادين الأولى وحدثت في اواخر سنة ١٢ او اوائل سنة ١٣ واليرموك وكانت في جمادى سنة ١٣ واجنادين الثانية وكانت سنة (١٤) او (١٥)

وقد ساق ابن جرير الطبري في تاريخه خبر هذه الوقائع الثلاث الا انه اورد خبر اليرموك واجنادين الأولى من عدة روايات كلها يخالف بعضها بعضاً ويدل على اضطرابهم في تحقيق هل كانت اليرموك قبل اجنادين او بالعكس او كانتا وقعة واحدة ويؤخذ من مجمل هذه الروايات حصول وقعة في اجنادين لم يحضرها خالد بن الوليد وانما هي اما ان تكون لخالد بن سعيد لما بعثه ابو بكر لاطراف الشام وواقع هناك الروم وعليهم باهان او ماهان على رواية مؤرخي العرب ووردان على رواية ادورد جيبون الانكليزي واما ان تكون مع الامراء في اول دخولهم الشام لما بعثهم ابو بكر في اثر خالد بن سعيد ثم لما واقعوا باهان واوقعوا به تفرقوا في انحاء الشام فسرب لهم هرقل الجنود فعادوا الى اليرموك واستنجدوا ابا بكر فانجدهم بخالد بن الوليد فوافاهم وهم على اليرموك ثم لما تمت الهزيمة على الروم في اليرموك وسار الامراء الى دمشق ففتحوها ثم فحل فكان الفتح ثم سار ابو عبيدة الى حمص وفتحها ارسل هرقل جنوداً جديدة الى سورية اجتمعت في فلسطين فعاد ابو عبيدة والامراء الى حيث يخيم جند الروم في اجنادين فكانت وقعة اجنادين الثانية والظاهر ان بعض المؤرخين ومنهم البلاذري

واليعقوبي ظنوا أن وقعة أجنادين واحدة فاعتبروا الأولى وجعلوا مكان الثانية اليرموك مع أن الموجح أن اليرموك هو المكان الذي اجتمع عليه الامراء ووافاهم فيه خالد بن الوليد من العراق بدليل ماقاله ياقوت في معجم البلدان وهو بنصه

اليرموك واد بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الاردن ثم يمضي الى البحيرة المنتنة كانت به حرب بين المسلمين والروم في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقدم خالد الشام مدداً لهم فوجدهم يقاتلون الروم متساندين : وساق مجمل الخبر كما ذكرناه في الجزء الأول ثم قال : وقال القعقاع بن عمرو يذكر مسيرة خالد من العراق الى الشام في أبيات

بدأنا بجمع الصفرين فلم ندع لغسان أنفاً فوق تلك المناخر
صبيحة صاح الحارثان ومن به سوى نفر نجتدهم بالبواتر
وجئنا الى بصرى وبُصْرَى مقيمة فألقت الينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت بنا العيس في اليرموك جمع العشائر

والشاهد من كلام ياقوت هو هذه الابيات التي تدل دلالة صريحة على أن خالداً لما جاء الى الشام واقع غسان ثم فتح بصرى وانتهى الى جيوش المسلمين وهم في اليرموك

وأما أجنادين الاولى فان الذي يرجح انها كانت في أواخر سنة ١٢ أو أوائل سنة (١٣) هو ما رواه بعض المؤرخين من أن أبا بكر بُشِّر بانتصار المسلمين على الروم في أجنادين وهو بآخر رمق مع أن انتصار المسلمين في اليرموك كان في جمادى الثاني بعد وفاة أبي بكر وانما جاء المسلمين وفاته وهم على اليرموك

فهذا ماوصل اليه الفكر وانتهى اليه البحث في تحقيق وقعة اليرموك وأجنادين التي قبلها وأما أجنادين الثانية وهي التي كانت عقب فتح حمص واضطر

أبو عبيدة أن يرحل من أجلها عن حمص وحذا حذوه باقي الأمراء لمصادمة الجيوش العظيمة التي أرسلها اليهم هرقل واجتمعت في فلسطين ثم في أجنادين فقد ذكر خبرها الطبري سنة(١٥) كما ذكره البلاذري واليعقوبي الاّ ان هذين زعما أنها وقعة اليرموك

على ان القرائن التي تحف بهذه الوقعة التي حدثت سنة ١٥ تؤيد انها كانت في اجنادين وذلك ان اجنادين من عمل فلسطين واليرموك من عمل الأردن وعمالة الاردن كانت سقطت يومئذ في ايدي الجيوش الاسلامية وهم فيها مرابطون وفلسطين لم تكن كذلك بل كانت على وشك السقوط وبسقوطها يسقط بيت المقدس ومتى سقط بيت المقدس تقطعت بالروم الاسباب وقضي على سلطان دولتهم في سورية بالانقلاب لهذا فلا يعقل ان هرقل يسرب جيوشه الى الاردن ويترك فلسطين معرضة لهجوم عمرو بن العاص الذي كان قصدها من الأردن ومعاوية بن ابي سفيان الذي عزم ان يأتيها من سواحل دمشق بل المعقول ان هرقل لما جلا عن حمص وقام في انطاكية او الرها ووصلته الاخبار بتغلب المسلمين على جيوشه في كل مكان ورأى ان ابا عبيدة قد بلغ حمص من جهة الشمال وقطع طريق المواصلة والامداد ما بينه وبين الجنود الرومية من جهة البر ارسل جيوشاً عظيمة من جهة البحر لتكون مدداً لاهل قيسارية وغزة وايلياء (بيت المقدس) ولعل تلك الجنود نزلت من يافا وعسكرت بأجنادين لقربها منها اذ المسافة لا تزيد عن ثلاث ساعات بين يافا ولرملة واجنادين من عملها كما قال ياقوت واليك ما رواه الطبري وغيره في شأن قيسارية وغزة واجنادين

﴿ فلسطين واجنادين ﴾

لما انصرف ابو عبيدة من فحل الى حمص ونزل عمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة على بيسان وافتتحها وصالحهم اهل الأردن قصد عمرو فلسطين وكتب الى امير المؤمنين عمر رضي الله عنه بتفرقهم فكتب الى يزيد بن ابي سفيان بأن يُذكِيَ ظهورهم بالرجال وان يسرّح معاوية الى قيسارية[1] وكتب الى عمرو بصدم الارطبون وكان في اجنادين والي علقمة بن مُجَزِّز بصدم الفيقار وكان في غزة وكان مما كتبه الى معاوية(اما بعد اني قد وليتك قيسارية فسر اليها واستنصر الله عليهم وا كثر من قول لا حول ولا قوة الاّ بالله الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا نعم المولى ونعم النصير)

فسار كل امير لما امر به وسار معاوية الى قيساريه وكان فيها من المقاتلة مائة الف او يزيدون على ما يؤخذ من كلام الطبرى فافتتحها وكتب الى عمر بالفتح وبعث بالخبر مع رجلين من بني الضُبيب ثم خاف منهما الضعف فبعث عبد الله بن علقمة الفِراسيّ وزهير بن الحلاب الخثعميّ وامرهما ان يتّبعاهما ويسبقاهما فلحقاهما فطوياهما وهما نائمان وابن علقمة يتمثّل

أرّقَ عيني أخو جُذامِ كيف أنام وهما أمامي

اذ يرحلان والهَجير طامي أحرامِ خُشَيمٍ وأخو حرامِ

وأما علقمة بن مُجَزِّز فحصر الفيقار بغزة وجعل يراسله فلم يشفِه مما يريد احدٌ فأتاه كأنه رسول علقمة فامر الفيقار رجلاً ان يقعد له بالطريق فاذا مرّ قتله ففطن

---

(١) هـذا الاسم معرب قيصرته وهما ثنتان واحده تسمى قيصرية فلسطين وهي خراب الآن وخربت على عهد الصليبين والاخرى قيصرية فيلبس وهي بانياس على ماقاله فانديك

علقمة فقال ان معي نفراً شركائي في الرأي فأنطلق فآتيك بهم فبعث الفيقار الى ذلك الرجل لا تعرض له نخرج من عنده ولم يعدو فعل كما فعل عمرو بن العاص بالارطبون لما احتال عليه بنفس هذه الحيلة ونجا من القتل

وأما بريد معاوية الذي أرسله الى المدينة فوصل الى عمر رضي الله عنه فجمع الناس ليلاً وقال لتحمدوا الله على فتح قيسارية وأباتهم على الفرح

وأما عمرو بن العاص فقد سار بجيشه نحو الأرطبون وكان من كبار القواد ودهاتهم وهو يعادل عند الروم بالدهاء عمرو بن العاص عند العرب فتقدم نحوه عمرو وهو مخيم باجنادين بجند كثيف وعلى مقدمة عمر وشرحبيل وعلى مجنبتيه عبد الله بن عمرو وجنادة بن تميم المالكي مالك بن كنانة وقد كان الارطبون وضع بالرملة جنداً عظيماً وبايلياء جنداً عظيماً فكتب عمرو الى أمير المؤمنين بالخبر فقال . قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عمّ تنفرج : وكان عمر رضي الله عنه من لدن توجه امراء الشام يمدّ كل أمير جند ويرميه بالامداد حتى اذا أتاه كتاب عمرو بتفريق الروم كتب الى يزيد بن أبي سفيان ان يبعث معاوية في خيله الى قيسارية وكتب الى معاوية كتاباً يأمره على قتال أهل قيسارية وقد مر ذكره وذلك ليشغلهم عن عمرو وكان عمرو قد استعمل علقمة بن حكيم الفراسي ومسروق ابن فلان العكي على قتال أهل ايلياء وبعث أبا أيوب المالكي الى الرملة وعليها التذارق ولما تتابعت الامداد على عمرو بعث محمد بن عمرو مدداً لعلقمة ومسروق وبعث عمارة بن امية الضمري مدداً لابي ايوب واقام عمرو على اجنادين لا يقدر من الأرطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فابلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما اراد فحدثت ارطبون نفسه بانه عمرو بن العاص فوضع له في الطريق من يقتله وفطن له

عمرو فاحتال للتخلص منه بمثل الحيلة التي احتال بها علقمة على الفيقار ونجا عمرو وعلم الأرطبون بحيلته فقال : خدعني الرجل هذا ادهى الخلق : وبلغت عمر بن الخطاب فقال : غلبه عمرو لله عمرو :

لما عرف عمرو مأخذ الأرطبون ووقف بنفسه من حالة الروم على ما يريد ان يقف عليه زحف عليهم بجنده واقتتلوا قتالا شديداً كقتال اليرموك فانهزم ارطبون في الناس واوى الى إيلياء ولما وصلها افرج له المسلمون الذين على حصارها فدخلها ثم ازالهم الى اجنادين

فهذه وقعة اجنادين التى اضطرب فيها المؤرخون وجعلها بعضهم على اليرموك سنة (١٥) مع ان اليرموك كانت سنة (١٣) كما تقدم الدليل على ذلك في ابيات القعقاع بن عمرو التي يذكر فيها التقاءهم مع خالد بن الوليد بجيش المسلمين وهم على اليرموك على ان وقعة اجنادين هذه لم يذكر الطبري في سياقها اسم ابي عبيدة وخالد وانهما حضرا بعسكرهما من حمص الا انه لما ساق خبر فتح بيت المقدس بعد اجنادين ذكر في جملة رواياته عن فتح بيت المقدس ان الذي كان على حصارها هو ابو عبيدة فاذا اضيفت هذه الرواية الى ما ذكره البلاذري في فتوح البلدان واليعقوبي في تاريخه من رجوع هذين القائدين بجيش المسلمين من حمص لانجاد بقية الامراء في اليرموك سنة (١٥) مع ما علمناه مما سبق ان وقعة اليرموك كانت سنة (١٣) لا سنة (١٥) وان المؤرخين ربما وهموا لتشابه الوقائع وقرب المكانين احدهما من الآخر بان وقعة اجنادين كانت على اليرموك صح ان ابا عبيدة وخالداً حضرا وقعة اجنادين هذه هذا اذا لم يكن هناك وقعة ثانية في اليرموك كما كانت وقعتان في اجنادين الا ان القول بحدوث وقعتين في اليرموك لم يقم عليه دليل واضح في التاريخ واما القول برحيل ابي عبيدة بجيشه عن حمص

سنة (١٥) اي بعد فتحها وشخوصه الى جنوب الشام لأمداد المسلمين فقد اتفق عليه البلاذري واليعقوبي ومما ذكره اليعقوبي بهذا الصدد قوله عن ابي عبيدة بعد ان فتح حمص

ثم اتاه خبر ماجمع طاغية الروم من الجموع في جميع البلدان وبعثه اليهم مَن لا قبَلَ لهم به فرجع الى دمشق وكتب الى عمر بن الخطاب: وكتب اليهم عمر انه قد كره رجوعهم من ارض حمص الى دمشق: وجمع ابو عبيدة المسلمين وعسكر في اليرموك الى ان قال وكانت وقعة جليلة الخطب قتل فيها من الروم مقتلة عظيمة وفتح الله على المسلمين وكان ذلك سنة (١٥) واوفد ابو عبيدة الى عمر وفداً فيهم حذيفة بن اليمان وقد كان عمر ارق عدة ايال واشتد تطلعه الى الخبر فلما ورد عليه الخبر خرّ لله ساجداً وقال: الحمد لله الذي فتح على ابي عبيدة فوالله لو لم يفتح لقال قائل خالد بن الوليد اه

واما مانقله البلاذري فقد تقدم ذكره في الجزء الأول ومؤداه أن المسلمين لما بلغهم اقبال الجنود الكثيرة لوقعه اليرموك ردوا ما كانوا أخذوه من اهل حمص وقالوا لهم قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فانتم على أمركم فاقسم النصارى واليهود انهم لا يدعوا عامل هرقل يدخل الى المدينة وأغلقوا أبوابها وحرسوها الخ

هذا ما أورده المؤرخون بشأن اليرموك وأجنادين بسطناه هنا مع ما في كثرة هذه الاقوال من التشويش والاختلاف ليكون القارئ على بينة من الحقيقة والله بها عليم

﴿ فتح بيت المقدس ﴾

لما انتهى عمرو من اجنادين ترك أهل ايلياء (بيت المقدس) محصورين وأخذ يتم فتح مدن فلسطين وقراها ففتح غزة ولُدّونابلس وبيت جبرين ومرج عيون ويافا وقيل انّ يافا فتحها معاوية فلما أتم هذا الفتح قصد بيت المقصد وأخذ يخابر الأرطبون مخابرة حبيّة ويطلب اليه تسليم المدينة والارطبون ممتنع عليه وكتب لعمرو كتاباً يقول فيه : انك لست بصاحب فتح ايلياء بل صاحبه عمر: فكتب عمرو الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) يستمده ويقول : اني اعالج حرباً كؤوداً صدوماً (كناية عن شدتها) وبلاداً اذُّخرت لك فرأيك : ولما انتهى الكتاب الى عمر نادى في الناس ثم خرج فيهم حتى نزل الجابية [١]

وفي رواية للطبري ان ابا عبيدة هو الذي كان على حصار ايلياء وأن سبب قدوم عمر الى الشام أن أهل بيت المقدس طلبوا من أبي عبيدة أن يصالحهم على صلح مدن الشام وان يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب فكتب اليه بذلك فسار عن المدينة وكتب للامراء ان يوافوه بالجابية ليوم سماه لهم وان يستخلفوا على اعمالهم فلقوه حيث رفعت لهم الجابية فكان اوّل من لقيه يزيد ثم ابو عبيدة ثم خالد على الخيول وعليهم الديباج والحرير فكبر على ذلك الخليفة العظيم الذي ولع بالتقشف وازدرى بنعيم الحياة الفانية أن يرى آثار التنعم بادية على قوّاده على قرب عهدهم بالخوشنة وتخلقهم بخلق العفة والجد والقناعة فنزل وأخذ الحجارة فرماهم

---

(١) قال ياقوت . الجابية من قرى الجولان من أعمال دمشق ثم من عمل دمشق قرب مرج الصفر في شمالي حوران ويقال لها جابية الجولان أيضا قال الجواس بن القعطل

أعبد المليك ما شكرت بلادنا فكل في رخاء الامن ما أنت آكل
بجابية الجولان لولا ابن بحدل هلكت ولم ينطق لقومك قائل

بها وقال: سَرْعَ ما لُفتم عن رأيكم ايايَ تستقبلون بهذا الزي وانما شبعتم منذ سنتين سَرْعَ ما ندت بكم البطنة وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلتُ بكم غيركم: فقالوا يا أمير المؤمنين انها يلامعة[1] وأن علينا السلاح: قال: فنعم اذن: وركب حتى دخل الجابية وعمر وشرحبيل بأجنادين فبينما عمر معسكراً بالجابية فزع الناس الى السلاح فقال ماشأنكم فقالوا الا ترى الخيل والسيوف فنظر فاذا كردوس يلمعون بالسيوف فقال عمر هذه مستأمنة فلا تراعوا وأمنوهم فأمنوهم واذاهم أهل إيلياء

كان أهل ايلياء في ضنك عظيم وحصار شديد وقد أيقنوا بعد انقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها العظام انهم مأخذون لامحالة وان دولة الروم دالت وسلطتهم عن البلاد زالت وخافوا اذا سلموا المدينة للمسلمين ان لايصالحوهم على ماصولح عليه أهل المدن الأخري لكثرة ما لاقي المسلمون منهم من العناء وما بذلوا في حربهم من الدماء ولما تحقق عندهم من أن بيت المقدس مكرم عند المسلمين لانه محل الاسراء ومقر الانبياء والطاهر انهم خافوا لهذا السبب على كنيستهم العظمى أن ينزعها منهم المسلمون وقبلتهم المقدسة ان يحرمهم منها الفاتحون مع أن المسلمين كانوا أحرص الناس على الوفاء بالعهود والزمهم لشرعة الانصاف مع المغلوبين وكانوا اذا صالحوا قوماً على شئ وكتبوا لهم بذلك عهداً صار ذلك العهد سنة لمن بعدهم في معاملة اولئك المعاهدين لايحيد عنها أحد من المسلمين وانما هو الروع اخذ بقلوب اهل بيت المقدس فرأوا توكيداً للامان وتوثيقاً لعرى العهد ان يباشروا ذلك مع امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فطلبوا من الامراء حضوره بنفسه ولما بلغهم وصول امير المؤمنين

«١» قال في القاموس اليلامعة مانع السلاح كالبيضة

الى الجابية أو فدوا اليه ذلك الوفد فتلقاهم المسلمون براية الامان فاخبروا امير المؤمنين انهم نواب في الصلح عن اهل ايلياء وان امراء الجند الرومي وهم أرطبون والتذارق لحقا بمصر فصالحهم على إيلياء وحيزها والرملة وحيزها فصارت فلسطين نصفين نصف مع أهل ايلياء ونصف مع اهل الرملة وكتب لهم بذلك كتباً وكتب لاهل ايلياء خاصة كتاباً سترد صورته في هذا الكتاب ثم جعل على ذينك القسمين أميرين فجعل عَلْقَمة بن حكيم على الرملة واحوازها وأنزله الرملة وجعل علقمة بن مُجَزِّز على ايلياء وأحوازها وأنزله ايلياء ونزل كل واحد منهما في عمله في الجنود التي معه وضم عمرو بن العاص وشرحبيل اليه بالجابية فلما انتهيا الى الجابية وافقا عمر (رض) راكباً فقبلا ركبته وضم هو كل واحد منهما محتضنها

وكان فتح ايلياء سنة (١٦) وقيل سنة (١٥) ولما اتم عمر عهد الصلح أراد المسير الى بيت المقدس فأتى له ببرذون فركبه فلما سار جعل يتخلج [1] به فنزل عنه وضرب وجهه وقال : لا علّم الله من علمك هذا من الخيلاء ولم يركب برذوناً قبله ولا بعده ثم دعا بفرسه فركبه ثم سار حتى انتهى الى المسجد الاقصى ليلا فدخله فصلى فيه ولم يلبث ان طلع الفجر فأمر المؤذن بالاقامة فتقدم فصلى بالناس ثم انصرف ودعا بكعب الاحبار (وكان لما دخل المسجد قال : ارقبوا لي كعباً :) فلما أتى به قال له : اين ترى ان نجعل المصلى : فقال : الى الصخرة : فقال : ضاهيت والله اليهودية يا كعب وقد رأيتك وخلعك نعليك : فقال : أحببت ان اباشره بقدمي : فقال : قد رأيتك بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلة مساجدنا صدورها اذهب اليك فانا لم نؤمر بالصخرة ولكنا أمرنا بالكعبة : فجعل قبلته صدوه

(١) يضطرب ويتمايل

ثم قام الى كُناسة [1] قد كانت الروم دفنت بها بيت المقدس في زمان بني اسرائيل وقال: ياأيها الناس اصنعوا كما أصنع وجثا في أصلها وحثا في فرج من فروج قبائه وسمع التكبير من خلفه وكان يكره سوء الرعة [2] في كل شيء فقال: ماهذا فقالوا: كبّر كعب وكبّر الناس بتكبيره : فقال : عليّ به : فأتى به فسأله عن سبب تكبيره فقال ياأمير المؤمنين انه قد تنبأ على ما صنعت نبيّ منذ خمسمائة سنة وسرد له خبراً طويلا من الاسرائيليات لا محل لذكره هنا

ولا جرم ان يظهر كعب الاحبار سروره ويكبّر لمصير بيت المقدس الى المسلمين وهو اسرائيليّ الاصل يعلم سوء ما لاقى بنو اسرائيل من الرومان وما كانوا يلاقونه من النصارى من الاضطهاد والتعصب الذي منعهم من حرية التوجه الى قبلتهم والتمتع بأول معبد لهم كما يعلم جميل معاملة المسلمين لأهل الكتاب واطلاقهم لهم حرية التعبد والسكنى والاعمال حيثما كانوا وانى أقاموا ولهذا السبب كان اليهود في سورية يتمنون إدالة دولة الروم ويحرّضون عليهم المسلمين ومن ذلك ما رواه الطبري ان عمر بن الخطاب لما نزل الجابية قبيل فتح إيلياء جاءه يهوديّ من يهود دمشق وقال له : يا أمير المؤمنين لا ترجع الى بلادك حتى يفتح الله عليك إيلياء وما زال ملازماً له حتى تم الفتح وشهد عقد الصلح

(١) الكناسة الزبالة ويراد ببيت المقدس الهيكل الذي بني على الصخرة وقد كان الروم من زمان بني اسرائيل هدموه وألقوا عليه الزبالة نكاية باليهود فبنى عمر فوقه مسجداً ثم وسع بعد

(٢) جثا أي جلس على ركبتيه وحثا من حثا التراب يحثوه ويحثيه ومعناه ان عمر حثا التراب في ذيل ثوبه والرعة بالكسر كما في القاموس الهدى وحسن الهيئة او سوؤها وهو ضد والتحرّج أي التنطع ولعله هو الاقرب للمراد من قوله يكره سوء الرعة

﴿ لا وثنية في الاسلام ﴾

رأيت ماقاله عمر (رض) لكعب الاحبار وهو قول لا نحب ان يفوتنا البحث فيه لهذا رأينا أن نفرد له هذا الفصل فنقول

أولع الانسان بالافراط كما أولع بالتفريط في كل شؤونه الروحية والجسمانية ولو أنصف واعتدل ولم يطلق لنفسه العنان ليبلغ مقام الملائكة في أعلى عليين أو يهبط بها الى مقر الشرور في أسفل سافلين لكانت السعادة الدائمة به ألزم وطريق النعيم الحيويّ لديه أوسع ولما احتاج الى كثير من هذه القوانين وقوّامها وزعماء السيطرة وجنودهم والحكام وأعوانهم والسجون وحراسها بل ولكان اكتفى بدين واحد قويم وشرع آلهيّ مستقيم ولم يشوّه وجه الشرائع ولم يدعُ لتعدد الاديان وارسال الرسل في آن وآن

أجَلْ أولع الانسان بالشطط حتى في العقائد فبينا يكون هذا في طرف التفريط مارقاً من كل دين منكراً لكل نحلة هائماً في المادة التى يتناولها حسه وينكر مافوقها عقله يكون الآخر مسلما لعقيدته بما لا يبعد طبعه عن طبيعته طالباً بخياله ما يظن له قدرة فوق قدرته وسلطة أعلى من سلطته وأوّل مايلاقيه في طلبه يعلق بقلبه ويظنه منتجع عقله والغاية التي يطلبها في سيره فتولع به نفسه ويقوى فيه أمله ويختص به عمله فيغلو في عبادته غلو المادىّ في مادته حتى يساويه من طرف الافراط بالتوجه تارة للاقمار وأخرى للاشجار وآونة للاحجار ووقتاً الارواح وآخر للاشباح الى غير ذلك مما هو داخل في المادة قريب من متناول الحس . فكأن العقل الانساني في حال الايمان والكفر أسير المادة لايفلت من شرك الحس ولا يذعن الى مافوق المادة ويصعد الى أفق الكمال الا هنيهة ريثما يتلقى برهان ربه بواسطة الانبياء ويطمئن الى التسليم بقوة آلهية تفوق قوى المادة

وتعلو عن العقل وتحكم على الكائنات تحكم الصانع المختار ثم لا يلبث أن ينحط عن هذه المرتبة فيعود الى تحيزته الاولى للهبوط الى هوة النقص والتوجه الى مظاهر المادة ولو تدريجاً حتى يلتصق بالحضيض ويعود الى الشرك وهو يظنه الايمان ويخاله منتهى العبادة وإن من دين الا اصيب اهله بهذا المصاب واشركوا مع الله الارواح تارة واخرى الانصاب توسلا اليه على زعمهم بالحس وارتياحا الى ما تحت النظر والعقل والله سبحانه وتعالى فوق ما يتصورون ليس من المادة ولا المادة منه بل هي مخلوقة له مفتقرة اليه وليس بينه وبين خلقه سبب منها يتوصل به اليه بل هو كما قال في كتابه الكريم (الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الارض من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) الآية

ومن الثابت أن العرب كانوا على دين ابراهيم الذي هو كباقي الاديان الآلهية دين التوحيد بالله والايمان بانه تعالى خالق الكون وما فيه وإنكار ما دون ذلك من الاعتقاد بشيء من المادة ومن التمسك في العمل بأهداب الشرك ولكن لم يلبثوا أن تدرجوا في مدارج المادة وهبطوا الى حضيض الشرك وتدرجوا من الاعتقاد بالارواح الى الاعتقاد بالاشخاص ثم الى الاعتقاد بالانصاب والاحجار وغير ذلك مما هو داخل في المادة واقع تحت الحس وهم مع ذلك كانوا يزعمون انهم مؤمنون لا مشركون وانهم بعبادة المادة يعبدون الله يتقربون بها اليه كما خبر عن ذلك القرآن بقوله تعالى : ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، وهذا من الاغراق في الجهل والانحطاط في العقيدة والافساد لاصل التوحيد ولم يكن هذا الافساد قاصراً على العرب فقط بل عم سائر ارباب الاديان مما لا محل ابسطه الآن

اذا تمهد هذا علمنا ان الاسلام بما جاء به من آيات التوحيد الخالص من كل

شائبة من شوائب الشرك انما جاء لاستئصال شأفة الوثنية من نفوس العرب وغيرهم من ارباب الاديان بمحو شائبة الاعتقاد باي اثر من آثار المادة وصرف النفوس عن التوجه الى تلك الآثار بالحس لتتوجه الى واجب الوجود بالضمائر والاكتفاء باستحضار هيبة جلاله في القلب وتمكين الاعتقاد بان الأثر الواقع تحت الحس انما يقوم قوامه بالمؤثر المستحضر في الضمير الخارج عن الحس اذ بغير هذا لايقوم للتوحيد اثر متين في النفس ينجي من مزلة القدم الى الوثنية المفضية الى الشرك المؤدي الى الجحود وإنما الانسان مادة وهذه اعراض منها تنمو وتعظم في النفس مادامت النفس مستشعرة بشيء من وجوب التعظيم لغير الله تعالى والتوجه لأي اثر من آثار المادة وساء منقلب الظالمين

هذا هو التوحيد الذي جاء به الاسلام ودعا اليه النبي محمد عليه الصلاة والسلام وانما اضطربت العقول وساءت الاوهام لتفاوت الافهام وتباين مراتب المسلمين في العلم بحقيقة الدين والاحاطة باسراره والوقوف على جميع مقاصده حتى على عهد الرسالة واليك الدليل

اخرج الامام ابو الفرج ابن الجوزي في السيرة العمرية عن المغرور بن سويد قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب في حجة حجها قال فقرأ بنا فى الفجر (الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل) « ولئلاف قريش » فلما انصرف راى الناس مسجداً فبادروه فقال : ما هذا : قالوا : هذا مسجد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هكذا اهلك اهل الكتاب قبلكم اتخذوا آثار انبيائهم بيعاً . من عرضت له فيه صلاة فليصلّ ومن لم تعرض له صلاة فليمض :

فلو كان أولئك المصلون يومئذ في مرتبة عمر في العلم واستشعروا من إقبالهم على ذلك المسجد للصلاة فيه تعظيما له كما استشعر به عمر رضي الله عنه وعنهم اجمعين

لما بادروا للصلاة فيه الا اذا عرضت لهم صلاة ولا جرم ان اعظم الناس فهماً للاسلام وعلما بغوامض الدين ووقوفاً على مقاصد النبوّة المحمدية وما كانت تدعو اليه من التوحيد البحت الخالي عن كل شائبة من الشوائب التي مر ذكرها هم اهل السابقة من المهاجرين الاولين الذين تلقوا الدين انجما كان ينزل بها الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم من لدن البعثة ولازموا الرسول ملازمة الظل فاكتنهوا سر شريعته وادركوا مرامي غرضه وقلدوه في اعماله واقواله وانتهجوا منهجه واهتدوا بسيرته فتفوّقوا على غيرهم في العلم بالدين وعرفوا حقيقة التوحيد ومن هؤلاء مَن هم في المرتبة الأولى في فهم مقاصد الاسلام ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ومن تتبع سيرته وانعم النظر في اقواله وافعاله وانطباقها على الكتاب الكريم ونهج السنة القويم علم ما هو التوحيد الذي ارشد اليه الاسلام وعرفه اولئك الصحابة الكرام فارادوا ان يمحوا به كل اثر من آثار الوثنية عن صفحات الضمائر والقلوب وحسب العاقل دليلاً على هذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكعب الاحبار لما اشار عليه بجعل المصلى الى الصخرة: اقد ضاهيت اليهودية يا كعب الى قوله اذهب اليك (١) فانا لا نؤمر بالصخرة ولكنا امرنا بالكعبة : وقد مر الخبر في الفصل السابق نقلا عن الطبري ولأجله عقدنا هذا الفصل ليكون به عبرة وذكرى لقوم يعقلون

تقدم معنا كيف تدرج العرب الى الوثنية حتى نسوا بلمس الاحجار وعكفوا على عبادة الاصنام وان اصول التوحيد عند ارباب الاديان كلها فسدت تدريجا كما حصل في دين العرب وانما كان مبدأ هذا التدريج الاستسلام للشعور بوجوب تعظيم مظهر من مظاهر المادة يظن ان له صلة بما فوق المادة كالمعابد مثلا

(١) هكذا جاءت هذه العبارة في تاريخ الطبري بهذا اللفظ ولعلها اليك عني

ثم يأخذ هذا الشعور ينمو ويتعد المظهر الاول الى غيره ويتدرج في اطوار التعبد له حتى تنقلب صورة التوحيد المرتسمة على صفحات الضمائر الى صورة من صور المادة متجسمة للحس ويستحيل الايمان بآله واحد فوق المادة الى آلهة شتى كلها من المادة او لها صلة بها وهذا هو الشرك التام الجلي ومبدؤه ذلك الشرك الخفي ولم تكن دعوة الاسلام قاصرة على استئصال الوثنية فقط بل كان من مقاصدها الاولى والغايات التي ترمي اليها بل من اولاها بالاهتمام واجدرها بالعناية تطهير النفوس من كل اثر من آثار ذلك الشعور الفاسد ولو اشبه بدقته دقة الجرثومة الحية التي لا ترى الا بالنظارة المكبرة الا انها اذا وجدت منبتاً صالحا لها تولد عنها ما لا يحصى من الجراثيم في بضع ثوان فمن قال بخلاف ذلك او ظن ان الاسلام يتسامح في تلك الجزئيات او يبيح تعظيم اي مظهر من مظاهر المادة تعظيما دينيا فقد اخطأ ونسب العبث الى دين الله لهذا ولما اشرب قلب عمر (رض) من التوحيد الحق الصادق لم يتسامح مع كعب الاحبار حتى في خلعه نعليه عند دخوله المسجد الاقصى وآخذه على عمله ذلك كما آخذه على رأيه في جعل المصلى الى الصخرة كما رأيت وسترى من اخباره بهذا الصدد ان شاء الله

هكذا كان فهم كبار الصحابة للدين ومن امعن النظر في قول ابي بكر الصديق رضي الله عنه في احدى خطبه التي مر ايرادها في هذا الكتاب وهو (ان الله لا شريك له وليس بينه وبين احد من خلقه نسب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه سوءاً الا بطاعته واتباع امره) يعلم كيف كان اولئك الصحابة الكرام يعلمون الناس التوحيد ويقتلعون من اعماق نفوسهم اصول الشرك ورحم الله امرءاً حاسب نفسه وعرف دينه وتأدب بأدب النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه ونبذ بدع النفوس واهواءها وتنكب مواضع الزلل ومواقع الخطل وسوء الفهم

والله وليّ الرحمة وهو القاهر فوق عباده

﴿فتح حماه واللاذقية وقنّسرين﴾

قيل إن هذه البلاد وما يليها شمالا الى انطاكية فتحها ابو عبيدة قبل مسيره من حمص الى أيلياء اي سنة (١٥) وقيل انه فتحها بعد عوده من إيلياء سنة (١٦) وعندي ان هذا الاصح

سار ابو عبيدة الى معرة حمص فصالحه اهلها على صلح حمص وسار الى حماة فصالحه أهلها أيضاً وبعث خالد بن الوليد الى قنسرين وسار هو الى اللاذقية وقيل بل سار اليها عبادة بن الصامت فامتنع عليه أهلها اياماً فاحتال على فتحها بأن امر الجند ان يحفروا اسرابا فى الارض كل سرب يستر الرجل وفرسه فاجتهد المسلمون حتى حفروها ثم انهم اظهروا القفول الى حمص فلما جنّ عليهم الليل عادوا الى معسكرهم وحفائرهم واهل اللاذقية غارون يرون انهم قد انصرفوا عنهم فلما اصبحوا فتحوا بابهم وخرجوا واخرجوا سرحهم فلم يرعهم الا تصبيح المسلمين إياهم ودخولهم في باب المدينة عنوة فهرب قوم من نصارى اللاذقية ثم انهم طلبوا الامان على ان يتراجعوا الى ارضهم فقوطعوا على خراج يؤدونه قلوا اوكثروا وتركت لهم كنيستهم وبنى المسلمون باللاذقية مسجداً جامعاً بأمر عبادة ثم وسع بعد

ثم أخذ عبادة يتمم فتح عمالة اللاذقية بأمر ابي عبيدة ففتح جبلة وانطرسوس وبانياس والمرقب وغيرها وكل هذه البلاد لم تزل معروفة الى الآن بهذا الاسم وكان فتحها سنة (١٥هـ) او سنة (١٦)

واما خالد بن الوليد فانه لما وصل الى حاضر قنسرين زحف اليه القائد ميناس بجيش الروم فاقتتلوا قتالاً عظيما وقتل ميناس فاما الروم فماتوا على دمه واما اهل

الحاضر وكانوا من العرب من تنوخ نزلوه وهم في خيم الشعر ثم ابتنوا المنازل فارسلوا الى خالد انهم عرب وانهم انما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فدعاهم الى الاسلام فاسلم بعضهم وأقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان بن عمران بن الجاف فتركهم خالد فاسلموا بعد ذلك بيسير وقيل أسلموا في خلافة المهدي العباسي ولما فرغ من حاضر قنسرين سار الى حاضر حلب [1] فتحصن أهلها منه فقال: انكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم أو لأنزلكم الله الينا فنظروا في أمرهم وما لقي أهل حمص فصالحوه على صلح حمص فأبى الا اخراب القلعة فأخربها

ولعمري ان قوماً بلغ اعتقادهم بالنصر الى هذا الحد لقوم لا تعصم منهم العواصم ولا الحصون ولا تثبت امامهم الجيوش وانما حملهم على هذا الاعتقاد يقينهم الثابت بوعد الله ورسوله لهم بالنصر اذ انصروا الحق وتمسكوا بعرى الايمان فكانوا يداً على من ناواهم وعوناً لمن نصح لهم ووالاهم ومن لهذا غير أولئك الفاتحين الاخيار الذين جمعتهم كلمة الاسلام على الاخوة التى لا تنفصم عروتها والطريق التي لا يضل سالكها الا اذ انحرف عنها وزاغ عن صراطها

﴿ ذكر مسير هرقل الى القسطنطينية ﴾

كان هرقل بعد فراره من حمص قصد انطاكية ثم ارتحل على قول بعضهم الى الرها (أورفا) في الجزيرة ليجمع منها جيشاً يمد به أهل حمص قبل سقوطها في يد المسلمين وكان المسلمون كما قدمنا في غير هذا المحل يقظين لا تخفي عليهم من أمر الروم خافية ولما استشعروا بمقاصد هرقل أدرب عليه من الكوفة عمرو بن مالك

---

(١) مدينة كانت على بعد مرحلة صغيرة من حلب ويقول ابن حوقل ان هذه المدينة أخربها الملك باسيليوس ثم تجددت عن يد الامراء من بني بسيس التنوخية ثم أخربها عن آخرها تاج الدولة . وأما حاضر قنسرين فقرية قريبة منها

من قبل قرقيسيا وعبد الله بن المعتم من قبل الموصل والوليد بن عقبة من بلاد الجزيرة بجيوش المسلمين وطووا بلاد الجزيرة وخلفوا وراءهم عقبة لئلا يؤتوا من خلفهم

وكذلك أدرب من قنسرين مما يلي الشام خالد بن الوليد وعياض بن غنم بجيش من المسلمين وعندئذ رحل هرقل الى القسطنطينية وعاد القواد الى أماكنهم دون حرب . ولما بلغ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مافعله خالد قال: أمّر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني : [1] وقد كان عزله كما مر في سيرته وعزل المثنى بن حارثة الشيباني وقال: اني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا اليهما

وأما هرقل فانه مضى على وجهه واستتبع أهل الرها فأبوا أن يتبعوه وقالوا نحن ههنا خير منا معك وتفرقوا عنه وعن المسلمين لما وصلوا الى مدينتهم التي كان أول من دخلها منهم وأنبح كلابها وأنفر دجاجها زياد بن حنظلة وهو صحابي وكان مع عمرو بن مالك مسانده

وكان ادراب المسلمين الى الرها ورحيل هرقل عنها سنة ١٦

ولما ارتحل هرقل لحقه رجل كان أسيراً في أيدي المسلمين فأفلت فقال له : أخبرني عن هؤلاء القوم : فقال له أحدثك كأنك تنظر اليهم فرسان بالنهار ورهبان بالليل ما يأكلون بذمتهم [2] لا بثمن ولا يدخلون الا بسلام ؛ يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه : فقال هرقل : لئن صدقتني ليرثن ماتحت قدميّ هاتين :

---

(١) وفي رواية أن عمر قال هذا القول لما فتح خالد قنسرين وقد ذكرناه في سيرة خالد (٢) يعني من أهل البلاد التي دخل أهلها في ذمتهم

هـذه الصفات السامية التي قلّ أن تجتمع في فاتح من الفاتحين هي التي مهدت لأولئك الابطال تدويخ الممالك الشاسعة وقلب كيان الدول لا عددهم القليل وعدتهـم الضعيفة بازاء عدة الروم والفرس وعـديدهم وضخامة ملكهم ومناعة حوزتهـم ولهذا استشعر هرقل بضعف بنيانه وتقلص ظلّ سلطانه فيئس من عود ملكه في الشام وما يليها اليـه فوقف لما باء عنها بالخسران وعاد بالخذان وقال مودعاً لتلك البلاد الزاهرة والملك العريض

عليكِ السلام ياسورية سلاماً لا اجتماع بعده ولا يعود اليك روميّ أبداً الا خائفاً حـتى يولد الولد المشؤم وياليته لا يولد ما أحلى فعله وامرّ عاقبته على الروم : وفي رواية انه قال

قد كنت سلمت عليك تسليم المسافر فاما اليوم فعليك السلام ياسورية تسليم المفارق ولا يعود اليك رومي ابداً الا خائفاً حتى يولد الولد المشؤم وليته لم يولد

فتح حلب وانطاكية وغيرها

بعد ان تم لأبي عبيدة فتح حماة وقنسرين واللاذقية وغيرها سار الي حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم الفهرى فوجد اهلها متحصنين فنازلهم فلم يلبثوا ان طلبوا الصلح والامان على انفسهم واموالهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذى بها فأعطوا ذلك فاستثنى عليهم موضع المسجد وكان الذي صالحهم عليه عياض ولما انتهى اليهم ابو عبيدة انفذ صلحه . وقيل إن اباعبيدة لم يجد احداً من المقاتلة بحلب وان اهل حلب صالحوه على مدينتهم بأن راسلوه من انطاكية ولما تم لهم الصلح عادوا الى مدينتهم وبينا ابو عبيدة في حلب اتاه الخبر بعصيان اهل قنسرين فوجه اليهم السمط بن الاسود الكندى فأخضعهم وقيل استعصى عليه فتح حلب فتركها

وسار الى انطاكية وكتب الى عمر بذلك فبعث اليه كتاباً يلومه فيه فرجع وفتحها

ثم قصد ابو عبيدة حاضر حلب وكان لحاضر قنسرين يجمع أصنافا من العرب فصالحهم أبو عبيدة على الجزية ثم انهم اسلموا بعد ذلك وحاولوا بُعَيْدَ وفاة الرشيد العباسي الاستيلاء على حلب فاستنجد اهل حلب من حولهم من العرب ولم يستطيعوا استنجاد دار الخلافة لحصول فتنة محمد الامين فيها فأنجدهم العباس بن زفر الهلالي ونازل اهل الحاضر فرحلوا عنه الى قنسرين ثم غدروا بأهل قنسرين فجلوهم هؤلاء عن بلدهم ومن ثم تفرقوا في البلاد فقوم نزلوا تكريت وقوم ارمينيا وغيرها

ثم قصد ابو عبيدة انطاكية وكانت ذات خطر وشهرة وقد التجأ اليها كثير من فالة قنسرين وغيرها من البلاد وتحصنوا فيها وبعثوا بجيش منهم الى مهروبة على فرسخين من انطاكية اصد المسلمين فلقي ابو عبيدة هذا الجيش ففضه والجأهم الى المدينة وحاصر اهلها من جميع ابوابها فصالحوه على الجزية والجلاء فجلا بعضهم واقام بعضهم فأمنهم ووضع على كل حال منهم ديناراً وجريب حنطة وسار عنهم فنقضوا فوجه اليهم عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة الفهري ففتحها على الصلح الأول . ومن يرى ان فتح انطاكية كان قبل إيلياء يقول انها نقضت بعد رجوع ابي عبيدة الى فلسطين فوجه اليها من ايلياء عمرو بن العاص فتتحها وممن قال هذا البلاذري فى فتوح البلدان وما نخاله صواباً

وكانت انطاكية بسبب موقعها الجغرافي وحصانتها وتفوقها على مدن سورية عظيمة الذكر والامر عند عمر وعثمان رضي الله عنهما ولما فتحت كتب عمر الى ابي عبيدة ان يرتب فيها جيشاً من المسلمين من اهل الحسبة والراي يرابط فيها وان لا يحبس عن ذلك الجيش العطاء وهكذا فعل بعده عثمان رضي الله عنه فقد

أمر معاوية وكان يومئذ والي الشام ان يلزمها قوماً من المسلمين وان يقطعهم القطائع ففعل

وبلغ أبا عبيدة بعد فراغه من امر انطاكية ان جمعاً من الروم بين معرة مصرين وحلب فسار اليهم وقاتلهم وفرق جمعهم ثم فرق خيوله في انحاء البلاد ففتحت بوقا وسرمين وتيزين وجميع ارض قنسرين ثم سار ابو عبيدة الى حلب وقد نقض اهلها فنازلهم واخضعهم ثم سار ابو عبيدة نحو قورس ففتحها صلحاً وفتح تل عزاز ومنبج وسير عياضا وحبيباً في جيشين من المسلمين فأتما فتح سورية الى حدود الفرات شرقاً واسيا الصغرى شمالاً وجعل ابو عبيدة على كل كورة فتحها عاملا وضم اليه جنداً من المسلمين وبعث جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسي الى اطراف اسيا الصغرى فلقي جمعاً للروم معهم عرب من تنوخ وغسان يريدون اللحاق بهرقل فأوقع بهم ثم لحق به مالك بن الاشتر النخعي مدداً من قبل أبي عبيدة وعادرا جميعاً سالمين غانمين وسير جيشاً آخر الى مرعش مع خالد بن الوليد ففتحها واخربها وعاد والظاهر ان الذي دعاه الى اخرابها عدم وجود جند كاف يقوم بحمايتها من هجمات اهل الجزيرة والروم والا فربما يكون اخرب حصنها فقط لئلا يعتصم به اهلها بعد وينتقضوا على المسلمين

﴿ مهاجمة هرقل لسورية بعد استقرار ملك المسلمين ﴾

هكذا انقضى امر الروم في البلاد السورية وتم للمسلمين فتحها بعد حروب طويلة استمرت ثلاث سنين ولاقى جند المسلمين في غضونها من العناء وبذلوا من الدماء ماجعل ثمن هذه البلاد عليهم غالياً ومقامها في نظرهم عالياً وكان لرجالات قريش واشرافها في حرب الشام خاصة من الأثر العظيم والبلاء الجسيم مالم يكن لقوم غيرهم في الفتوحات الأخرى وقتل منهم في وقائع الشام عدد كبير

لا سيما في وقعة اليرموك وكان ممن قتل منهم عكرمة بن ابي جهل وابنه عمرو وخالد ابن سعيد وهشام بن العاصي وسهيل بن عمرو وابان بن سعيد واضرابهم من صناديد قريش واشرافها وكان للنساء القرشيات من البلاء ما كان للرجال ايضاً فقد روى الطبري ان النساء المسلمات قاتلن يوم اليرموك وخرجت جويرية ابنة ابي سفيان (القرشية) في جولة. وقال البلاذري · وقاتل يوم اليرموك نساء من نساء المسلمين قتالاً شديداً وجعلت هند بنت عتبة ام معاوية بن ابي سفيان تقول: عضدوا الغلفان بسيوفكم :

وبالجملة فقد لاقى المسلمون في فتح الشام اهوالاً شداداً وصادموا عدواً استمات في الدفاع عن حوزته والذب عن سلطانه اذ لم يكن هرقل وجنوده بأقل ثباتاً واقداما وجراءة من العرب يدلك على هذا ما ظهر من الروم في الوقائع الأولى التي حدثت في اليرموك ودمشق وفحل واجنادين وغيرها وعدا هذا فانه لما استقرت قدم المسلمين بالشام وتمكن سلطانهم فيها في الشرق والغرب وسار ابو عبيدة عن انطاكية بعد ان استخلف عليها وعلى قنسرين وحلب وغيرها من استخلف من القواد لم يستقر لهرقل حال ولم يهدأ له بال فأعاد الكرة على البلاد السورية في سنة (١٧ هـ) بتحريض اهل الجزيرة له ووعدهم له بالمناصرة والنصرة فلم يفجأ المسلمين الا وهرقل قاد بجند كثيف في حمص من طريق البحر واستمد اهل الجزيرة وكاتب اهل حمص بالخروج على المسلمين فابوا عليه وارسلوا اليه إنا قد عاهدنا المسلمين فنخاف ان لا ننصر وكان ابو عبيدة في حمص فاستمد خالداً فجاءه من قنسرين بمن معه من الجنود فانضم اهل قنسرين بعده الى هرقل وحاصر هذا ابو عبيدة في حمص فاستشار ابو عبيدة القواد فاشار عليه خالد بالمناجزة واشار غيره بالكتابة الى عمر ومطاولة هرقل ريثما يأتي منه الجواب فعمل برأيهم

وكتب الى امير المؤمنين يستمده وجاءت لهرقل الجيوش والامداد وكان امداد الجزيرة وحده ثلاثين الفاً على ما رواه الطبري وبلغ الروم من المسلمين كل مبلغ ووصل الكتاب الى عمر فكتب الى سعد بن ابي وقاص في العراق ان ابا عبيدة قد احيط به ولزم حصنه فبثّ المسلمين بالجزيرة واشغلهم بالمسلمين عن اهل حمص وكان عمر اعد في كل مصر قدراً من الخيل لكون ان كان وكان في الكوفة اربعة آلاف فرس فلما وصل كتاب عمر الى سعد بعث بالجند مع القعقاع بن عمرو وعبد الله بن عتبان وسهيل بن عدي وعياض بن غنم وكان عياض قد عاد الى العراق بعد فتح الشام لانه من جند العراق واشار عليهم بامر عمر بن الخطاب ان يسلك كل امير طريقاً الى الجزيرة فيقصد واحد قَرقيسياء والآخر الرقّة والثالث نُصَيبين والرابع حران والرها واهتم لهذا الامر عمر بن الخطاب (رض) فخرج من المدينة ممدداً لابى عبيدة حتى نزل الجابية وكان القعقاع تعجل باربعة آلاف فارس الى حمص ولما بلغ الروم ذلك انفضوا الى مدائنهم وبادروا المسلمين اليها فتحصنوا ونزل المسلمون عليهم فمنعوهم عن امداد هرقل فدب الفشل في جنوده وراسل طائفة من تنوخ خالد بن الوليد بالتسليم او الهزيمة وكان خالد بن الوليد لشجاعته وعلو همته لا يحب الغلبة الا بفل صفوف الاعداء ومناجزتهم في الهيجاء فارسل الى تنوخ والله لولا اني في سلطان غيري ما باليت أأقللتم أم اكثرتم أو اقمتم او ذهبتم فان كنتم صادقين فانفشّوا [1] كما انفش اهل الجزيرة فوعدوه بالهزيمة اذا خرج اليهم المسلمون وقال المسلمون لابى عبيدة قد تفرق اهل الجزيرة وندم اهل قنسرين وواعدوا من انفسهم وهم العرب فاخرج بنا هذا وخالد بن الوليد ساكت فقال له ابو عبيدة مالك لا تتكلم فقال : قد عرفت الذي

(١) يقال انفش الرجل أي فتر وكسل

كان من رأيي فلم تسمع من كلامي : قال : فتكلم فاني أسمع منك وأطيعك : قال : فاخرج بالمسلمين فان الله تعالى قد نقض من عدتهم (يعني الروم) وبالمدد يقاتلون وانما نقاتل منذ أسلمنا بالنصر فلا تحفلك كثرتهم

روى الطبري بعد سياق هذا الخبر عن علقمة بن النضر وغيره قالوا فجمع أبو عبيدة الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال

ايها الناس ان هـذا يوم له مابعده أما من حي منكم فانه يصفوله ملكه وقراره وامامن مات منكم فانها الشهادة فأحسنوا بالله الظن ولا يكرهن اليكم الموت امرؤ قد اقترفه احدكم دون الشرك توبوا الى الله وتعرضوا للشهادة فانى اشهد وليس أوان الكذب اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة :

وكأنما كان في الناس عقل [1] تنشطت فخرج بهم وخالد على الميمنة وعباس على الميسرة وابو عبيدة في القلب وعلى باب المدينة معاذ بن جبل ونشب القتال فانهم لكذلك اذ قدم القعقاع متعجلا في مائة وانهزم أهل قنسرين بالروم فركبهم المسلمون وتمت الهزيمة وعاد هرقل وجنود بالخيبة وظهر من يقظة المسلمين واستعدادهم واهتمام امير المؤمنين بهم في هذه الحادثة مارايت مما لا يظن بقوم مثلهم حديثي عهد بالبداوة . ولما ظفر المسلمون جمعهم ابو عبيدة وخطبهم وقال لاتنكلوا [2] ولا تزهدوا في الدرجات فلو علمت انه يبقى منا أحد لم احدثكم بهذا الحديث

وتوافى اليه آخر اهل الكوفة في ثالث يوم من يوم الواقعة فكتب المسلمون الى عمر وهو بالجابية بالفتح وبقدوم اهل الكوفة بعد ثلاثة وطلبوا منه حكم

(١) جمع عقال وهو ما يعقل به البعير (٢) قال في القاموس نكل نكص وجبن

في ذلك فكتب اليهم ان اشركوهم وقال : جزى الله أهل الكوفة خيراً يكفون حوزتهم ويمدون أهل الامصار

ما كل حديث تحدث به العامة

﴿ وندم أبي عبيدة على نقله الحديث لعامة الناس ﴾

كل مسلم اكتنه كنه الدين الاسلامي ووقف على حكمه واسراره يرى من آياته العظمى في الترغيب والترهيب ما لو أحسن استعماله ووضع في موضعه لكفى لازعاج النفوس الشريرة عن مواطن الرذيلة مهما التصقت بها وامعنت فيها ولجمل النفوس البارة نوراً على نور وألبسها من الفضيلة لباساً لا يصيبه بلى وقد جاء الكتاب الكريم بالترغيب ليكون باعثا للنفوس على العمل الصالح رجاء الثواب الاخروي الذي أعده الله لعباده الصالحين لا ليكون وسيلة لاستدراج النفوس في مدارج الاستباحة طمعاً في عفو الله لهذا جاء بازاء الترغيب بالترهيب لترتسم على صفحات النفوس صورة العقاب كما ارتسمت صورة الثواب فيكون لها منها داع الى الخير يذكرها بالثواب ويمكن منها الرغبة فيه لا الى حد الطمع والغرور ثم الاستدراج في الشرور . وزاجر عن الشر يذكرها بالعقاب ويمكن منها الرهبة منه لا الى حد الانقطاع الى تقويم أود النفس وتعطيل وظائف الحياة ولا الى حد اليأس والقنوط ثم الاسترسال في الشهوات واقتراف المنكرات [1]: على ذلك الاساس بني الترغيب والترهيب في الاسلام وكل ماجاء منه في الحديث النبوي فالمراد منه عين ما أراده القرآن ولكن ما الحيلة وقد اولع كثير من علماء المسلمين بالافراط في الوعظ ترغيباً وترهيباً وحملوا عامة الناس على طريقتهم في

---

(١) لنا بهذا الصدد كلام مشبع في كتابنا (تنبيه الافهام الى مطالب الحياة الاجتماعية والاسلام) فليرجع اليه من أحب

فهم الدين فأكثروا من حمل الحديث وروايته دون التفهم له والعلم بمقاصده ووضع كل شئ منه في محله والتفريق بين صحيحه وموضوعه حتى أغروا العامة بعقيدة الاباحة لكثرة ما يروون لهم من أحاديث الترغيب ولو موضوعة كفضائل الصيام والصلاة وفضائل الشهور والايام وفضائل التلاوات وجلها ان لم نقل كلها من الموضوع الذي تستدرج به العامة للاستباحة لاعتقادهم بأن من صام كذا غفر له من السيئات كذا وكذا ومن تنفل بيوم كذا محيت سيئاته الى كذا ولقد بلغ ببعضهم سوء الفهم للدين أن جعلوا لبعض القصائد النبوية من الفضائل مالم يجعلوه للقرآن فقالوا ان البيت الفلاني منها لشفاء الاسقام والآخر لمحو الذنوب والآثام والثالث للنجاة من ظلم الحكام فليت شعري اذا اعتقد العامي أن تلاوة بيت من قصيدة يكفي لمحو كل ما اقترفه في يومه من الآثام فالى أية درجة ينتهي فساد أخلاقه وسروره بغشه وهذا ينقضه القرآن بأوامره ونواهيه ووعده ووعيده وحكمه وأحكامه

اللهم ان هذا لغاية الاستهانة بالدين والجهل بمقاصد الاسلام ومنشؤه اضطراب الافهام وتلبس الحقائق بالاوهام منذ أخذ الوضاعون بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدخلوا في الدين ما ليس منه ينشأ ذلك لاكثار من حمل الحديث على غير تفقه فيه ووضع له في مواضعه التي أرادها الشرع وقصدها الاسلام ولو تتبع العلماء سيرة الصحابة الكرام سيما خاصتهم الذين لازموا النبي عليه الصلاة والسلام وفهموا هذا الدين حق الفهم لرأوا كيف أنهم كانوا يقلون من رواية الحديث الا للخاصة أو ما تعلق منه بالاحكام حتى بلغ بعمر رضي الله عنه ان كان ينهى عن رواية الحديث ويقول عليكم بالقرآن كما سترى بعد وما ذلك الا خوف الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا

كثرت الرواية والنقل وخوف افتتان العامة بما ليس لهم به علم وبما لم يتفقهوا فيه من الحديث

أبو عبيدة بن الجراح كان من خيرة الصحابة وعلى جانب من التفقه في الدين والورع والتقوى دعا النبي صلى الله عليه وسلم لأن يسميه أمين هذه الامة وقد سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً ربما لم يسمعه منه أحد من الصحابة اوسمعه بعض الخاصة فرأى هذا الامين أن يطوي هذا الحديث بين الجوانح ويضن به على العامة كما ضن به عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لان عقول العامة يلابسها الاغترار ونفوسهم يلامسها الضعف وحب الشهوات فهم بالوعيد أولى وبالزامهم ظواهر الشرع أحرى ولكن لما ألجأته الضرورة القصوى وهو محصور مع المسلمين في حمص ورأى منهم فتوراً عن الحرب لا لوهن في نفوسهم أو جبن أصابهم كلا وانما هو لرهبة الخالق التى تمكنت من افئدتهم وقلوبهم وأخافتهم من الموت لا لذاته بل لما بعده قام فخطب فيهم وتلى عليهم ذلك الحديث وهو (من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة) استحثاثاً لهممهم وتخفيفاً لروعهم مما بعد الموت رجاء رحمة الله وعفوه عن ذنوب اقترفوها مما دون الشرك اذا تابوا وأنابوا

قال لهم هذا وهو يظن ان هذا الحديث لايتعدى اسماعهم لاعتقاده انهم اذا خرجوا لمكافحة الروم لايبقى منهم أحد يحدث به أو يلابس نفسه أثر منه لكثرة من كان على حصارهم من جند الروم ولما تم الظفر للمسلمين ونجوا من براثن العدو ندم على ان حدثهم بذلك الحديث وخشي من ان يعلق في نفوسهم شيء منه مع أنه علقه على التوبة فقام وخطب فيهم فقال

لا تنكلوا ولا تزهدوا في الدرجات فلو علمت انه يبقى منا أحد لم أحدثكم

بهذا الحديث)

وتالله إن قوما بلغ بهم الايمان الصادق واليقين الثابت ذلك المقام مقام الرهبة من الله ومن الوقوف بين يدي قدرته بعد الموت لقوم عامتهم أعلم بالدين وأخلص في اليقين من خاصتنا ومع هذا فقد ندم ابو عبيدة على ان حدثهم بذلك الحديث فليت شعري كيف يكون الحال بعد ذلك العصر وماذا يشترط في المحدثين وحملة علوم الدين ألا يشترط الوقوف على مقاصد الاسلام والنفقة في الحديث والعلم بحالة المخاطبين واجتناب الغلو معهم في الترغيب والترهيب ومراعات ما يلابس عقولهم من القوة والضعف وانى يتيسر هذا وقد نتج عن كثرة الرواية وحمل الحديث بلا تفقه فيه زيغ العقول عن مقاصد الشرع واجتراء الكذابين على وضع الحديث وشحن الكتب الاسلامية بما لا يرضاه الله والرسول وهو ما كان يحذره عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولهذا نهى في عصره الذي هو خير العصور عن الاكثار من رواية الحديث فما بالك بما يلي عصره من العصور

ذكر الحافظ ابو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي الاندلسي في كتابه جامع بيان العلم [1] وفضله في باب ذكر من ذم الاكثار من الحديث دون التفهم له والتفقه فيه ما نصه

عن ابن وهب قال سمعت سفيان بن عيينة يحدث عن بيان عن عامر الشعبي عن قرظة بن كعب قال : خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر الى حرار فتوضأ فغسل اثنتين ثم قال: اتدرون لم مشيت معكم: قالوا نعم نحن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشيت معنا : فقال : انكم تأتون اهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي

(١) يوجد من هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبة الازهر

النحل فلا تصدوهم بالاحاديث فتشغلوهم . جوّدوا القرآن واقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم امضوا وانا شريككم : فلما قدم قرظة قالوا حدثنا قال نهانا عمر بن الخطاب اه

ثم قال ابن عبد البر بعد هذا بقليل مانصه: قول عمر انما كان لقوم لم يكونوا احصوا القرآن فخشي عليهم الاشتغال بغيره عنه اذ هو الاصل لكل علم هذا معنى قول ابي عبيد في ذلك: ثم قال بعد ذلك ايضاً : ان نهيه عن الاكثار وامره بالاقلال من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انما كان خوف الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وخوفاً از يكونوا مع الاكثار يحدثون بما لم يتيقنوا حفظه ولم يعوه لان ضبط من قلت روايته اكثر من ضبط المستكثر وهو أبعد من السهو والغلط الذي لا يؤمن مع الاكثار فلهذا امرهم عمر من الاقلال من الرواية اه

﴿ القواد الذين حضروا فتوح الشام ﴾

ممن كان له البلاء الحسن من القواد في فتوح الشام غير القائد العام الذي كان خالد بن الوليد وبعده ابوعبيدة بن الجراح .خالد بن سعيد وعمرو بن العاص ويزيد ابن أبي سفيان واخوه معاوية وحبيب بن مسلمة الفهري وعياض بن غنم الفهري وشرحبيل بن حسنة وكل هؤلاء من قريش الاّ الاخير فانه حليف بني زهرة من قريش واما غير هؤلاء ممن ليسوا من قريش فهم ذوالكلاع الحميري والقعقاع ابن عمرو [1] والسمط بن الاسود الكندي وعلقمة بن مجزز وعلقمة بن حكيم الفراسي وعبادة بن الصامت ومالك بن الاشتر النخعي ومسروق بن فلان العكي

---

(١) القعقاع وعياض هما من جند العراق لا الشام ووفدا مع خالد بن الوليد ايام مجيئه من العراق وعاد القعقاع بعد فتح دمشق وعياض بعد فتح انطاكية وقيل قبلها الى العراق

وأبو أيوب المالكي وغيرهم

هكذا تم فتح هذا القطر السوري لأولئك القواد البواسل وقد رأيت من حسن ترتيبهم للجيوش وإلمامهم بطرق البلاد وتفننهم بأساليب الحرب وقهرهم للعدو مايدل على علو كعبهم في فن الحرب وخبرتهم بالبلاد حتى كان أمير المؤمنين وهو بالمدينة يصدر أوامره للامراء في كيف يسيرون وأي المسالك يسلكون واي البلاد يقصدون كأنما كان ينظر الى هذا القطر على خارطة مصورة بين يديه والعلة في هذا ان القطر السوري بسبب اتصاله بجزيرة العرب من جهة الحجاز كان لجزء طبيعي منها عرف العرب طرقه وبلاده وأحواله كافة كما عرفوا نفس الجزيرة يضاف اليه ان قسما عظيما منه كان مأهولا بالعرب من مضر وكانت صلة الاختلاط والمتاجرة غير منقطعة بين الحجاز وسورية تمتد الى اجيال متطاولة قبل المسيح وكانت قوافل قريش قبل الاسلام تتردد الى سورية اكثر من غيرها لهذا كان كثير من الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب عارفين بطرق البلاد وأحوالها ذوي علاقة تجارية بسكانها

خلاصة جغرافية

ونظرة اجتماعية

قد رأينا بعد الفراغ من الكلام على فتح سورية ان نأتي على خلاصة جغرافية للبلاد السورية نضمنها أهم المباحث الجغرافية والاجتماعية المتعلقة بهذا القطر قديماً وحديثاً مع بيان صنائعه وعدد سكانه وأقسامه وجبايته كل ذلك على وجه الاجمال الذي يسعه المقام اذ التفصيل ليس من شأن التاريخ العام بل هو من شأن التواريخ الخاصة فنقول

يحد سوريا شمالا ولاية أدنه (كيليكيا) من آسيا الصغرى وشرقا [illegible]

والبادية وجنوباً جزء من بلاد العرب ويقال له تيه بني اسرائيل وغرباً بحر الروم أي البحر المتوسط وقد قام في هذا القطر حكومات كثيرة تعددت بتعدد الاقوام القاطنين فيه كالفينيقيين [1] والحثيين والاموريين والكنعانيين وغيرهم من الشعوب ثم رحل اليه بنو اسرائيل من مصر وزاحموا سكان البلاد وأخذوا قسما عظيما منه وغزاه كثير من الدول القديمة كدولة الفراعنة المصريين والماديين والفرس واليونانيين والرومانيين وعرب الاسلام ولم تثبت فيه قدم دولة من الدول الفاتحة كما ثبتت قدم دولة الرومانيين ودولة الاسلام فقد كان ابتداء دولة الرومان فيها من سنة ٦٥ ق . م الى سنة (٦٣٣ م) حيث ابتدأ الفتح الاسلامي في البلاد السورية وكانت نهايته (٦٣٨ م) أو(١٧ هـ) وفيها تقلص ظل الروم عن هذا القطر وقد كان على عهد الرومانيين مقسوما الى ثلاثة أقسام كبيرة وهو فلسطين وتوابعها ودمشق وتوابعها وانطاكية وتوابعها وكان القسم الشمالي منه يسمى سورية والقسم الجنوبي يسمى فلسطين فأطلق عليه اسم سورية منذ تملكه الرومان ولما تملكه المسلمون أطلقوا عليه اسم الشام وقسمه عمر (رض) الى أربعة أقسام القسم الاول الثغور وسماها هارون الرشيد العواصم وهي حمص وقنسرين وحلب وانطاكية وحاضرة هذا القسم

---

(١) الفينيقيون كانوا يسكنون سواحل الشام الجنوبية وبعض الشمالية وكانت عاصمتهم القديمة صيدا ثم ابتنوا صورا حوالي سنة ١٥٠٠ قبل المسيح بعد خراب صيدا وكانوا من أنشط الشعوب وأعرفهم بسلوك البحار وطرق الاستعمار فاستعمروا معظم جزائر البحر الابيض وذهبوا الى سواحل افريقيا الشمالية وأسسوا هناك مدينة قرطاجنة الشهيرة التي يقال انها كانت قرب تونس وقطعوا مضيق جبل طارق الى المحيط وبالجملة فقد كانوا أعظم دول البحار في عهدهم ويشبههم بعض المؤرخين بدولة انكلترا لهذا العهد

حمص والقسم الثاني دمشق والقسم الثالث الأردن وحاضرته مدينة الاردن (طبرية) والقسم الرابع فلسطين وهذا قسمه الى قسمين قسم حاضرته الرملة وقسم حاضرته إيلياء (القدس) وكل قسم من هذه الاقسام يسمى جنداً وتحت كل قسم أقسام تدعى كوراً وسيأتي الكلام على هذا بالتفصيل في غير هذا المحل ان شاء الله

وقد توفرت في هذا القطر أسباب المكاسب الثلاثة وهي الزراعة والصناعة والتجارة لخصب أراضيه وموقعه الجغرافي ونشاط أهله للعمل الا أن هذه الاسباب كانت تعلو وتسفل بنسبة حال الدول الحاكمة في هذا القطر ومن المقرر أن عمران الممالك تابع لترقي الدول وقد كانت دولة الرومان الشرقية على عهد الفتح الاسلامي دولة لحقها الهرم والعجز وعفت من ممالكها آثار التمدن الروماني العظيم لما أصاب أهلها من الانشقاق الديني والاختلاف المذهبي الذي أودى بحياتهم السياسية وفرق جامعتهم الملية ولما تولى الامبراطورية هرقل سنة (٦١٠ م) كان أمر المجادلات الدينية في أشده فخاض الامبراطور نفسه في غماره واشتغل بالأمور الدينية تاركا أمور الدولة السياسية لوزرائه وأرباب دولته ومن ثم ظهر الوهن في الدولة في أتم مظاهره فغزتها دولة الفرس واكتسحت جزءاً من ممالكها عظيما وهو آسيا الصغرى وسورية ومصر وكاد الامبراطور هرقل يزايل بكرسيه الامبراطوري القسطنطينية ويتخذ قرطاجنة عاصمة له لولم يمنعه عن هذا العزم بطريرك القسطنطينية حتى نهض مرة ثانية بجنان ثابت لمحاربة الفرس واسترد منهم ما انتزعوه من ممالكه كما تقدمت الاشارة اليه فيما مر من هذا الكتاب

ولا ريب في ان ما أصاب هذه الممالك من التقهقر يومئذ كان لسورية منه حظ عظيم ونكبت كما نكبت ذات البلاد العريض بسر [illegible]

والانقسام لاسيما وانها كانت حديثة عهد بمعاهد الفرس التي لم يكن مضى عليها لحين الفتح الا بضع عشرة سنة : إذن فهذه البلاد لم تكن لمادوخها المسلمون راقية مراقي العمران ولم تكن أسباب المكاسب الثلاثة متوفرة عند السكان إلا ان استعدادها الطبيعي لقبول العمران وما فيها من بقايا المدنية الغابرة تكفل برقي أهلها في مراقي السعادة مذ بسطت عليها دولة العرب المسلمين جناح السلطان

نعم نحن ليس لدينا نص تاريخي واضح على مبلغ ما وصلت اليه هذه البلاد من الرقي على عهد الخلفاء الراشدين والامويين في صدر الاسلام لأن أخبار تلك العصور انتهت الينا بالرواية ولم يكن تدوين التاريخ الاسلامي معنياً به في ذلك العصر إلا ان هناك من الادلة والاسباب ما يحملنا على الظن بل اليقين بأن البلاد السورية صارت يومئذ الى أبعد غاية من غايات الترقي في أصول المكاسب الثلاثة الصناعة والتجارة والزراعة

من المعلوم بالبداهة ان العدل اساس العمران ومتى تنظمت اصول الجباية ورفع عن الرعية العسف وخففت المظالم وأطلق للاهلين عنان الحرية توفرت لهم أسباب الراحة ونشطوا من عقال الخمول فهبوا للأخذ بأسباب المكاسب وتبسطوا في مناحي العمران وقد رايت فيما مضى من اخبار الفتح كيف ان سكان البلاد كانوا يصالحون على مقدار معين من الجزية والخراج لم يتجاوز حد العدل والاستطاعة وروعيت فيه بالطبع ثروة البلاد ومقدرة كل فرد من الاهلين وان هذا القدر المعين في عصر الفتح استمر على ما هو عليه مدة الخلفاء الراشدين والامويين وصدراً من خلافة العباسيين وان سببه محافظة الخلفاء على العهود التي بأيدي السكان ويضاف اليه تجنب تلك الدول لأسباب السرف لقرب عهدها بالبداوة وجدتها في تأسيس الملك وعدم حاجتها لهذا السبب الى التعسف في

الجباية والاكثار من المظالم وقد كانت جباية الاقسام السورية الاربعة في عهد الامويين على ترقي العمران في البلاد هي ما يأتي نقلا عن فتوح البلدان

دينار	
١٨٠٠٠٠	الاردن
٣٥٠٠٠٠	فلسطين
٤٠٠٠٠٠	دمشق
٨٠٠٠٠٠	العواصم (وهي حمص وقنسرين وحلب وانطاكية وتوابعها)
١٧٣٠٠٠٠	الجمع

وهذا المبلغ ليس بشيء بالنسبة لعمران البلاد يومئذ وربما بلغت جباية البلاد في عصور تقهقرها اكثر من ذلك وجبايتها الآن على تدنيها في العمران وفقد الصناعة منها وضعف التجارة والزراعة فيها اكثر من جبايتها في صدر الاسلام كما سترى

وهذا دليل على تناهي الخلفاء يومئذ بالعدل وعدم عسفهم في الرعية يضاف اليه ايضا جلوس الخلفاء بأنفسهم للمظالم الى عهد عمر بن عبد العزيز وإنصافهم للرعية وقيامهم على وسائل العمران وتمصير الامصار وتاسيس الملاجئ كوضع عمر بن الخطاب لدور الضيافات الخاصة بابناء السبيل والمنقطعين وترتيبها في الطرق من الحجاز الى الشام ومنها الى العراق وتاسيس معاوية لمدينة طرابلس الشام وتمصير سليمان بن عبد الملك لمدينة الرملة وتشييد الوليد بن عبد الملك الملاجئ للزمني والمجذمين و مره ببناء الفنادق للمسافرين فيما بين الاقطار المتباعدة كما صنع عمر بن الخطاب وعنايته في الوليد باصلاح الطرق لسهولة نقل التجارة واطلاق الخلفاء الحرية للمعتقدين بين الطوائف الوطنية من اليهود

والنصارى وعدم إنحياز احدهم لفريق منهم دون آخر كما كان ينحاز ملوك الروم ويثيرون بين الرعية ثائرة التباغض والشحناء كل هذا وغيره من اسباب الراحة والأمن ودواعي الترقي والعمران يدلنا على رقيّ البلاد على عهد الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين ايضا وتمتع اهلها بسعادة الراحة والعمران التي لم يتمتع بها هذا القطر في عهد غير دولة المسلمين الا قليلا على عهد الفينيقيين ايام مجدهم والرومانيين ايام تمدنهم

ولما انقسمت دول الاسلام على بعضها وتداول هذا القطر السوري عدة من الدول كالفاطميين والاتراك والاكراد والجراكسة أخذ بالانحطاط تبعاً لانحطاط الدول الحاكمة وأصيب من النكبات بما لم يصب به غيره من الاقطار الاسلامية اذ هاجمته في أواخر القرن الخامس من الهجرة جيوش الصليب واستعرت في أرجائه نيران تلك الحروب المشؤمة مدة جيلين كاملين الله اعلم بما اصاب فى غضونها هذا القطر من الخراب والتدمير ثم تبع ذلك هجوم التتار عليها في نصف القرن السابع للهجرة وتخريبهم للمدن والامصار وفعلهم في البلاد واهلها الافعال الكبار وتلى ذلك هجوم تيمورلنك عليها في اواخر القرن الثامن بعد اكتساحه لما في طريقه من ممالك الاسلام وفعل في سورية الافاعيل واجلى عن دمشق خاصة العلم والصناعة واستصحبهم معه في عودته الى سمرقند

على ان موقع هذه البلاد الجغرافي وطبيعة ارضها المشهورة بالخصب وأهلها المعروفين بالجلد حفظ لها ذماء الحياة واعان اهلها على تحمل المصائب فلم تحط الى الدرجة التي تفقد معها اصول المكاسب بل استمرت حلب ودمشق الى عهد قريب محطاً لحركة القوافل الآتية من العراق تحمل بضائع العجم والهند وتعود بالبضائع الشامية بل والبضائع الغربية ايضا اذ كان هذا الطريق قبل فتح

ترعة السويس أخصر طريق بين الغرب والشرق

وكذلك الصنائع فانها بقيت حية نامية حتى في العصور المتأخرة على عهد ملوك الطوائف يدلنا على هذا ما بقي منها ومالم يبق أيضا لوجود أثره الذي ينبئ عنه فأما الباقي منها الى الآن فصناعة الاقمشة الحريرية والقطنية كاقمشة اللبس المعروفة بالشاهية أو القطنية والديما أو العزلية والالاجا والحامدية وغيرها وكاقمشة الزينة كالستاير والمتكئات وغيرها من أقمشة الحرير والصوف والقطن المختصة بالزينة وأخصها الاطلس المعروف قديما بالدامسقو والى غير ذلك من أنواع الأقمشة كالشراشف والمناشف والكوفيات والاحزمة كل هذا باق الى الآن وهو في أعلى طبقة من دقة الصناعة ورواء المنظر ومتانة النسج وبهاء الالوان وتناسب النقش وقد اختصت ببعض هذه الصنائع دون البعض الآخر كثير من البلدان السورية كحلب وحماه وحمص ودمشق وطرابلس والذوق (من لبنان) وغيرها

وصناعة الحفر والنقش على الخشب بالصدف المعروفة (بالمفصص) وهي من الصناعة الخاصة بدمشق وقد ترقت الآن فتعدت الصدف الى النقش بقطع الخشب الملون الدقيقة بحيث لايظنها الناظر اليها لا منقوشة بالدهان لتماسك الاجزاء الصغيرة والتحامها التحاماً لا يظهر منه أن النقوش انما هي أجزاء صغيرة ملتصقة في الخشب الا بعد امعان النظر فيها والتدقيق في نقوشها

وصناعة الصابون ومعاملها لم تزل تشتغل الى الآن في حلب ودمشق ونابلس وغيرها

وصناعة النشا وفي دمشق معامل كثيرة لها تسمى القاعات ومن هذا العهد تصنع كميات عظيمة من النشا لانه قل تصديره الى الخارج بسبب مزاحمة

النشا الافرنجي له في البلاد التي كان يصدر اليها كمصر وغيرها

وصناعة الدباغة وهي موجودة في معظم المدن السورية الا أنهاساذجة لم تترق الا في مدينة زحلة التابعة لجبل لبنان فانها تحسنت الآن وكادت تضاهي الجلود التي تصنع في زحلة الجلود التي تصنع في معامل أوربا

وصناعة البناء والحفر في الاحجار ونقشها نقوشاًناتئة أو مجوفة وهي صناعة قديمة في البلاد تمتد الى زمن الفينيقيين كما يستدل على ذلك بالآثارالحجرية الباقية الى الآن والظاهر أنها كانت تختلف باختلاف حال الدول وحبها للبذخ وميلها للعمران فالبناء في عصر الفينيقيين ومن تلاهم من الدول في سورية كان ظاهر الفخامة عظيم الضخامة متقن النقش والترتيب كهيكل بعلبك الذي بلغ الغايةفي إتقان البناء والتصوير الناتئ على الحجر الصلد ومثله هيكل تدمر أيضاًعلى أنالم نر أثراً يشبههما لأواخر الدولة الرومانية ولما جاء الاسلام وتبسط الامويون في العمران وابتنى الوليد جامع دمشق وبيت المقدس ظهر ثانية فن اتقان البناء وكان أجمل رواء منه في عصر الرومانيين من حيث النقش الدقيق على الاحجار المعروف لهذا العهد بالحفر والتنزيل وأما في القرون الوسطى الهجرية فقد انحطت هذه الصناعة انحطاطاً قليلاً بدليل ما نشاهده منها في بعض المساجد التي بنيت على عهد الملوك الجراكسة وغيرهم كجامع الملك الظاهر بدمشق ثم نهضت في القرون المتأخرة وترقت من فن البناء صناعة الزخرف والحفر والتنزيل ترقياً عظيماً حتى هذا العهد وقد بني في العام الماضي محراب للجامع الاموي كله من القطع الرخام الملونة الصغيرة فكانت على تناسب أوضاعها واتقان صنعها وترتيب أشكالها معجزة من معجزات الصناعة ومثله المنبر الذى أقيم في جانبه وعلى نمطه ايضاً

وصناعة الزجاج وهي اليوم متدنية جداً لاتتعدى صنع القوارير الساذجة

ومعاملها موجودة في دمشق وغيرها

وصناعة الحبال المتخذة من قشر القنب وهي مترقية عظيمة الخطر وتوجد مصانعها بكثرة في دمشق وتصنع مع الندرة في بيروت وحماة

وصناعة النحاس ونقشه نقوشا ناتئة ومحفورة وكانت فقدت منذ خمسين سنة ثم عادت الآن بسبب كثرة رغبات الاوربيين بالآنية النحاسية التي من هذا النوع

وصناعة الصاغة وهي الآن مترقية في معظم المدن السورية

وصناعة أدوات الخيل وهي الآن مترقية وقد تناولت كثيراً من الصناعات كصناعة الهميانات والصناديق الجلد وغيرها : فهذه الصنائع الباقية الى الآن في سورية ويوجد غيرها أيضاً مما لا أهمية لذكره وأما الصنائع التي اندثرت وإنما تدل عليها آثارها فهي صناعة القيشاني وكانت خاصة بدمشق والموجود منها لهذا العهد في بعض المنازل والحمامات والجوامع يدل على ترقي هذه الصناعة في العصور المتأخرة ترقيا عظيما خصوصاً في القرن التاسع والعاشر الى الثاني عشر وفي جامع الشيخ محيي الدين العربي في الصالحية الذي ابتناه السلطان سليم العثماني في أوائل القرن العاشر نوع منه بلغ الغاية في الاتقان ودقة الصنع وبهاء اللون وتناسق النقوش وكذلك الموجود في جامع الدرويشية وتاريخ صنعه المكتوب عليه هو سنة (٩٨٣ هـ) والموجود في جامع السنانية وتاريخ صنعه المكتوب عليه هو سنة (١٠٠٠ هـ) وقد دثرت هذه الصناعة في القرن الماضي لانحصارها في عائلة واحدة ضن آخر فرد منها بتعليم هذه الصناعة لاولاده ومات فماتت معه والخبر عن هذا متواتر مستفيض الى اليوم عند الدمشقيين [illegible]

الصناعة فارسية بدليل نسبتها [illegible]

وصناعة الخزف وقد كانت أيضاً في أعلى طبقة من الدقة وتدل آثارها على أنها كانت مرتقية في القرون الوسطى والمتأخرة الهجرية وانما عرفنا ذلك بمشاهدة قطع من مصنوعات الخزف استخرجها الدكتور (هوردوشانو) من التل المعروف بتل الباب الشرقي خارج دمشق لما اشترى من الحكومة هذا التل وأزاحه من بضع عشر سنة فوجدناها تشابه ما اكتشفته جمعية البعثة الأثرية الفرنساوية في مصر من القطع والآنية الخزفية المصنوعة في عهد الفاطميين والچراكسة [1] وقدشاهدت بعض هذه القطع المصريه عندصديق لي الماني وعليها اسم العامل بالعربية إلا أني لم أعثر في القطع الدمشقية على اسم للمعمل ولا العامل وأنا أبحث الآن عن ذلك فاذا عثرت على شيء من هذا القبيل ربما أعود لذكره في مكان آخر على وجه التفصيل

صناعة الفسيفاء وهي قطع صغيرة من الزجاج الملون والمذهب تنقش بها الجدران بأن ترصف على طبقة من الجبس على اشكال شتى جميلة الصنع والترتيب تمثل الانهار والاشجار والابنية الجميلة وهي من انفس الصنائع التي وجدت بدمشق وهي من مخترعات الروم بدليل ان الوليد بن عبد الملك لما ابتنى الجامع الاموي بدمشق استجلبها من القسطنطينية ورصف جدرانه كلها بالفسيفاء على اشكال شتى تمثل الجامع والاشجار والازهار ولكثرة ماطرأ على الجامع من الحريق تساقطت عن جدرانه الفسيفاء إلا قليلا منها في الحائط المقابل للمنبر في الحرم الداخلي والحائط الغربي والشمالي في الحرم الخارجي فاما ما كان منها على الحائط الداخلي فقد تناثر بعضه في الحريق الذي حدث منذ بضع سنين واما ما كان

(١) راجع مذكرات البعثة الأثرية الفرنساوية المطبوعة باللغة الفرنساوية في عدة مجلدات

منها في الحرم الخارجي فقد أدركته في طفولتي وقد تشعثت القناطر الحاملة للجدار ولما أريد ترميمها اقتلع ماعليها من الفسيسفاء إما عمداً عن جهل بقيمته الأثرية واما اضطراراً فكان يجمعه الاولاد وخدمة الجامع يومئذ و يبيعونه للسياح .والظاهر أن صناعة الفسيسفاء استمرت في الشام الى مابعد القرن السابع بدليل مايشاهد منها في جدران بعض جوامع حلب وجامع الملك الظاهر بيبرس بدمشق إلا أن القطع غير متماسكة في التركيب ولا منتظمة في الرصف وليس لها من بهاء الصنع ودقة التناسب في النقش ما كان لمثلها في الجامع الاموي وهو يدل على انحطاط صناعة النقش بالفسيسفاء يومئذ انحطاطاً انتهى الى تركها بتاتاً

وصناعة السيوف الدمشقية وقد كان يتنافس بها و يضرب المثل بلين متونها ومضائها وقد دثرت منذ أجلى تيمورلنك صناعها معه الى سمر قند على أنه لم تزل الى هذا العهد صناعة الاسلحة والسيوف موجودة بدمشق وغيرها من مدن سورية الا أنها منحطة عن مرتبتها الاولى

وصناعة الأثواب البيض المعروفة (بالخام الصالحاني) وكانت خاصة بدمشق وبعض قرى جبل قلمون ولم يبق لها اعتبار منذ كثر توارد البضائع الافرنجية التي من نوعها الى سورية وكان من بضع سنين شيخ في صالحية دمشق ومن أرباب هذه الصناعة طاعن في السن قد بلغ من الكبر عتيا يقول إن الصالحية منذ أربعين سنة فصاعداً كانت منازلها كلها أشبه بمعمل واحد يحوك أهله تلك الأثواب البيض من القطن المغزول بالشام وان أهل الصالحية جميعهم كانوا في تنعم وغنى زائد من ثمرات هذه الصناعة فأصبحوا الآن في ضنك وعسر لفقدها منهم أو لعدم الحاجة اليها

وقال ذلك الشيخ إنه أدرك سوق دمشق وكل سوق منه لأرباب

صناعة مخصوصة كسوق الشماعين واللبادين والغلايينية [1] والخرّاطين وسوق السلاح والعلبية وسوق المراياتيه والقبارين وغير ذلك من الاسواق التي لم يبق لصنائع أهلها إلا رسم دارس وعهد طامس اللهم الا العلبية والخرّاطين فقد بقيت منهم بقية الى الآن لعدم استغناء البلاد عن صناعتهم لهذا اليوم

ومن الصنائع النفيسة التي فقدت من دمشق وكانت خاصة بها صناعة الدهان المعرف عند الدمشقيين (بالعجمي) وهو بأن ينقش باطن سقف الغرفة والجدران المبطنة بالخشب بالجبس الناتئ على أشكال بديعة ويذهب بعضها وبعضها يلون بألوان غير زاهية وهي من أدق الصنائع النفيسة وأجملها وكان لهذا النوع تركيب مخصوص من الدهان بحيث يستمر لونه لامعاً ذا بهاء ورونق مهما تطاولت عليه السنون و يوجد لهذا العهد كثير من آثار هذه الصناعة في منازل دمشق ومنها ماهو موجود في منزل أسعد باشا العظم الذي يقصده السياح للفرجة وفي منزل عبد الله باشا ومنزل المرادي ومنها مامضى على بنائه لهذا اليوم نحو مائة وخمسين سنة ولم يزل الدهان الذي فيه زاهياً جميلا كأنما صنع بالامس. والظاهر أن فقد هذه الصناعة من دمشق قريب عهد لوجود بعض آثاها التي لم يمض عليها الى اليوم أكثر من ستين سنة وإنما أهملت في السنين المتأخرة لكثرة ماتحتاج اليه من النفقات التي لاتحملها الآن أهل الترف والبذخ للفقر الذي ألم بالبلاد منذ انحطت فيها أسباب المكاسب وقد تقدم القائمون ببناء الجامع الاموي لهذا العهد بعد الحريق الذي طرق عليه الى بعض الدهانين الطاعنين في السن الذين يعلمون شيئاً من هذه الصناعة بدهن السقفين اللذين يليان القبة من الجنوب والشمال بذلك الدهان فأتقنوا صنعه الا أنهم أدخلوا فيه بعض الالوان

(١) صناع الغلايين التي يستعمل بها التبغ

الزاهية تخالف اصل الصنة إلا انه جاء جميلا وافيا بالغرض لاعيب فيه

هذا ما اردنا بسطه عن حالة سورية الصناعية والاجتماعية وبقي لنا كلام عن حالتها لهذا العهد من حيث الترقي او الانحطاط سواء كان في العلوم والمعارف او في الصناعة والزراعة ودرجة ثروة البلاد من هذه الاشياء ومراتب اهل مدنها منها وعدد نفوسها والسكك الحديدية التي أنشأتها الشركات الاجنبية فيها الى غير ذلك مما يتعلق بالحالة الاجتماعية على العموم في هذه البلاد وبما انها تابعة في هذا كله الى المملكة العثمانية فقد ارجأنا الكلام على ذلك الى الاجزاء التالية التي نخصصها لرجال الدولة العثمانية ونتكلم فيها عن هذه الدولة التي نضرع الى الله تعالى ان يؤيدها بروح القوة والعلم ويصونها عن الزوال بأن يرشد رجالها الى طرق الخير وينزع من نفوسهم حب الشهوات ويزرع فيها حب الملة والوطن لينقذوا الأمة العثمانية من خطر الانحطاط الى دركات الضعف والاضمحلال التي اشرفت عليها لهذا العهد وكاد اليأس من سلامة استقلالها يستولى على نفوس العقلاء من افرادها الذين بقي فيهم ذماء من الحياة وأثر من الشعور فباتوا يتقلبون على مضاجع الآلام وتساورهم الهموم الجسام ولا سبيل لهم الى إصلاح الحال وتدارك خطر المآل لانهم اذ نصحوا رموا بالخيانة واذا صدقوا خرجوا في عرف الجهلاء من عبد الامنة وهي حنة يارباه تؤذن بتسفل الاخلاق وضعف العقول وموت لوجدان فأنقذنا اللهم بفضلك منها وارشدنا للتبرئ من عارها الذي جعلنا عبرةً في الآخرين والعوبة في ايدي الغربيين انك مجيب الدعاء

باب

فتح العراق وفارس

(انتداب أبي عبيد ووقعة الجسر وغيرها)

تقدم معنا أن أول عمل عمله عمر (رض) في خلافته هو إجلاء أهل نجران وعزل خالد بن الوليد وانتداب الناس لحرب الفرس فأما الخبر عن الامرين الأولين فقد بسطناه فيما سبق واما الخبر عن حرب الفرس فذلك أن المثني ابن حارثة الشيباني الذي خلف خالد بن الوليد على حرب العراق وفد على أبي بكر في حال مرضه ليفاوضه في شأن الهجوم على بلاد فارس ماداموا مختلفين بينهم على من يولونه الملك بعد شهريراز الذي أدّى موته الى تملك سابور ثم قتله وقيام آزرميدخت ثم بوران إلا أن أبا بكر رضي الله عنه لم يسعه إجابة طلب المثني لمرضه فأوصى عمر بن الخطاب (رض) أن ينتدب الناس بعد توليه منصب الخلافة مع المثني بن حارثة لحرب الفرس فقام عمر في صبيحة اليوم الذي دفن في ليلته أبو بكر وانتدب الناس لقصد العراق فلم ينتدب له أحد لأن وجه فارس كان أكره الوجوه الى المسلمين وأثقلها عليهم لشدة سلطانهم وشوكتهم وقهرهم الأمم فلما كان اليوم الرابع عاد فانتدب الناس وتكلم المثني ابن حارثة فقال يهون على المسلمين خطب الفرس

يا أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فانا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقي السواد (يعني الشق الغربي الذي هو العراق العربي) وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها ان شاء الله ما بعدها اهـ

وقام عمر (رض) في الناس فقال

ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النُّجعة [1] ولا يقوى عليه اهله الا بذلك اين الطُرّاء المهاجرون عن موعود الله سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فانه قال (لِيُظْهِرَهُ على الدّين كلّه) والله مظهر دينه ومعز ناصره ومولي اهله مواريث الأمم . اين عباد الله الصالحون اه

فكان اول منتدّب ابو عبيد بن مسعود الثقفي وثنى سعد بن عبيد وسليط ابن قيس فلما اجتمع ذلك البعث قيل لعمر امّر عليهم رجلا من المهاجرين والانصار فأبى وقال ان من سبق الى الدفع واجاب الى الدعاء اولى بالرياسة ثم امّر اباعبيد على الجيش وقال له : اسمع من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم واشركهم في الامر ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين فانها الحرب والحرب لا يصلحها الا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف [2] ولم يمنعني ان أؤمّر سليطا الا سرعته الى الحرب وفي التسرع الى الحرب ضَياع الا عن بيان والله لولا سرعته لأمّرته ولكن الحرب لا يصلحها الا المكيث

خرج أبو عبيد في آخر جمادي الأولى و أوائل جمادي الثانية سنة (١٣ هـ) ومعه سعد بن عبيد وسليط بن قيس أخو بني عديّ بن النجار والمثني بن حارثة الشيباني فتقدمهم المثني الى الحيرة وكان استقر من فارس ابوران فاستدعت رستم من خراسان وتوجته وجعلت اليه حماية البلاد وسلمته قيادة الجند فكتب رستم الى دهاقين السواد ان يثوروا ودس في كل رستاق رجلا ليثوربأهله وبعث جنداً لمصادمة المثني وبلغ المثني ذلك فضم اليه مسالحه واجتمع اليه المسلمون فساربهم الى خفان ونزلها حتى قدم ابو عبيد وكان اول من سار من الدهاقين جابان في فرات

(١) النجعة طلب الكلأ (اي المرعى) في موضعه كما في القاموس

(٢) يعني الرجل المتأني الذي يعرف ساعة العمل فيعمل وساعة الكف فيكف

بادَقلَى فسار اليه ابو عبيد فالتقوا بالنمارق وتقاتلوا فهزم اهل فارس

﴿ موعظة ﴾

لما انهزم الفرس أُسر جابان اسره مَطَر بن فِضَّة التّيمي فخدعه جابان بان وعده بشيءً يعطيه له فأمنه وخلّى عنه فاخذه المسلمون فأتوا به ابا عبيد واخبروه انه الملك واشاروا عليه بقتله فقال : اني اخاف الله ان أقتله وقد آمنه رجل مسلم والمسلمون في التوادّ والتناصر كالجسد ما لزم بعضهم فقد لزم كلهم : فقالوا له انه الملك وانه هو الذي حاربنا : قال وان كان لا أغدر فتركه

انظر رحمك الله الى هذا الامير العظيم النفس الصادق الايمان الذي ملك ناصية عدوه الذي غدر بالمسلمين وأثار عليهم ثائرة البلاد وقابلهم بنكران الجميل وخرق العهد فابى ان يقتله لعهد سبق له من فرد من افراد المسلمين الذين بلغ بهم التناصر والتواد يومئذ ان اميرهم يقوم بحق صغيرهم ويلتزم بما التزم به حقيرهم فأين تلك النفوس البارة والاخاء المتوثق والوجدان الحساس والتناصر النافع مما طرأ بعد ذلك على المسلمين من فساد الاخلاق وضعف اليقين وانحلال عرى الاخوة حتى باتوا البًا على بعضهم وحربا على انفسهم يتمزقهم الاعـداء ويتغلب عليهم الفاتحون وأمراؤهم في تناكر وتخاذل يتربص بعضهم أذى بعض ويتمنى احدهم زوال ملك اخيه انفراداً باسم الرياسة وطاعة لهوى النفس الشريرة وما يتمنون في الحقيقه الا زوال ملك الاسلام وما يطيعون الا شيطان الخذلان

اللهم قد انفرجت بيننا وبين السلف مسافة الخلف وصوّح نبت الاسلام وتناكرت النفوس وتقطعت اسباب الاخاء وانحطت اخلاق الامراء وتفشى الجهل في قصور العظماء وتنوسيت اصول الدين وغلبت الشهوات وتغلب علينا الأمم وحسبنا من جزائك العادل ما لقيناه من جور امرائنا وتحكم اعـدائنا

فاهدنا من الحق والعلم صراطاً نخلص به الى طاعتك فيما أمرت فنوثق عرى الاخاء وننبذ من كانوا سبب التقاطع والشحناء ونجدد عهد التألف ونتمسك باسباب التناصر والتكاتف انك مجيب الدعاء

﴿ عود الى خبر ابي عبيد ﴾

انهزمت جنود جابان من النمارق ولحقت بكسكر حيث يخيم قائد اسمه نرسي من الأسرة الكسروية فأمر أبو عبيد بالرحيل ورحل بجنده حتى نزل بكسكر وكان أهل كسكر وماحولها من البلاد ينتظرون مجيء الجالينوس مدداً لهم من قبل رستم فعاجلهم أبو عبيد والتقوا بمكان يدعى السقاطية فاقتتلوا قتالا شديداً فانهزم الفرس وهرب قائدهم نرسي وغلب على عسكره وأرضه وأقام أبو عبيد وسرح القواد لاستخضاع من حوله من أهل السواد فجاء فرُّوخ وفرَوَنْداذ المثني بن حارثة وطلبا منه الجزاء والذمة عن باروسما ونهر جوبر فأبلغهما أبا عبيد فصالحاه على شيء معلوم

﴿ موعظة أخرى ﴾

لما تم الصلح بين أبي عبيد وبين فروخ وفرونداذ جاء آه بآنية فيها انواع أطعمة فارس من الالوان والاخبصة وغيرها فقالوا هذه كرامة أكرمناك بها وقرى لك: قال: أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله: قالوا: لم يتيسر ونحن فاعلون: فقال أبو عبيد فلا حاجة لنا فيما لايسع الجند فردوه وخرج حتى نزل باروسما فأتاه الانْدَرْزَغَر بمثل ماجاء به فروخ وفرونداذ: فقال لهم: أأكرمتم الجند بمثله وقريتموهم: قالوا لا: فرده وقال لاحاجة لنا فيه بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوماً من بلادهم اهراقوا دماءهم دونه [illegible] فاستأثر عليهم بشيء يصيبه [illegible]
لا يأكل مما أفاء الله عليهم [illegible]

هكذا كان الامراء وقادة المسلمين يفعلون وبمثل هذه الاخلاق يمتازون وبحب المساواة مع عامة الناس في السراء والضراء يوصفون وبمثل هذه الخصال الجميلة يسودون لا بالاستئثار بفي المسلمين ولا بالترفع عن عامة المؤمنين ولا باستلاب مال البلاد التي أحرزها المجاهدون بسيوفهم واسالوا على جوانبها دماءهم

وهذا المبدا الذي تأسس عليه الاجتماع الاسلامي منذ نبت الاسلام في ارض العرب هو مبدا الاشتراك المعقول الذي يخبط للوصول اليه زعماء هذا المذهب لهذا العهد خبط عشواء لضلالهم عن طريقه المستقيم وغلوّهم فيه غلوّ الجاهل بخوافيه اذ فاتهم ان البداوة وسذاجة الفطرة اصل في قبول الخير والشر وان الانسان اذا افسدت الحضارة نحيزته واخذ حب البذخ بمجامع قلبه استحال تقويم اود نفسه وارجاعه عن غلوائه والاقلال من أثرته وكبريائه والاخذ على ايدي قادته وزعمائه مالم يكن هؤلاء هم المربون لشعوبهم القائمون على تقويم اخلاق من دونهم لهذا كان زعماء الامـة وخلفاؤها في صدر الاسلام قدوتها الصالحة في تربية تلك النفوس الساذجة على مبدا حب العدل والمساواة ومشاطرة الخير والشر والكف عن الشهوات وعن حب الأثرة بالغنى والجاه والفخفخة الباطلة كما رايت في قصة ابي عبيد (رض) وبلغ بعمر بن الخطاب (رض) بغضه بداء حب الأثرة وكرهه لاكتناز البعض للمال دون البعض الآخر ان كان يحصي مال عماله قبل ان يسند اليهم الامارة لكي يناقشهم الحساب بعد ذلك عما يزيد عن مقتناهم من المال قبل الامارة ويصادرهم عليه ثم يرده على المسلمين وبلغ علي بن ابي طالب رضي الله عنه فى خلافته ان عاملا من عماله اسرف في جمع المال ومال الى التنعم وحاد عن سبيل القصد فكتب اليه كتاباً طويلا مما جاء فيه قوله

ايها المعدود كان عندنا من ذوي الألباب كيف تسيغ شرابا وطعاما وأنت

تعلم انك تأكل وتشرب حراما وتبتاع الاماء وتنكح النساء من مال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين الذين افاء الله عليهم هذه الاموال واحرز بهم هذه البلاد . فاتق الله واردد الى هؤلاء القوم اموالهم فانك ان لم تفعل ثم امكنني الله منك لاعذرن الى الله فيك ولاضربنك بسيفي الذي ما ضربت به احداً الا دخل النار الخ

فاين هذا الخليفة في مشربه القويم ومذهبه المستقيم في تأديب العمال بأدب نفسه وحملهم على طريق القصد وعدم السَرَف في اموال العباد ممن يربّي عماله على العكس من ذلك ويطلق يدهم في اموال الناس بل ويحكمهم في رقاب الرعية ويدني فاجرهم منه ويقصي عفيفهم عنه وكيف يقوم للقائلين بهذا المذهب الآن قائمة بين اقوام أمات شعورهم الاستغراق بالترف وقتلهم الخنوع للشهوات : ان هذا لا يتيسر الآن الا اذا صبغ اديم الارض بنجيع الانسان وتبدل الاشرار بالاخيار وذلك امر بعيد

﴿ عود الى خبر أبي عبيد ﴾

رحل ابو عبيد من السقاطية وقدم المثنى في تعبيته حتى قدم الحيرة وكان الجالينوس رجع الى رستم ومن أفلت من جنوده واستحثه على مقابلة المسلمين فوجه بهمن جاذويه ورد الجالينوس معه فاقبل بهمن جاذويه ومعه راية كسرى (دِرَفشْ كابيان) وكانت من جلود النمر [1] وأقبل ابو عبيد حتى نزل بالمروحة على

(١) لهذه الراية قصة عجيبة جاءت في اخبار الفرس وملخصها ان احد ملوك الفرس جار على رعيته واسترسلت حكومته في الظلم الى حد لايطاق فقام من رعيته يوماً رجل حداد خامل بين قومه عظيم في نفسه فخرج من حانوته ورفع على عصا صوية الجلد الذي يربطه الحداد عادة في وسطه ونادى في الناس من لا يطيق الظلم فليتبعني فتبعه عامة الناس فقتلوا ذلك [illegible]

صفة النهر المقابلة للضفة التي فيها معسكر الفرس وتسمى قس الناطف فبعث اليه بهمن جاذويه إما ان تعبروا الينا وندعكم والعبور وإما أن تدعونا نعبر اليكم فأشار عليه الناس بعدم العبور وكان من اشدهم إلحاحاً عليه بعدم العبور سليط بن قيس فابى قبول اشارتهم وترك الرأي وقال لا يكونوا أجرأ على الموت منا وعبر ومعه المسلمون وكان الفرس في عدة لم يرَ مثلها المسلمون

وهذا وان يكن اقدام من ابي عبيد رضي الله عنه وشمم وشجاعة لا يصدران عن غيره الا انه خطأ وقع فيه لامر يريده الله وكانت عاقبة هذا الخطأ ان قُتل ابو عبيد اذ هجم على فيل من الافيال وضربه فخبطه الفيل وكانت اسرعت السيوف في اهل فارس واشرفوا على الهزيمة فلما خُبط ابو عبيد وقام عليه الفيل جال المسلمون جولة ثم انهزموا وركبهم الفرس فبادر رجل من ثقيف الى الجسر فقطعه قصد إرجاع المسلمين عن الهزيمة فانتهى الناس اليه والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا في الفرات ولما رأى المثني بن حارثة ذلك البطل الجليل هذا الحال بادرهو ونفر من الشجعان فحمى الناس حتى عقدوا الجسر وعبروهم ثم عبروا في آثارهم فأقاموا بالمروحة والمثني جريح وهرب الناس على وجوههم وقتل سليط بن قيس الذي نصح ابا عبيد على عدم العبور وبقي المثني في جمع قليل . ولما انتهى الخبر الى عمر بن الخطاب اشتد عليه الامر وبلغه ان بعض الفارين آوى الى المدينة فخطب فقال : عباد الله اللهم ان كل مسلم في حل مني انا فئة كل مسلم يرحم الله ابا عبيد لوكان عبر فاعتصم بالخَيف او تحيز الينا ولم يستقل لكنا له فئة :

واذ كان المسلمون يعلمون ان الفار من القتال آثم لقوله تعالى في الكتاب

فاتخذوا ملوكها راية الحداد شعاراً لهم ثم جعلوها من جلود النمر وسموها درفش كابيان وكانوا لايخرجونها الا حين الحاجة القصوى

الكريم (ومن يُوَلِّهم يومئـذ دُبُرَهُ الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئةٍ فقد باء بغضبٍ من الله) الآية فقد ندم المسلمون واستحيوا من الفرار وجزع المهاجرون والانصار جزعاً شديداً ولما رأى عمر رضي الله عنه جزعهم قال : لا تجزعوا يا معشر المسلمين انا فئتكم انما انحزتم الي : و بلغ الجزع بمعاذ القارئ احد بني النجار أن كان اذا قرأ هذه الآية بكي فيقول له عمر : لا تبك يا معاذ انا فئتك وانما انحزت الي : وذلك تخفيفاً لروعـه ودفعاً لجزعه فرحم الله تلك النفوس الطاهرة ما أخوفها من الله وأشدها تمسكاً بالكتاب وأجزعها من الوقوع في الخطأ ورضي عن عمر ابن الخطاب ما أرحم قلبه وأعظم على المسلمين حنانه

كانت جنود الفرس عقب وقعة الجسر حاولت العبور الى الضفة الثانيـة ومطاردة المسلمين ولكن من عناية الله بالمثني ومن بقي معه من الجند القليل جاء الفرس ماشغلهم عن العبور اذ وصلهم الخبر أن الناس بالمدائن قد ثاروا برستم وانقسموا قسمين قسم معه وقسم مع الفيرزان فتمكن المثني من جمع القبائل التي حوله وأمده عمر (رض) بجرير بن عبد الله البجلي وقد كان قومه اوزاعاً متفرقين في قبائل العرب فجمعهم له عمر وأمره عليهم وبعث عصمة بن عبد الله من بني عبد بن الحارث الضبي فيمن تبعه من بني ضبة وكتب الى أهل الردة فلم يوافه منهم احد الا رمى به المثني وكان ممن قدم على عمر رضي الله عنه بنو كنانة وطلبوا ن يوجهوا الي الشام فقال لهم ذاك أمر قد كفيتموه عليكم بالعراق واستقبلوا جهاد قوم قد حووا فنون العيش لعل الله ان يورثكم بقسطكم من ذلك فتعيشوا مع من عاش من الناس فقام غالب بن فلان الليثي وعرفجة البارقي وقال كل واحد منهما لقومه يا عشيرتاه اجيبوا امير المؤمنين الى ما يرى وامضوا له فأجابوا الى ذلك فدعا لهم عمر بخير وامر على بني كنانة غالب بن عبد الله وعلى الازد عرفجة بن هرثمة

وسرحهم فخرج هذا في قومه وهذا في قومه حتى قدما على المثني

وقدم على عمر (رض) هلال بن علفة التيمي فيمن اجتمع اليه من الرباب فوجهه وقدم عليه المثني الجشمي جشم سعد فأمره على بني سعد وسرحه وجاء اليه ربعي في ناس من بني حنظلة فأمره عليهم وخرجوا حتى قدم بهم على المثني ابن حارثة فراس بعده ابنه شبث بن ربعي وقدم على عمر غير هؤلاء من زعماء العرب فوجههم الي المثني

وكان الفرس لما احسوا باجتماع العرب وبكثرة من جاء من النجدة للمثني ابن حارثة جمعوا كتائبهم وجاء الفيرزان ورستم الى بوران واخبراها انهما اتفقا على ان يرسلا الى قتال المسلمين مهران بجيش كثيف واستأذناها بذلك ثم بعثا مهران بجنده حتى نزل من دون الفرات والمثني وجنده في محل يدعى البويب على شاطئ الفرات الآخر وكانت الجنود اليه متواصلة وجاءه انس بن هلال النمري ممداً في اناس من نصارى النمر وقدم عبد الله بن كليب التغلبي المعروف بمردى القمد في ناس من نصارى تغلب فلما راوا نزول العرب بالعجم قالوا نقاتل مع قومنا وانضموا في جند المسلمين ولله ما تفعل الجامعة القومية في النفوس

لما اجتمعت جموع العرب والفرس بعث مهران الى المثني إما ان تعبروا الينا واما ان نعبر اليكم فقال المسلمون اعبروا الينا فعبروا اليهم وجاؤهم من قبل نهر بني سليم في صفوف ثلاثة ولهم ضوضاء وزجل فقال المثني للمسلمين ان الذي تسمعون فشل فالزموا الصمت ثم تقدم اليهم المثني وعلى مجنبتيه بشير وبسر بن ابي رهم وعلى مجردته المعنى وعلى الرجل مسعود بن حارثة وعلى الطلائع النسير وعلى الردء مذعور وكان على مجنبتي مهران الآزاذبه مرزبان الحيرة ومردانشاه ثم

خروج المثنى يتعهد صفوف المسلمين ويحضضهم (1) ويأمرهم بأمره ويهزّهم
بأحسن ما فيهم تحضيضاً لهم ولكلهم يقول اني لأرجو أن لا تؤتى العرب اليوم من
قبلكم والله ما يسرني اليوم لنفسي شيء الا وهو يسرني لعامتكم فيجيبونه بمثل
ذلك وأنصفهم المثنى في القول والفعل وخلط الناس في المكروه والمحبوب فلم
يستطع أحد منهم أن يعيب له قولا ولا عملا لاسيما وانه كان على شرفه وعلو منزلته
شجاعاً ميمون النقيبة فكان المسلمون يحبونه ويعجبون بقيادته كما يعجبون
بقيادة خالد بن الوليد

ثم ان المثنى كبر وكبر المسلمون وكان واعدهم بالهجوم عند رابع تكبيرة
فعاجلهم الفرس من الأولى وخالطوهم والتحم القتال وجعل المثنى كلما رأى خللا في
صف من صفوفه يرسل لاهل الصف رجلا يقول ان الامير يقرأ عليكم السلام
ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم فيقولون نعم ويعتدلون ولما طال القتال واشتد
حمل المثنى وحمل معه انس بن هلال ومِرْدَى الفهر وقصد المثنى مهران فأزاله
حتى دخل في ميمنته واضطربت صفوف الاعاجم وأتى غلام نصراني من تغلب
مهران فقتله ثم استوى على فرسه وتضعضع الفرس فانهزموا وبادرهم المثنى الى
الجسر فمنع مرورهم منه فهربوا مصعدين ومصوبين والسيوف تأخذهم من كل
جانب وكان ذلك بحسن قيادة ذلك البطل الجليل المثنى بن حارثة الذي أظهر
من البراعة والشجاعة في هذه الوقعة ما يخلد له طيب الذكر الا أنه أظهر يومئذ
ندمه على أخذه بالجسر وقال: لقد عجزت عجزة وفي الله شرها بمسابقتي اياهم الى
الجسر وقطعه حتى أحرجتهم فاني غير عائد (يعني الى مثل هذا الخطأ) فلا تعودوا
ولا تقتدوا بي ايها الناس فانها كانت مني زلة لا ينبغي احراج احد الا من

---

(1) حضضهم كحضهم اي حثهم وحرضهم عليه كما في القاموس

لايقوى على امتناع: هذا من حسن بصيرته وسديد رأيه وانابته للحق رضي الله عنه

ومات من أعلام المسلمين ممن كانوا جرحوا في هذه الوقعة ناس منهم خالد ابن هلال ومسعود بن حارثة اخو المثني فصلي عليهم المثني وقال والله انه ليهون على وجدى (اي اسفه وحزنه) ان شهدوا البويب . اقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكلوا . وان كان في الشهادة كفارة لتجوز الذنوب

وكان اشد الناس بلاء في هذه الحرب من شهدوا وقعة الجسر مع ابي عبيد لاستحيائهم من الفرار في تلك الوقعة ولما انهزم الفرس في البويب انتدب المثني جرير بن عبد الله البجلي لعبور الفرات وتتبع الفارين فانتدب معه من شهدوا وقعة الجسر وغنموا غنائم كثيرة وعادوا

﴿ شجاعة النساء المسلمات ﴾

ذكر ابن جرير الطبري ان المثني وعصمة وجريراً اصابوا في أيام البويب غنما ودقيقاً وبقراً فبعثوا بها عيالات من قدم من المدينة وقد خلفوهن بالقوادس والى عيالات اهل الايام قبلهم وهم بالخيرة وكان دليل الذين ذهبوا بنصيب العيالات الذين بالقوادس عمرو بن عبد المسيح بن بقيلة فلما رفعوا (اي ظهروا) للنسوة فرأين الخيل تصايحن وحسبنها غارة فقمن دون الصبيان بالحجارة والعمد فقال عمرو بن [illegible] : هكذا ينبغي لنساء هذا الجيش : وبشروهن بالفتح: وكان على الخيل التي [illegible] ([illegible]) النسير وقاد في خيله حامية لهم

ولا جرم لم يكن جيش المسلمين [illegible] بشجاعة نسائهم وامكان دفعهن [illegible] تركوهن [illegible] وتقدموا هم حرب الفرس وقد رأيت كيف كان [illegible] مع الرجال وكذلك قاتلن في [illegible] جرحى [illegible] حرب [illegible] جراحهن ويمرضن

ذكر الطبريّ في معرض كلامه على فتح ميسان ان المغيرة سار الى اهل ميسان وخلف الاثقال فلقي العدو دون دجلة فقالت اردة بنت الحارث بن كلدة (طبيب العرب المشهور) لو لحقنا بالمسلمين فكنا معهم (اي عوناً لهم) فاعتقدت لواء من خمارها واتخذ النساء من خمورهن رايات وخرجن يردن المسلمين فانتهين اليهم والمشركون يقاتلونهم فلما رأى المشركون الرايات مقبلة ظنوا ان مدداً اتى المسلمين فانهزموا واتبعهم المسلمون فقتلوا منهم عدة وهذا العمل من النساء المسلمات لعمري غاية في الجراءة ونهاية في الاقدام وحق لمثلهن ان يدخلن في مصاف الرجال ويأتين بأعظم الاعمال وقد اطنب ادورد جبون في تاريخ الامبراطورية الشرقية بشجاعة النساء المسلمات التي اظهرنها على حصار دمشق ومما قاله عنهن: إن هؤلاء النساء اللاتي تعودن الضرب بالسيف والطعن بالرمح والرمي بالنبل هن اللاتي اذا وقعت احداهن في الاسر تكون قادرة على حفظ عفتها ودينها من اي انسان يريدها بسوء

ولقد صدق فيما قال والا فما كان رجالهن ان يدعوهن يخالطن الرجال في معامع الحرب والقتال ومن البديهي ان الحجاب لم يكن يمنع النساء المسلمات عن مخالطة الرجال في الحل والترحال ولكن كان لهن من الاخلاق الفطرية والعفة الاسلامية ما يغنيهن عن مثل الحجاب الثقيل الذي ابتدعه سكان المدن الاسلامية لما استغرقوا بالرفاه والترف وفسدت اخلاقهم عوضاً عن الحضارة فاذا كان لنسائنا الآن من العفة وسلامة الاخلاق وطهارة النفس وحسن التربية ما كان لتلك النساء في صدر الاسلام ساغ للقائلين بتخفيف الحجاب في هذا العصر ان يطلبوا ابراز المرأة من وراء جدر بحمى العفة والكمال ويعطونها حقوق الرجال والا فالكلام عبث لا يجدي وموقف حرج ينبغي للخروج منه

اناة و بصيرة والله اعلم بمصير الامور

﴿ عود الى خبر المثني ﴾

لما فرغ المثني من أمر البويب وتشتت جنود الفرس وعاد جرير بن عبد الله البجلي من غزاته فرق المثني جنوده في السواد وأخذ يستخضع البلاد التي عصت من قبل وكانت له وقائع كثيرة مع العرب ظفر بها المسلمون بما شاؤا من متاع ومال و بلغت غاراتهم شرقا الى قرب مدائن فارس وشمالاً الى الجزيرة فأوقعوا الرعب في قلوب الاعداء فقام الفرس لذلك وقعدوا

﴿ كلمة على دولة الفرس قبيل الفتح ﴾

ليس أضر على الأمم وأشد خطراً على استقلال الممالك من تنازع السلطة وتهافت الناس على حب الرياسة وميل الزعماء الى الاستئثار بمصالح الملك اذا ضعف جانب الممالك وتشعث بناء الدولة وقلَّ ما انتهت الدول في أواخر عهدها الى هذا الحال من تفرق الرأي وتغلب حب الذات والاستئثار بمصالح الملك ووضع رغبات الجمهور دون رغبات الافراد لا انتهى ذلك بزال ملكها وتقلص ظل سلطانها وقد كانت دولة الفرس أصيبت في أواخر عهدها بهذا الداء العضال ومرض القتال ولعله بدأ بها على عهد كسرى برويز في أواسط الجيل السادس بعد المسيح فقد ذكر المؤرخون ان كسرى هذا عسف الناس وشره الى أموال الرعية واستعمل رجلا على استخلاص بواقي الخراج فعسف الرعية وظلمهم فتغيرت قلوبهم [illegible] وتحولت نفوسهم عنه وكان قد بلغ به الامر ان اقصى أولاده في بابل ومنهم من تصرف ذهنهم عظماء المملكة ضعف سطوة كسرى وتفرق قلوب الرعية عنه فاحضروا من بابل ولده شيرويه وارغموا والده على التنازل اليه عن الملك ثم رغموا ابنه على قتله فقتله وما صفا له الملك وشعر بتفرق أهواء زعماء

سلطنته واحس بضعف نفسه اصابه وسواس افضى الى ان أمر بقتل اخوته وكانوا سبعة عشر أخا ذوي مشورة وعلم وأدب وابنه اختاه بوران وازرميدخت على فعلته فندم واصابه حزن رغم فمات دون السنة من ملكه فملك الفرس عليهم ابنه ازدشير وكان صغير السن فتكفل به أحد المتطلعين الى الرياسة من أرباب الدولة واسمه بهادرجسنس فحسده قائد جنود الثغور وامتعض من عدم استشارته في تولية ازدشير فاتخذ ذلك ذريعة الى التعنت وبسط يدالقوة وطمع في الملك فأقبل بجنده نحو المدائن عاصمة الاكاسرة فدخلها وقتل جماعة من الرؤساء وقتل ازدشير فتولى الملك بعده شهريراز وهو من غير بيت الملك ولم يمكث في الملك الااربعين يوما وقتله أشياع ازدشير فملكت بعده بوران ثم ملك بعدها رجل اسمه خشنشبنده فانكر الجند سيرته فقتلوه ثم ملكت ازرميدخت وخطبها والي خراسان فاحتالت عليه حتى قتلته فانتصر له ابنه رستم وجاء بجنده الى المدائن فتمكن من ازرميدخت وسمل عينيها ثم قتلها واقام مقامها بوران فوقع الخلف بينه وبين الفيرزان احد عظماء الدوله وتنازعا السلطة وتفشت الفوضى في الملك وظهر الخلل والضعف على الدولة ولما انتزع المسلمون منها العراق ودحر المثنى جيوش الفرس وتحفز جند الاسلام للوثوب على عرش الاكاسرة دب في عامة الشعب الفارسي دبيب الشعور بحرج الموقف الذي وقفت فيه دولته واحسوا بالخطر الذي جره عليهم امرؤهم وقادتهم فهبوا من سباتهم العميق فاقبل رجالهم وذوو الرأي منهم [illegible] الفيرزان ورستم وقالوا لهما [illegible] يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما اهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم وانه [illegible] خطركما [illegible] فارس على هذا [illegible] ويكون [illegible] وتكريت لا المدائن [illegible] [illegible]

انبدأن بكما قبل ان يشمت بنا شامت ووالله ما جر علينا هذا الوهن غيركم يا معاشر الرؤساء لقد فرقتم بين اهل فارس وثبطتموهم عن عدوهم ولولا ان في قتلكم هلاكا لعجلنا لكم القتل الساعة وائن لم تنتهوا لنهلكنكم ثم نهلك وقد اشتفينا منكم

لما سمع رستم والفيرزان ما سمعا من القوم تنبها من غفلتهما وخشيا هلاكهما فبحثا مع القوم عن رجل من آل كسرى يولونه الملك ويجمعون عليه كلمة الناس فوجدوا يزدجرد بن شهريار فى اصطخر وقد كانت امه غيبته هناك وهو طفل اشفاقاً عليه من القتل فجاؤا به وملكوه وهو ابن احدى وعشرين سنة الا انه كان ضعيف الرأي والقلب ومع هذا فقد اطاعه الناس ونبذ الرؤساء شهواتهم الخبيثة تفادياً من الخطر المحيق بالدولة فالتفوا حوله وأطاعوه وتباروا في معونته فرتبوا المسالح والجنود وشحنوا الثغور بالمقاتلة وأعدوا العدة والعديد لقتال المسلمين

استمداد المثني

ومسير سعد بن ابي وقاص الى العراق

لما بلغ المثني بن حارثة اجتماع الفرس على يزدجرد وتجهزهم لحرب المسلمين كتب الى عمر (رض) وبيناهو بانتظار الجواب كفر اهل السواد بالعهد ونقضوا ما بينهم وبين المسلمين بدسائس الفرس فخرج المثني على حامية حتى نزل بذى قار حتى جاء المسلمين كتاب عمر وفيه (اما بعد فاخرجوا من بين ظهري الاعاجم وتفرقوا في المياه التي تلي الاعاجم على حدود ارضكم وارضهم ولا تدعوا في ربيعة احداً ولا مضر ولا حلفائهم احداً من اهل النجدات ولا فارساً الا اجلبتموه فان جاء طائعا والا حشرتموه . احملوا العرب على الجد اذا جد العجم فلتلقوا جدهم بجدكم)

فلما وصل الكتاب اهتم المثنى بأمر عمر وأحسن الرأي الحربي والتدبير فنزل بذي قار وفرّق الجند على خط واحد من الجل وشراف الى غضي[1] حيال البصرى فكانوا في أمواه العراق من أولها الى آخرها مسالح[2] بعضهم ينظر الى بعض ويغيث بعضهم بعضاً أي جعلهم أشبه بحصن واحد ممتد من حيال البصرة الى شراف والجل أي من أول العراق الى آخره وهو ترتيب بلغ الغاية من بعد النظر في فنون الحرب ونظام الجيوش وتنظيم خطوط الدفاع وأعاد الفرس كذلك مسالحهم وشحنوا بالجنود ثغورهم وباتوا خائفين هائبين والمسلمون متحمسون وهم كالاسد ينازع فريسته

وأما عمر بن الخطاب فانه كتب الى عماله على العرب والكور يستحثهم على استنفار العرب وكل من له نجدة وبأس فمضت الرسل بالكتب ووافاه القبائل الى المدينة ممن كان طريقهم عليها ومن كان طريقهم على العراق انضموا الى المثنى وخرج عمر في أول المحرم سنة (١٤) فعسكر على ماء قرب المدينة يدعى صراراً والناس لايعلمون بشيء مما يريد وكانوا اذا أرادوا أن يسألوه شيئاً رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف فاذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثنوا بالعباس فسأله عثمان عما يريد وعن عزمه فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس اليه فأخبرهم الخبر ثم نظر ما يقول الناس فقال العامة سر وسر بنا معك فقال استعدوا وأعدوا فاني سائر الا أن يجيء رأي هو أمثل من ذلك ثم بعث الى أهل الرأي فاجتمع اليه

(١) في معجم البلدان جبل الوضع بادية على حدة طريق القادسية في زنة بينه وبين القرعاء ستة عشر ميلا وهو بينها وبين الرومانتين وسرف بين وقصة وقرعاء على ثمانية أميال من الاحساء وغضي تصغير غضا لعامر بن ربيعة وقيل جبل البصرة (٢) جمع مسلحة وفي اصطلاح الحرب الآن النقط العسكرية وخطوط الدفاع

وجوه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأعلام العرب فقال احضروني الرأي فاني سائر فاجتمعوا جميعا وأجمع ملؤهم على أن يبعث رجلا من الصحابة ويقيم ويمده بالجنود فان كان الذي يشتهي من الفتح فهو الذي يريد ويريدون والا أعاد رجلا آخر وندب جنداً آخر حتى يجيء نصر الله

﴿ الحكم النيابي في الاسلام ﴾

علم عمر (رض) ان مكافحة الفرس باتت أمراً حتمياً لا بد عنه وان القوة ولي مناط الظفر بدولة هي اعظم دول الارض رهبة لذلك العهد فاذا تيسر هدم بنيانها ونزع سلطانها تمهد للمسلمين سبيل السيادة على الأمم ورفعت اعلام الاسلام على صروح الملك ولما كان الخطر على المسلمين عظيما والامر جللا بعد ان هيجوا امر فارس والروم وحفظوا الدولتين القيصرية والكسروية لهذا رأي من السداد ان لا يفوته راي عامة المسلمين وخاصتهم فيمن يوليه امر هذه الحرب فاستشار العامة فأشاروا عليه بالمسير بنفسه لانهم بأميرهم ارغب ولخليفتهم اطوع واستشار الخاصة فأشاروا عليه بتسليم القيادة لغيره وبقائه في المدينة لانهم بقيمة حياته اعرف وعلى وجوده بعيداً عن ساحات القتال أحرص: وكان تخلف عن الجمع علي وطلحة رضي الله عنهما لان الاول استخلفه عمر على المدينة والثاني كان على مقدمة جيش فرأى ان لا تفوتهما الشورى فاستدعاهما وجمع الناس جميعاً وقام فيهم خطيباً وهو مستشير فقال

اما بعد فان الله عز وجل قد جمع على الاسلام اهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه اخوانا والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء اصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين ان يكونوا امرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأي منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الامر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم

الناس وكانوا فيه تبعاً لهم . ومن قام بهذا الامر تبع لأولي رايهم ما راوا لهم ورضوا به لهم .(يا أيها الناس اني انما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الراي منكم عن الخروج فقد رايت ان اقيم وابعث رجلاً وقد احضرت هذا الامر من قدمت ومن خلفت) ويعني بمن خلف علياً وطلحة لانهما لم يحضرا الراي الأول كما ذكرنا

لعمرك اي ملك في العالم يبعثه الوجدان الطاهر ان يضع نفسه عن رضى واختيار في موضع فرد من عامة رعيته ويقول كما قال عمر للمسلمين (من قام بهذا الامر فانه تبع لذوي الراي منهم فجعل نفسه تبعاً لذوي الراي وجعل المسلمين تبعاً لهم فيما يرتأون تمحيصاً للحق والراي وهذا هو الحكم النيابي الذي تقوم به سعادة الأمم ويرتفع شأن الدول ولم يتوصل اليه قوم الا بعد جهد وجهاد مع قادتهم المستبدين وامرائهم القاهرين وقد وضع أساسه الاسلام وبدأ به ابوبكر وعمر رضي به واخلاصاً لله وارشاداً للمسلمين لما ينفعهم في امر دنياهم الا ان هذا الحكم لم يدم لان العبرة باستمرار العمل والعمل لم يستمر لارتباطه بوجدان الخلفاء وإخلاصهم وعدم ارتباطه بالروابط القانونية والقيود المعروفة وتركه يترقى بطبعه بترقي الأمة وعلى مقتضى حاجة الزمان فهذا لم يستمر الا باستمرار دولة الخلفاء الراشدين مع ان حالة القوم البدوية وميلهم الفطري للحرية يقتضيان استمرار الحكم النيابي في الدول العربية ولكن رغم القوم على خلافة الفطرة البدوية منذ قامت دولة بني مروان في وسط الحالات الاعجمية وخالط خلفاؤهم الاعاجم من الفرس والروم ورأوا مبلغ تبسط يد الحكومة السلطانية في الرعية وسلطانها القاهر الذي هو فوق سلطان الوجدان وحاكم على الحرية والعقل للمحكوم منهما والنفس تتلون حينا بلون البيئة وتتبدل اخلاقها بتبدل منشئها

والمكان فراق أولئك الخلفاء سلطان الحكم المطلق وغلبوا على أمرهم بحكم الوسط فتغلبوا على حكم الفطرة وانقادوا لميل النفوس الى التبسط في السيادة حتى بلغ بعبد الملك بن مروان ان خطب يوما خطبة أشار فيها الى أن من راجعه في أمره فقد تعرض للقتال مع أن عصر بني مروان هو العصر الذي كان يرجى به استثمار البذور الديموقراطية التي بذرها الخلفاء الراشدون لاستفحال شأن الاسلام يومئذ وتفرغ الناس الى النظر في الشؤون الادارية بعد انهماكهم في الشؤون الحربية واشتغالهم بالفتح وما نخال الباعث الأمة العربية على الانقلاب لشهوات الملوك من بني مروان الا ذلك المزيج الذي تألف منه جسم المجتمع الاسلامي يومئذ وأخصهم الموالي من النبط والفرس والروم الذين كان يسميهم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه (الحمراء) ويتوقع منهم كثيراً من الشر وفي الحقيقة فقد غبت يومئذ الأمة العربية على أمرها بتفرق عصبيتها وتشتت قبائلها في فارس والروم والشام ومصر وافريقيا والاندلس فلم يفهم ذلك الفتح عن استبداد خلفائهم الذين خلا لهم الجو وتفرق عنهم أنصار الحرية الذين كان يؤمل ان يتعاهدوا ذلك النبات الطيب لانمائه فى عصر الحضارة الاسلامية واجتناء ثمراته الناشئة فبسطوا يد القوة وتبسطوا في الاستبداد ولو علموا أن الحكومة النيابية شرط في بقاء الدول وسياج للمدنية [illegible] وثبات للدول الناشئة لما نزعوا منازع جبروت [illegible] ركن الشورى [illegible] نظر الشعوب ومناط سعادة الناس حرية [illegible] حكم في دولة من الدول فقد تحصل الناس على منتهى ما يرجون من [illegible] عليهم حاكمة فيهم وليس لهم من [illegible] ذلك غرض لا [illegible] عن حوزتها ذوداً عن حوضهم وذباً عن راحة مجتمعهم

لو استمر بنو مروان سائرين على نهج الخلفاء الراشدين الواضح في حكم الناس على أصول الشورى وعدم التسلط على حرية الضمائر والافكار إذن والله لما وجد بنو العباس نصيراً لدعوتهم ولا راغباً في دولتهم وهل يلجيء الناس الى التوثب على الملوك والخروج على الدول والرغبة عنها الى غيرها الا فساد الحكم وإفساد قلوب الرعية بالتسلط الجائر والاستبداد القاهر

لعمرك لو أحسن بنو مروان السياسة والتمسوا وسائل سلامة الدولة لجعلوا لأخلافهم تلك الحكومة الديموقراطية الساذجة التي وضعها لهم الخلفاء الراشدون حكومة ثابتة الدعائم منتظمة الشؤون آخذة بأطراف الحاجة بربطها بقوانين خاصة ترسخ عليها دعامتها وتقوم بها أصولها والطريق الى هذا كان سهلا عليهم لو التمسوا اليه الحيلة باستقصاء أخبار مجاوريهم من الروم الذين قامت لاسلافهم الرومان كثير من الحكومات النيابية كانت آثارها وأخبارها معروفة لذلك الجيل من الروم محفوظة في مؤلفات القوم والذي أتاح لهم وللخلفاء الراشدين قبلهم أخذ اللازم لقيام الدول من الاصول الادارية وغيرها عن الروم والفرس (كوضع عمر (رض) للتاريخ ووضعه للدواوين على أصول الفرس والروم واتخاذ معاوية الحجاب وضرب عبد الملك النقود وغير ذلك من الامور التي لم يكن لها أثر عند العرب) كان يتيح لهم ترتيب حكومة ثابتة على أصول التجارب التي عاناها غيرهم من الامم التي سبقتهم في الحضارة لو أخلصوا النية ونظروا الى المستقبل بنظر الحكمة والروية ولو فعلوا لوضعوا لدول الاسلام أساساً ثابتاً في نوع الحكم لا يتأتى لاية دولة اسلامية بعدهم ذلك أن تضعه البتة لاسباب عديدة أهمها إلصاق الفقهاء بعد كل شيء بالدين وحظرهم على الأمة العمل بأي أمر نافع لا مسبوق للصحابة والتابعين وكان عندهم كالتنزيل لا يحيد

عنه أحد من المسلمين ولو نخر عظامهم فساد الحكم المطلق وأكل لحمهم الظلم وذهب بسلطانهم التباعد عن الانتفاع بأصول الترقي عند الأمم الأخرى كما انتفع الاربيون من المسلمين في كثير من أصول مدنيتهم السالفة أيام الحروب الصليبية وقبلها وهذا بحث طويل نمسك عنه الآن على وعد العود اليه في محل آخر ان شاء الله

﴿ عود الى خبر الشورى ﴾

لما انتهى عمر من خطبته أشار عليه طلحة وعليّ بما أشار عامة الناس ونهاه العباس وعبد الرحمن بن عوف عن هذا الرأي وقال له الثاني . أقم وابعث جنداً فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبل وبعد فانه ان يهزم جيشك ليس كهزيمتك وانك ان تقتل أو تهزم في أنف الأمر خشيت أن لا يكبر المسلمون وان لا يشهدوا أن لا اله الا الله أبداً :

ونعم هذا الراي والاخلاص من عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه اذ أن المسلمين يومئذ كانوا احوج الى حياة عمر والاسلام لم يمتد ويتأصل في الجزيرة والفتنة لم تركد فلو اصيب عمر بشيء اصدق ما قاله عبد الرحمن بن عوف لان هيبة عمر وعزيمته واناة ابي بكر قبله ورويته مهدت لمن جاء بعدهما السبيل ومكنت الاسلام والمسلمين السلطان في الارض

بينا المسلمون في المشورة وفى عمر كتاب سعد بن ابي وقاص وكان عامله على صدقات هوزن بمن تخبه له من اهل النجدة لحرب الفرس وهم الف فارس فقال بعض المسلمين لعمر (رض) قد وجدته : قال فمن : قال الاسد عادياً : قال من هو : قالو سعد : فانتهى الى قولهم فأرسل اليه فقدم عليه فأمره على حرب العراق وندب معه الناس فكان اهل اليمن ينزعون الى الشام وكانت مضر تنزع الى

العراق فقال عمر (أي لاهل اليمن) أرحامكم أرسخ من ارحامنا ما بال مُضَر لا تذكر أسلافها من اهل الشام

﴿ وصية عمر لسعد ﴾

لما امر عمر سعداً رضي الله عنهما اوصاه فقال

ياسعدُ سعدُ بني وهيب لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله فان الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن فان الله ليس بينه وبين أحد نسب الا طاعته فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الامر الذي رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منذ بعث الى أن فارقنا فالزمه فانه الامر . هذه عظتي اياك ان تركتها ورغبتَ عنها حَبِطَ عملك وكنت من الخاسرين

ثم لما اراد أن يسرحه دعاه فقال

اني قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي فانك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه الا الحق . فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به واعلم ان لكل عادة عتاداً فعتاد الخير الصبر . فالصبرَ الصبرَ على ما اصابك او نابك يجتمع لك خشية الله . واعلم ان خشية الله تجتمع في امرين في طاعته واجتناب معصيته وانما اطاعه من اطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة . وللقلوب حقائق ينشئها الله انشاء . منها السر . ومنها العلانية . فاما العلانية فان يكون حامده وذامه في الحق سواء . واما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه وبمحبة الناس فلا تزهد في التحبب فان النبيين قد سألوا محبتهم وان الله اذا احب عبداً حببه واذا ابغض عبداً بغضه .

فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك في امرك

﴿ مسير سعد ﴾

خرج سعد ومعه اربعة آلاف مقاتل منهم ثلاثة آلاف من اليمن وألف من غيرهم وكان فيهم من السراة وزعماء العرب عدد وافر منهم حُمَيْضَةُ بن النعمان البارقي وشداد بن ضَمْعَج الحضرمي وعمرو بن معدي كِرب على مَذْحج ويزيد ابن الحارث الصدائي وبشر بن عبد الله الهلالي وشُرَحبيل بن السمط الكندي واضرابهم من صناديد العرب وقادتها

وشيعهم عمر رضي الله عنه الى الاعوَص وهناك خطب فيهم خطبة أمرهم فيها بالعدل والرحمة واللين وان ينهوا شؤونهم اليه ولا يؤخروا شيئا من الشكوى عنه وستأتي الخطبة في باب خطبه ان شاء الله

سار سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه بمن اجتمع لديه من الجنود حتى نزل زرود من ارض العرب مما يلي العراق وامده عمر باربعة آلاف مقاتل ووافاه الاشعث بن قيس في الف وسبعمائة فكان عدد جيشه الذي شهد القادسية نحو ثلاثين الفاً بمن انضم اليه من جند العراق الذين كانوا مع المثنى ولما رحل سعد عن زرود كتب اليه عمر (رض): ان ابعث الى فرج [1] الهند رجلا ترضاه يكون بحياله ويكون ردءاً لك من شيء أتاك من تلك التخوم: فبعث المغيرة بن شعبة في خمسمائة فكان بحيال لابلة من ارض العرب ونزل على جرير وهو مرابط هنالك يومئذ. ولما بلغ سعد شراف نزل وكتب بمنزله الى عمر بن الخطاب (رض)

---

(١) هو الثغر وموضع المخافة ولابلة هي التي كانت ثغر العراق يومئذ لقربها من مصب الفرات في خليج فارس

فكتب اليه عمر : اذ جاءك كتابي هذا فعشر الناس وعرف عليهم [1] وأمر على أجنادهم وعبهم ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدرهم وهم شهود ثم وجههم الى أصحابهم وواعدهم القادسية واضمم اليك المغيره بن شعبة في خيله واكتب اليّ بالذي يستقر عليه أمرهم

فبعث سعد الى رؤساء القبائل فأتوه فقدّر الناس وعباهم تعبية تشبه بسائر ترتيبها تعبية الجيوش في هذا العصر وسنأتي على تفصيل الخبر عن هذا في غير هذا المحل ان شاء الله ورضي الله عن عمر بن الخطاب ما كان أعلمه بفنون الحرب وأشده احتياطاً على المسلمين وأبعده نظراً في أمور الفتح فانه ما كان يأمر أميراً بحركة ما لم يأخذ لها العدة ويسد الفروج ويستوثق من معرفة أحوال البلاد وقوة العدو ومبلغ كفاءة القواد والجنود

لما أعد سعد لكل شيء عدته وفرغ من تعبية جيشه كتب بذلك الى عمر وجاءه في غضون ذلك المعنى بن حارثة أخو المثني وزوجته خصفه التيمية بوفاة المثني ووصيته لسعد ومؤداها أن لا يقاتل سعد عدوه من أهل فارس اذا اجتمع أمرهم وملؤهم في عقر دارهم وان يقاتلهم على حدود أرضهم مما يلي أرض العرب ولما انتهى الى سعد رأى المثني ووصيته ترحم عليه وامر أخاه المعني على عمله واوصى بأهل بيته وخطب امرأته وتزوجها

وكانت وفاة المثني على أثر انتقاض جراحة كانت أصابته في وقعة الجسر الماضية واستخلف على جيشه بشير بن الخصاصية وقد كان رضي الله عنه على جانب من الشجاعة والاقدام والنظر البعيد في شؤون الحرب لايدانيه فيه الا خالد بن الوليد وكان منذ وفوده على أبي بكر في أول خلافته يهون عليه امر الفرس حتى

(١) قال في القاموس العريف رئيس القوم أو النقيب وهو دون الرئيس

ولاه قتالهم ثم ولى خالداً فقاتل تحت رايته ثم لما سافرخالد الى الشام وبقي المثني اميراً على مافتحه وخالد من ارض العراق دفعه الاقدام على ان يتوسع في الفتح ويرمي بسهم المسلمين مملكة الأكاسرة ويدوخ ذلك الملك العريض فوفد على ابي بكر في حال مرضه فلم يسعه اجابة سؤله واوصى به عمر واشار عليه بأن يرسل معه الجنود الى فتح بلاد فارس فبعث معه ابا عبيد فكان منه ما كان من الانفراد بالراي والوقوع في التهلكة وما زال المثني بعده يقاتل الفرس ويستخضع الخارجين من اهل العراق ويسعى بتثبيت دعائم الاسلام ثمة حتى وافاه سعد فوافته منيته قبل ان يراه ويحقق آماله في تدويخ بلاد الفرس فخسر المسلمون بوفاته شهماً مقداماً وقائداً عظيماً بلغ من إخلاصه ونصيحته وعلمه بفنون الحرب ان اوصي سعداً قبل وفاته بوصية وافقت راي الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاء كتابه الى سعد يوصيه به بمثل وصية المثني

واما نسبه فهو المثني بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعد بن مرة بن ذهل ابن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل الربعي الشيباني وكانت منازل قومه في العراق ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم سنة تسع مع وفد قومه فرضي الله عنه وارضاه

انتظر سعد جواب كتابه الذي بعث به الى عمر فجاءه الجواب يوصيه فيه أن لا يقاتل الفرس الا في اطراف بلاد العراق مما يلي البادية وان يلاقيهم في القادسية ويوصي جمعه بالحزم والصبر والثبات وان يتيقظ لخديعة الفرس ومكرهم وستأتي صورة الكتاب في كتبنا ان شاء الله

فرحل سعد بالناس حتى نزل بعذيب الهجانات فوافاه كتاب عمر رضي الله عنه يوصيه به وليسكن على حدود البلاد وعمن يلي امر الفرس في ميادين

القتال وعن مبلغ قوة العدو وعن منازل المسلمين ومعسكراتهم ذلك لكي يكون على بصيرة فيما يأمره به من الشؤون الحربية في تلك الأصقاع النائية عنه ثم جاءه منه كتاب ثالث يأمره فيه بالتوقف ثم كتاب رابع يوصيه فيه بالوفاء بالعهد والذمة وبان يفي بامان من يؤمّن من الاعاجم ولو بالاشارة اذا لم يفهموها وظنها أماناً وستأتي هذه الكتب في بابها الا هذا الكتاب فانّا رأينا ان نأتي به هنا لضرورة إيراده وهو بنصه (عن تاريخ الطبري)

اني قد ألقي في روعي انكم اذا لقيتم العدو هزمتموهم فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليه فان لاعب أحدمنكم أحداً من العجم بأمان أوقرفه(١) باشارة او بلسان كان لايدري الاعجمي ماكلمه به وكان عندهم أماناً فاجروا ذلك له مجرى الامان واياكم والضحك . والوفاء الوفاء فان الخطأ بالوفاء بقية وان الخطأ بالغدر هلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم واقبال ريحهم واعلموا اني احذركم ان تكونوا (أي بعدم الوفاء) شيناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم اه

﴿كلمة في التاريخ الاسلامي ورأفة عمر بالمحاربين﴾

هذا الكتاب يدلنا على امرين الامر الاول ان الرأفة في الحروب ورفع السيف عن المغلوب ليست من خصائص المدنية الجديدة في هذا العصر وحدها بل هي من خصائص الدين الاسلامي ايضاً وقد سبق بها العرب على بدوتهم سبقاً بعيداً لا يشق غبارهم فيه بقية الامم وحسبك من ذاك أن من شرط الاستئمان في الحروب القانونية عند الامم المتمدنة لهذا العهد القاء السلاح ورفع الراية البيضاء وكان شرطه عند المسلمين أهون من ذلك وهو ان مجرد الاشارة ولو

(١) قال في القاموس لاعبه اي عبث معه وقرفه بالتحريك من مقرفه والقرف بمحافظة

نشأت عن هزل او سوء تفاهم كانت تحتم على المسلم اجراءها مجرى الامان

والامر الثاني ان ما يتخرّص به بعض المؤرخين من الغربيين وما يذكرونه من المثالب الشائنة عن الفتح الاسلامي منشؤه اما الغيظ والضغينة وأما سوء الفهم المتأتي عن تشويش التاريخ الاسلامي والقاء المؤرخين من المسلمين الكلام على عواهنه وخلطهم غثه بسمينه بحيث يصعب الوقوف على مجرى الشؤون الحربية والسياسية يومئذ وتفريق الحق من الباطل ومعرفة النافع من الضار الا لمن يدقق النظر ويستقصي حوادث التاريخ استقصاء الناقد البصير وما ذلك لا لتجنب مورخي الاسلام لفلسفة التاريخ واكتفاء أكثرهم بالتافه من الحوادث وتوسعهم في اخبار الحروب الاسلامية دون الذرائع العلمية التي ترقت بها الامة في الشؤون الاجتماعية والعمرانية والسياسية حتى ان المدنية الاسلامية التي طبقت شهرتها الافاق كادت تكون مع قرب عهدها وبقاء آثارها وآثار أهلها الى الان شبه في الغموض بمدنية الامم البائدة التي ينقب الباحثون في تاريخها عن دفائنها الارضية وآثارها العافية ليقفوا على تاريخها الغابر بل بلغ غموض تاريخنا واعراض صرف مؤرخينا عن حاجات التاريخ ان احدنا لو أراد ان يعلم كيف كانت حالة قومه الاجتماعية منذ قرن مضى لا يجد الى ذلك سبيلا هذا فيما قرب عهده من العصور فما بالك بالقديم والا فأين هو لعمر ابيك التاريخ الذي يفصل لنا خبر السلف التي تتعلق بمدنيتهم الغابرة واصول معيشتهم وصنائعهم وعوائدهم وزيهم وشؤون حكومتهم المتعلقة بالادارة والقضاء والسياسة والجندية وصور تعليمهم ومدارسهم والمصانع وغير ذلك مما يتعلق بترقي هذه الامة وحالتها الاجتماعية التي دهشت اهل المغرب ايام الحروب الصليبية لما رأوا عندهم من [illegible] [illegible] وانبساطهم في العمران والقيام على شؤون

الادارة والحرب مالم يخطر لهم في بال

اللهم انا لا نرى في التواريخ الاسلامية خبراً من هذا القبيل الا بطريق العرض مستوراً في ثنايا الاخبار وربما ألم بعض المؤرخين بشيء من ذلك كالخطيب في تاريخ بغداد والمسعودي في تاريخه الكبير الا انا لسوء الحظ لم نر من هذه التواريخ الا شذرات منقولة في تضاعيف الكتب والاصل مفقود العين الا أجزاء من تاريخ الخطيب متفرقة في بعض المكاتب لا تشفي الغليل

فاذا كان هذا شأن التاريخ الاسلامي في عصور الترقي والحضارة وذلك شأن المؤرخين في اغفال تدوين المهم من أخبار التاريخ وتبسطهم في سرد أخبار الحروب فلا جرم ان يظن الجاهل والعدو ان الامة الاسلامية انما وجدت لازعاج العالم بالحرب والقتال وأن تتشوش الحقائق المندمجة في أخبار الفتح فيصعب وقوف الناس على مجرى السياسة والحرب يومئذ ومبلغ نظامهما في عصر الخلفاء الراشدين وأخصهم عمر بن الخطاب (رض) الذي يشهد ذلك القليل الذي وصلنا من اخبار سياسته انه وضع للحرب والسياسة أصولا بلغت الغاية من الرأفة والعدل لو استقصيت ودونت في كتاب على حدة وعمل بها الخلفاء والسلاطين في كل عصر واضافوا اليها ما تمس اليه الحاجة التابعة لترقي الدول والزمان لما وجد الاعداء سبيلا للقدح في الفتح الاسلامي وكذلك لو عني المؤرخون ايضاً بذكر وتدوين الوسائط المدنية في عصور الترقي الاسلامية لكانت لهذا العهد منوالا تنسج عليه الامة ومنبهاً يحرك فيها باعث الجد لاسترجاع ما فات والتوثق من حفظ استقلالها وصون حيثيتها مما هو آت

خبر القادسية وغيرها

لما انتهى سعد الى عذيب الهجانات تقدم ... زهرة بن حوية ...

القادسية[1] وجاء على أثره بعد ان ترك خيلا وجنداً تحوط الحريم فلم يجد في القادسية جنداً من الفرس فأخذ يبث السرايا للغارة والارهاب ووقف مكانه موقف المدافع تبعاً لاشارة امير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) وبعث عيونه الى الحيرة وغيرها ليأتوا له بالخبر فعادوا فأخبروه ان كسرى قد ولى رستم بن الفرخزد الارمني حربه وامره بالعسكرة فكتب بذلك الى عمر (رض) فكتب اليه عمر

اما بعد لا يكربنك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به واستعن بالله وتوكل عليه وابعث اليه رجالاً من اهل النظر والرأي والجلد يدعونه فان الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم وفلجاً[2] عليهم واكتب اليّ في كل يوم

واما رستم فانه جاء حتى عسكر بساباط بين المدائن والقادسية بمائة الف مقاتل او يزيدون كما في رواية البعض وتقدم سعد الى نفر من قادة المسلمين ذوي منظر وآراء وعليهم مهابة فبعثهم الى يزدجرد يدعونه الى الاسلام او الجزية وهم النعمان بن مقرن وبسر بن ابي رهم وحملة بن جوية الكناني وحنظلة بن الربيع التميمي وفرات بن حيان العجلي وعدي بن سهيل والمغيرة بن زرارة بن النباش وعطارد بن حاجب والاشعث بن قيس والحارث بن حسان وعاصم بن عمرو وعمرو بن معدي كرب والمغيرة بن شعبة والمعني بن حارثة فخرجوا من العسكر حتى قدموا المدائن دعاة ليزدجرد فطووا رستم حتى انتهوا الى باب يزدجرد فحبسوا ريثما جمع

---

(١) القادسية على حافة البادية وحافة سواد العراق لهذا اختارها الخليفة عمر لمقام جيش سعد تقريبا من البادية وعدم اقدام الفرس على التوغل فيها فيما لو تقهقر أمامهم جيش المسلمين

(٢) قال في القاموس الفالج الظفر والنصر

يزدجرد وجوه دولته واستشارهم فيما يجيبهم به فلما اجتمع رأيهم أذن لهم فادخلوا عليه وجرى بينه و بينهم كلام طويل سيرد معنا في سيرة سعد بن وقاص (رض) ولما لم يجب يزدجرد طلب المسلمين أرسل سعد المغيرة بن شعبة الى رستم وكان رجلا داهية ذا بصيرة ورأي الا انه أبى أن يجيب الى الاسلام أو الجزية تبعاً لرأي قومه ومشورتهم فأعان الحرب على المسلمين وكانت بينه و بين المسلمين الى أن قتل حروب شديدة انتهت بفلّ جموع الفرس في القادسية وتقدم جيش المسلمين الى عاصمة الاكاسرة كما سترى تفصيل الخبر في سيرة سعد بن وقاص ان شاء الله وكان مقام المسلمين في القادسية منذ وصلوا الى ان ظفروا شهرين

لما فرغ سعد من حرب القادسية أقام فيها بعد الفتح شهرين وكتب الى عمر فيما يفعل فكتب اليه عمر يأمره بالمسير الى المدائن فسار الى المدائن لأيام بقين من شوال سنة (١٥) وقيل (١٦) والتقى بجيش للفرس في مكان يدعى برس فهزمه فانضم الى فالة القادسية في بابل فأرسل اليهم زهرة بن الحوية فقاتلهم وهزمهم ثم سار سعد الى المدائن وهي بهرسير[1] ودخلها بعد حصار شهرين وهرب منها كسرى الى حلوان فغنم المسلمون من ذخائر كسرى وأموال الفرس في المدائن ما لا يعد ثم دعا سعد الدهاقين الى الاسلام أو الجزية ولهم الذمة [illegible] غربي دجلة من أرض العرب [illegible] الاسلام ثم [illegible] المسلمون ايوان كسرى جعلوه مسجداً وكان سعد يصلي فيه بالناس والتماثيل من الجص قائمة فيه ثم أرسل سعد جيشاً من المسلمين بقيادة ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الى حلوان وماسبذان فافتتحوها وترك كسرى [illegible]

---

(١) [illegible] هي عاصمة الاكاسرة [illegible] على دجلة على مرحلتين [illegible]
[illegible] من بغداد [illegible]

حلوان الى الراي وقيل الي اصفهان وكان ذلك سنة (١٦) واقام سعد في المدائن الى سنة (١٧) وفتحت جيوشه في غضونها تكريت والموصل ثم تحول الى الكوفة بعد ان اختطها بأمر عمر بن الخطاب (رض) كما سيأتي ذكره في محله ان شاء الله

﴿ مسح سواد العراق وترتيب الجزية والخراج ﴾

﴿ كيف يكون الاستعمار ﴾

ان من الاصول السديدة في الفتح والاستعمار ان يؤسس على مبدا حفظ الثروة المحلية لاهلها لتكون هذه الثروة مادة ينتفع منها الفاتح واصلاً تنمو بنمائه ثروة لدولة وتدوم بدوامه مادة العمران وكلما تبسط اهل المملكة في العمران وجد المستعمر من وسائل الكسب عندهم مالم يجده فيما لو نضب معين ثروتهم وانكمشت عن العمل ايديهم وقلّ ان تراعي الدول الفاتحة هذا الاصل السديد والمرمى البعيد في الممالك المفتتحة بل معظم الفاتحين الى هذا العهد يعتبرون البلاد التي اخذت عنوة ملكا حلالاً لهم يجوز انتزاع الثروة من اهلها بطريق الاكراه التدريجية ليستأثر بها اهل ملتهم ويستغني منها وطنهم على زعمهم ولم نعهد في هذا العصر دولة من الدول المتمدنة الاوربية تراعي حفظ الاصل في الثروة لأهله في المستعمرات الافريقية والاسيوية الا دولة انكلترا فربما كانت احسن الدول قياماً على ذلك الأصل في مستعمراتها الكثيرة الشاسعة واخفهن وطأة على الرعية مع ان دعوى التمدن العريضة تستدعي الرافة والعناية بسكان المستعمرات من سائر الدول الاوربية وتستلزم مراعاة الاصول الاقتصادية في حكم البلاد المفتتحة كما هي مرعية في الممالك الاوربية وهيهات هيهات فان غلبة الشهوات تمحو عن لوح الذاكرة كل علم نقشته عليه اقلام العلماء في ديار المدنية وليت جهلة الكتاب من الافرنج الذين يرمون الفتح الاسلامي واهله بوصمة التخريب

والتدمير ويسمونهم بسمة البداوة يبحثون في التاريخ الاسلامي عن أصول الاستعمار والفتح عند العرب ويتعلمون منهم ما يفيدون به دولهم المتمدنة في وضع أساس العدالة وحفظ اصول الثروة لاهلها في الممالك المفتتحة

إن مبدأ الفتح الاسلامي الذي يسم جهلة الافرنج اهله بالبداوة والتخريب انما كان في عهد عمر بن الخطاب الخليفة الثاني للمسلمين الذي قهرت جيوشه دولتي الفرس والروم ورفعت اعلام دولته على اخصب ممالك الارض لعهده فكان من جميل سياسته في هذه الممالك وعظيم عدله في الرعية ان حفظ على الاهلين مادة ثروتهم وكف يد المسلمين عن انتزاع ارضهم وراعى في ترتيب الجزية والخراج ثروت الافراد وخصب الارض وجدبها ونوع النبات والشجر المستنبت فيها وكان شديد الحرص على استبقاء الفلاحين يعملون في ارضهم لا يرضى بمزاحمة المسلمين لهم ولا انتزاع ارضهم منهم ومن ذلك ماروواه في آثار الاول وترتيب الدول عن عبد الله بن هبيرة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه امر مناديه ان يخرج الى امراء الاجناد يتقدمون الى الرعية بان عطاءهم قائم ورزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون

وعن شريك بن عبد الرحمن ان شريك بن بي سمي العطيفي اتى الى عمرو ابن العاص فقال انكم لا تعطونا ما يحسبنا (يكفينا) فتأذن لي بزرع فقال له عمرو ما أقدر على ذلك: فزرع شريك من غير اذن عمرو فلما بلغ ذلك عمرا كتب الى عمر بن الخطاب يخبره ان شريك بن سمى العطيفي زرع بارض مصر .فكتب اليه عمر بن الخطاب ان ابعث لي به فلما انتهى كتاب عمر الى عمرو بن العاص أقرأه شريكا : فقال شريك لعمرو قتلتني ياعمرو فقال له عمرو انا قتلتك أنت صنعت هذا بنفسك فقال له اذا كان هذا من رأيك فأذن لي بالخروج من غير كتاب

ولك عهد الله ان اجعل يدي في يده (يعني انه لا يهرب) فأذن له بالوقوف فلما وقف على عمر قال: تؤمني يا أمير المؤمنين: قال ومن أي الاجناد انت: قال من جند مصر: قال فلعلك شريك بن سمى: قال نعم يا أمير المؤمنين قال: لاجعلنك نكالاً لمن خلفك: قال أو تقبل مني ما قبل الله من العباد: قال أو تفعل: قال نعم: فكتب الى عمرو أن شريكا جاءني تائباً فقبلت منه

وأخرج في فتوح البلدان عن ابراهيم التيمي قال لما افتتح عمر السواد (يعني سواد العراق) قالوا له اقسمه بيننا فانا فتحناه عنوة بسيوفنا فأبى وقال فما لمن جاء بعدكم من المسلمين وأخاف أن قسمته ان تفاسدوا بينكم في المياه: قال: فاقر أهل السواد في أرضهم وضرب على رؤسهم الجزية وعلى أرضهم الطسق (الخراج) ولم يقسم بينهم

وأخرج عن يزيد بن حبيب: قال: كتب عمر بن الخطاب الى سعد بن أبي وقاص حين فتح السواد (اما بعد) فقد بلغني كتابك تذكر ان الناس سألوك ان تقسم بينهم ما افاء الله عليهم فاذا اتاك كتابي فانظر ما اجلب عليه أهل العسكر بخيلهم وركابهم من مال أو كراع فاقسمه بينهم بعد الخمس واترك الارض والانهار لعمالها ليكون ذلك في عطيات المسلمين فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقي بعدهم شيء وفي كتاب الخراج لابي يوسف بحث طويل بهذا الصدد فليرجع اليه

وبلغ من حرص عمر رضي الله عنه على حقوق أهل العراق وحفظ ارضهم انه أن احد بني تدرب بن كامدة ضب بن عمر رضاً يفتلي[1] فيها خيله فكتب الى أبي موسى الاشعري ان ابا عبد الله سأل أرضاً على شاطئ دجلة يفتلي فيها خيله فان

---

(١) في القاموس فلا الصبي والمهر فلواً وفلاءً عزله عن الرضاع او فطمه ففصله وقطعه .

كانت في غير أرض الجزية ولا يجزأ اليها ماء الجزية فاعطه اياها وقيل بل كتب بذلك الى المغيرة بن شعبة في ولايته كتابا غير هذا وهو بمعناه كما تراه في محله ان شاء الله وهذا وأيم الله من الاغراق في العدل وحقه ان يكون شرعة حق يسلكها في هذا العصر دول الاستعمار مع المسلمين وهيهات هيهات: وأما كيفية ترتيب عمر للجزية والخراج في العراق فهو انه لما زال عن العراق ملك الفرس وتوطدت دعائم الاسلام وانبسط عليه عدل عمر بن الخطاب رأى ورأيه العدل ان ينظم شؤونه الادارية ويرتب فيه الوضائع على نحو ترتيب كسرى أنوشروان الا أنه خوفا من اجحاف العراقيين أو تظلمهم رأى ان تمسح أرض السواد وتفرز أجزاء بنسبة الخصب وما يحمله كل جزء من الشجر وان يحصي السكان فتضرب عليهم الجزية على نسبة حال الافراد من الغنى والفقر فبعث عثمان بن حنيف الانصاري الى العراق العربي وحذيفة بن اليمان الى العراق العجمي فمسحا الارض ووضعا عليها الخراج بنسبة حالها ومقدرها فجعلا على جريب (١) النخل عشرة دراهم وعلى جريب الكرم عشرة دراهم وعلى جريب القصب ستة دراهم وعلى جريب البر أربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين وكتبا بذلك الى عمر فأجازه وفي رواية لأبي يوسف أنه جعل على جريب النخيل ثمانية دراهم

وأخرج أبو يوسف والبلاذري عن الشعبي أن عثمان بن حنيف مسح السواد فوجده ستة وثلاثين ألف ألف جريب أي ستة وثلاثين مليوناً وفي رواية أنه ستتي نخيل وفي رواية أن عمر نهى النخل في ولاية المغيرة بن شعبة على العراق

---

(١) في القاموس الجريب مكيال ... والمزرعة ... ومساحته تقدم ذكرها ... في تاريخ ... المساحين ... كسرى وحدوده ستين ذراعاً طولاً وستين عرضاً وهو مقدار جريب فعلى هذا تكون مساحته ٣٦٠٠ ذراعاً مربعاً

والظاهر انه أراد باستثناء النخل من الخراج تسهيل تجارته واصداره الى البلاد لانه مادة التجارة في العراق .

وبلغ خراج العراق في ولاية عثمان بن حنيف مائة ألف ألف درهم (أي مائة مليون درهم) وذلك عدا الصوافي التي اصطفاها عمر لبيت المال وكانت لآل كسرى أو لمن هرب وترك أرضه وبلغ خراجها سبعة آلاف ألف درهم (أي سبعة ملايين) واقطعت هذه الصوافي بعد ذلك للصحابة

وأما الجزية فقد أحصى عثمان بن حنيف من تجب عليه من سكان السواد فبلغوا خمسمائة وخمسين ألف شخص فجعلها على ثلاث مراتب ثمانية وأربعين وأربعة وعشرين واثنى عشر وذلك بنسبة حال الافراد فاذا اعتبرنا في هذا العدد متوسط الجزية الذي هو أربعة وعشرون درهما فيكون مجموع الجزية ثلاثة عشر مليونا ومائتي ألف درهم اذا أضيفت الى مبلغ الخراج بما فيه خراج الصوافي فيكون مجموع الجباية في العراق على عهد عمر بن الخطاب (رض) مائة وعشرين مليون درهم ومائتي ألف درهم [1] كانت تنفق في اعطيات الجند وارزاق المسلمين مماعدا الخمس فانه يرسل الى المدينة وينفق مايلزم من الجباية لاصلاح الجسور وحفر الانهر ومن الانهر التي احتفرها عمر في العراق النهر المعروف بنهر معقل قرب البصرة ونهر سعد ابن عمرو بن حرام قرب الانبار وغيرهما

وأخرج الامام أبو الفرج بن الجوزي في مناقب عمر عن عمر بن ميمون

(١) ورأيت في مناقب عمر للامام أبي الفرج بن الجوزي أن جباية العراق العربي المعروف بالسواد والعراق العجمي المعروف ببلاد الجبل بلغت مائة وعشرين مليونا (واق) قال والواق درهم ودانقان ونصف هذا ما قاله ابن الجوزي واما الدانق فقد كان كل درهم ربعة دونق وهو الدرهم البغلي واما الدرهم الطبري فقد كان ثمانية دوانق وقيل بالعكس

قال : رايت عمر بن الخطاب قبل ان يصاب بالمدينة وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف فقال كيف فعلتما (يعني بالعراق) اخاف ان تكونا حملتما الارض ما لا تطيق: قالا لا فقال عمر لئن سلمني الله لادعن ارامل اهل العراق لا يحتجن الى احد بعدي ابداً فما اتت عليه الا اربعة الا اصيب وروى ابو يوسف في الخراج ان عمر كان يجبي الخراج ثم يخرج كل سنة عشرة من اهل الكوفة وعشرة من اهل البصرة يشهدون اربع شهادات بالله انه من طيب مافيه ظلم مسلم ولا معاهد : وهل بعد هذا العدل عدل يؤثر عن الملوك والخلفاء ويذكر عن الدول لا والله . هكذا كان ما يسمونه الاستعمار الآن على عهد عمر بن الخطاب اذ تأسس على قاعدة حفظ الثروة المحليه لاهلها لتكون مادة ينتفع منها الفاتح واصلا لنمو نمائه ثروة الدولة وانما اخذ عمر (رض) هذه القاعدة من القرآن الكريم الذي هو اول كتاب الهي قرر هذه القاعدة وذلك ان عمر لما الح عليه بعضهم بقسمة الارضين في العراق والشام ابى الا ابقائها بيد اهلها وانتفاع المسلمين بخرجها فقط وقال كيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الارض قد حيزت وقسمت ما هذا براي وجمع الناس للشورى واحتج على من راى قسمة الارضين بالكتاب الكريم كما ترى ذلك مبسوطاً في كتاب الخرج لابي يوسف وقال اني قد وجدت حجة لله تعالى في كتابه وتلى الآيات التي نصت على الفيء وقسمته وعلى مستحقيه من المسلمين وهي (ما افاء الله على رسوله) الى ان قال بعد ذكر ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والمجاهدين والانصار (والذين جاؤ من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم) وقال لهم عمر (رض) هذه الآية عامة لمن جاء بعدهم (اي بعد من ذكره في الآيات) فقد صار هذا الفيء

بينهم جميعا فكيف نقسمه لهؤلاء (يعني الفاتحين) وندع من تخلف من بعدهم بغير قسم فاجمع على تركه وجمع خراجه ووافقه على ذلك المخالفون وتم الامر ان تبقى الارضين بيد اهلها لتكون مادة يستمد منها اهلها والفاتحون مادة الحياة وهذا هو قانون الاستعمار العادل واساسه المتين

لما تمهد امر العراق لعمر بن الخطاب (رض) بعث عتبة بن غزوان والياً على البصرة وولى سعد بن أبي وقاص الصلاة وامارة الحرب العامة على كل ما غلب عليه من البلاد وجعل مقره الكوفة ولما عزله ولى عمر بن ياسر ثم المغيرة بن شعبة ثم أبا موسى الاشعري ثم عمر بن سراقة وغيرهم وولى على خراج النعمان بن مقرن على ما سقت دجلة وسويدا أخاه على ما سقى الفرات ثم ولى عملهما حذيفة بن اسيد وجابر بن عمرو ثم حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وهما اللذان مسحا العراق كما تقدم

(عود الى خبر الفتح)

غزوة فارس من البحرين

كان العلاء بن الحضرمي ، أحد أبطال حروب الردة عاملا لعمر على البحرين وهي من بلاد العرب مما يلي خليج فارس وكان يباري سعد بن أبي وقاص لصدع صدعه القضاء بينهما وطار عليه بالفضل في أيام حروبه في الردة فلما ظفر سعد بالفرس ودوخ عاصمة ملكهم واستولى وجاء أعظم مما جاء به العلاء رأى العلاء ان يباري سعداً ويؤثر أثراً في الاعاجم ونعمت المباراة والمنافسة في الفتح والجهاد لو لم تكن بدون اذن امير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي كان لا يأذن بخوض جيوشه في البحار ترصاً بهم لأوان الفرصة وانتظاراً للوقت المناسب وأما العلاء فقد تسرع وندب الناس لمهاجمة الفرس من جهة البحر فأجابوه فجهز

جيشا عدته ١٢ الف مقاتل فيهم من الرؤساء الجارود بن المعلي والسوّار بن همام وعلى الجميع خُلَيْد بن المنذر بن ساوي فحملهم في البحر الى فارس فخرجوا الى اصطَخْر وعليها المرابطة وعليهم قائد اسمه الهِرْبَذ فما عتم ان قابلهم الفرس حتى حالوا بينهم وبين سفنهم واجتمعت عليهم جموع فارس فقاتلوهم قتالاً شديداً وشجعهم خليد بخطبة خطبها فيهم فتراموا على الموت وقُتِل الجارود وسوّار فاستمات ابناهما عبد الله بن السوّار والمنذر بن الجارود فقاتلا حتى قتلا وجعل خليد يومئذ يرتجز ويقول

يالَ تميم اجمعوا النزولَ　　وكاد جيش عمر يزولُ

وكلكم يعلم ما أقولُ

فنزلوا واقتتل القوم وقتل من الفرس مقتلة عظيمة ثم خرجوا يريدون البصرة وقد غرقت سفنهم فلم يجدوا الى الرجوع سبيلا وأخذ الفرس عليهم الطرق فلما أحسوا بالخطر عسكروا وامتنعوا ودافعوا العدو مدافعة الابطال الصناديد

وكان لما بلغ عمر بن الخطاب تسيير العلاء لهذا الجيش أدرك بفراسته ما يصير اليه من الهلاك في تلك البلاد النائية فاشتد غضبه على العلاء وكتب اليه بعزله وأمره بأثقل الاشياء عليه [illegible] ان ينضم الى سعد بن ابي وقاص ويكون تحت امرته وكتب الى عتبة بن غزوان [illegible] ان يندب الناس [illegible] عتبة [illegible] فكتب عمر وندب عاصم بن عمرو وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن والاحنف بن قيس [illegible] خرجوا في [illegible] على البغال يجنبون الخيل [illegible]

رده له حتى التقى بخليد بحيث عسكر واخذت عليه الطرق وحصر هو وجنوده الليوث البواسل فاستصرخ اهل اصطخر اهل فارس على المسلمين فاقبلوا عليهم من كل فج فالتقواهم وابو سبرة وتوافت للمسلمين أمدادهم وتواصلت جنودهم فلم يتمكن الفرس من حصرهم او قطع المادة عنهم وقاتلهم المسلمون وغنموا منهم غنائم كثيرة وعادوا بذلك الجيش المحصور ببركة راي عمر واخذ الحيطة اللازمة لسلامة جيش يريد التوغل في بلاد العدو وكان لاهل البصرة فضل عظيم بانقاذ جيش العلاء والظفر بالفرس

ولما رجع الجيش الى البصرة استأذن عتبة عمر بالحج فاذن له فلما قضى حجه استعفاه فابى ان يعفيه وعزم عليه ان يرجعن الى عمله فانصرف على غير رضاه فمات في بطن نخلة فدفن وبلغ عمر وفاته فاثنى عليه بفضله وولى مكانه أبا سبرة بن رهم بقية السنة ثم استعمل المغيرة بن شعبة في السنة الثانية فاستمر فيها الى ان جرى بينه وبين أبي بكرة ما جرى مما سيأتي في محله ان شاء الله فعزله عمر واستعمل مكانه ابا موسى الاشعري

خبر الهرمزان

وفتح الاهواز وتستر والسوس وغيرها

كان الهرمزان احد البيوتات السبعة في اهل فارس وكان شهد القادسية مع الفرس وانهزم بهزيمتهم فجاء الى الاهواز [1] وتولى امرها وأخذ يغير على

(١) الاهواز اسم ولاية واقعة بين ولاية البصرة وولاية فارس ونحن ناخص هنا ذكره في شأنه ياقوت في معجمه وهو

الاهواز جمع هوز وفي قول جمع خوز فهي على القول الاول محرفة عن حوز والحوز مصدر حاز الرجل الشيء يحوزه حوزاً اذا حصله وملكه والحوز في الارضين ان يتخذها رجل ويعين حدودها فيستحقها فلا يكون لاحد فيها حق فذلك الحوز .

اهل ميسان فقلق منه عامل البصرة عتبة بن غزوان فاستمد سعداً فأمده بنعيم بن مقرن ونعيم بن مسعود وأمرهما أن يأتيا اعلى ميسان ودستميسان ووجه عتبة سلمى بن القين وحرملة بن مريطة وكانا من المهاجرين فنزلا على حدود ارض ميسان وهناك قوم من العرب يقال لهم بنو العم بن مالك فاتفقوا معهم على المعاضدة وان يثوروا بالهرمزان وكان من زعمائهم غالب الوائلي وكُلَيب بن وائل ونعيم ونُعَيم وبلغ ذلك الهرمزان فسقط في يده فانهزم فتبعه المسلمون وقتلوا من قومه ما شاؤا حتى انتهى الهرمزان الى جسر سوق الاهواز فعبره وأقام بها ونزل المسلمون بحياله فلما رأى ما لا طاقة له به طلب الصلح فكتبوا الى عتبة بن غزوان بذلك فاجاب عتبة الى الصلح على الاهواز كلها ماخلا نهرتيري ومناذر وما غلبوا عليه من سوق الاهواز فانه لا يرد عليهم وجعل سلمى بن القين على مناذر مسلحة وامرها الى غالب وحرملة على نهر تيري وأمرها الى كليب فكانا على مسالح البصرة وكتب عتبة بذلك الى عمر وفد اليه وفداً منهم سلمى وحرملة وكانا من الصحابة وغالبا وكليبا واوفد معهم بعض وجوه اهل البصرة وفيهم الاحنف بن قيس فأمرهم عمر ان يرفعوا حوائجهم فكلهم قال: اما العامة فانت صاحبها ولم يبق الا خويصة انفسنا: فطلبوا لانفسهم الا الاحنف بن قيس فانه تكلم فاغرب واعرب عن حاجات البصريين فأعجب به عمر اليه وقال: هذا الغلام سيد اهل البصرة: ثم كتب الى عتبة بن غزوان فيه بان يسمع منه

وعلى القول الثاني الاخواز موضع في خوزستان. وموقع الاهواز بين البصرة وفارس وكورها في قسمين سوق الاهواز ورامهرمز وايذج وعسكر مكرم وتستر وجنديسابور وسوس وسرق ونهر تيري ومناذر وكان خراجها ثلاثين الف الف (٣٠ مليون) درهم وكانت فارس تقسط عليها ثلاثين الف الف وعاصمة هذه الاقسام هرمزدار سابور او سوق الاهواز

ويشرب برأيه . وقيل بل احتبسه عنده في المدينة وسيأتي الكلام على هذا في سيرة الاحنف ان شاء الله

ثم ان عمر رد سلمى وحرملة وغالباً وكليباً الى مناذر ونهر تيري فكانوا عدة فيه لكون ان كان

ثم وقع بين الهرمزان وبين غالب وكليب اختلاف في حدود الارضين فحضر ذلك سلمى وحرملة لينظر فيما بينهم فوجدا غالباً وكليبا محقين والهرمزان مبطلا فحالا بينه وبينهما فكفر الهرمزان ايضاً ومنع ما قبله واستعان بالاكراد فكثف جنده فكتب الامراء الى عتبة بذلك فكتب عتبة الى عمر (رض) فامدهم عمر بحرقوص بن زهير السعدي وكانت له صحبة وامره على القتال وعلى ما غلب عليه من البلاد فجاء فقاتل الهرمزان فهزمه ففر الى رامهرمز وافتتح حرقوص سوق الاهواز واقام بها واتسقت له بلاد سوق الاهواز الى تستر ووضع الجزية وكتب بالفتح الى عمر ثم بعث جزء بن معاوية في أثر الهرمزان بامر عمر فانتهى الى قرية الشغر وعجزه بها الهرمزان فمال جزء الى دورق (وهي مدينة سرق) وفيها قوم لا يطيقون منعها فاخذها جزء صافية وكتب الى عمر بذلك والى عتبة وانه دعا من هرب الى الجزاء والذمة فاجابوه فكتب عمر اليه والى حرقوص ابن معاوية بن زهير بلزوم ما غلبا عليه وبالمقام حتى يأتيهما امره وذكر الطبري في غضون هذا الخبر ان جزء بن معاوية استأذن عمر (رض) في عمران البلاد فأذن له فشق الانهار وعمر الموات : وهكذا كان دأب هؤلاء الفاتحين الذين يرميهم الاعداء بالهمجية وحب التخريب فانهم ما وطئوا ارضاً الا عمروها واصلحوها في حكم المباشرة والجوار

واما الهرمزان فاقام في رامهرمز وطلب الصلح فصولح على ما لم يغلب عليه

المسلمون من أرضه فاقام الهرمزان على صلحه يجبي الى الامراء ويمنعونه وان غار عليه أكراد فارس منعوه وكان ذلك في سنة (١٧) وقيل في سنة (١٦) ثم كفر (أي جحد) مرة أخري وذلك ان كسرى يزدجرد حرضه على العصيان وحرض أهل الاهواز عامة فانتهى ذلك الى الامراء فكتبوا الى عمر (رض) والى المسلمين بالبصرة فكتب عمر الى سعد أن أبعث الى الاهواز بعثا كثيفا مع النعمان بن مقرن وعجّل وابعث سويد بن مقرن في نفر من وجوه المسلمين ذكرهم له: وكتب بمثل ذلك الى أبي موسى الاشعري وكان عاملا على البصرة بعد عتبة بن غزوان وأمره أن يسرّح الى الاهواز جنداً كثيفاً وفيهم نفر من سادة المسلمين ذكرهم له ومنهم البطل الشهير البراء بن مالك وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن وأشباههم وان تكون امارة الجيشين جيش الكوفة وجيش البصرة الى أبي سبرة ابن ابي رهم فخرج النعمان في اهل الكوفة فأخذ وسط السواد حتى قطع دجلة بحيال ميسان ثم اخذ البر الى الاهواز وانتهى الى نهر تيرى فجازها ثم جاز سوق الاهواز وخلف حرقوصا وسلمي وحرملة امراء الاهواز ثم سار الى رامهرمز وبها الهرمزان ولما سمع الهرمزان بمسير النعمان اليه بادره بشدة ورجا أن يقتطعه وقد طمع الهرمزان في نصر اهل فارس وقد قبلوا نحوه ونزلت أوائل امدادهم بتستر فالتقى النعمان والهرمزان بأربك فاقتتلوا قتالاً شديداً انتهى بانتصار المسلمين وانهزام الهرمزان الى تستر تاركاً الامر. واجتمعوا على تستر وكتب ابو سبرة يستمد امير المؤمنين فامدهم بأبي موسى والظاهر أن جنود الفرس التي كانت جاءت مدداً للهرمزان كانت كثيرة العدد فأخذ حاصروهم أشهراً وقتل البطل الصنديد البراء بن مالك مائة مبارز في غضون مدة الحصار وقتل مثل ذلك مجزأة بن ثور ومثله كعب بن سور وقتل مثل ذلك كثير من

ابطال البصرة والكوفة وعند نهاية الحصار جاء رجل الى النعمان فاستأمنه على ان يدله على مدخل للمدينة فندب النعمان نفراً من الشجعان فدخلوا معه المدينة وانامو من على الباب وفتحوه ودخلها الجنود فلما شعر بذلك الهرمزان فرالى القلعة واعتصم بها ثم طلب الامان على ان ينزل منها على حكم امير المؤمنين عمر بن الخطاب فنزل فأوثقوه واقتسموا ما افاء الله عليهم فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف وقتل ليلتئذ جمع من المسلمين فيهم البراء بن مالك ومجزاة بن ثور قتلهما الهرمزان بنفسه

وخرج ابو سبرة في اثر القل الى السوس واحاط بها بجنده وكتب بذلك الى عمر فكتب عمر برد ابي موسى الى البصرة وان يسير زر بن عبد الله بن كليب الى جندي سابور وامر على جند البصرة المقترب الاسود بن ربيعة احد بني ربيعة بن مالك

ثم ان ابا سبرة اوفد الى المدينة وفداً فيهم انس بن مالك والاحنف بن قيس ومعهم الهرمزان فلما اقتربوا من المدينة البسوه حلته الملوكية وتاجه ودخلوا به المدينة ليراه المسلمون على هذه الصفة وانطلقوا الى المسجد يطلبون امير المؤمنين فوجدوه نائما في ميمنة المسجد متوسداً برنسه فجلسوا دونه وليس في المسجد غيره : فقال الهرمزان اين عمر: فقالوا : هوذا : فقال اين حرسه وحجبه : فقالوا ليس له حارس ولا حاجب ولا ديوان فقال فينبغي ان يكون نبياً: فقالوا بل يعمل عمل الانبياء وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالسا ثم نظر الى الهرمزان فقال الهرمزان : قالوا نعم : فتأمله وتأمل ماعليه وقال : الحمد لله الذي اذل بالاسلام هذا واشياعه يامعشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فانها غرارة ثم قال هيه ياهرمزان

رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله : فقال ياعمر إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم اذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا : فقال عمر انما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا

هذا هو القول الحق الذي لامراء فيه اذ ما محق الامم وذهب باستقلال الشعوب الا التفرق وما مهد للمسلمين سبيل النصر على الدول الا اجتماع تلك القبائل المتفرقة على كلمة الاسلام وتمسكهم بعرى الاخوة والوئام هـذا على اغراقهم في البداوة وبعدهم عن أسباب الحضارة وجدتهم فى سياسة الملك وبالله لو استمرت عرى اجتماعهم متوثقـة وامور دولتهـم متسقة الى عهد الحضـارة الاسلامية التي استراح فيها المسلمون من عناء الفتح وأخذوا أنفسهم بالعلوم وتبسطوا في مناحي العمران لما تطرق اليهم الوهن ولما فترت منهم الهمم ولكن سلط عليهم أمراؤهم ففرقوا كلمتهم وأفسـدوا عليهم أمرهم فتباغضوا تباغض الاعداء وتناسوا ياارباه روابط الاخاء التي ربطت تلك القبائل البدوية بعراها ففتحت لهم ممالك الارض أقصاها وأدناها وبعد فان المسلمين لم يكونوا في عصر أحوج الى الوئام وافقر للالتئام منهم في هذا العصر الذي ملأ فراغ الوجود عبراً تهز أعصاب الاموات وتثير في النفوس الخامدة بواعث الشعور بما هو آت ومع هـذا فلا يزال أولياء أمورهم في تخاذل وتباغض لايودون اجتماعاً ولا يقبلون نصحاً ولا تؤثر فيهم الزواجر ولا تعظهم العبر يفرقون بين الاخ وأخيه والوطن وبنيه تزاحماً على اسم الرياسة وتواطؤاً مع الزمان على هذه الامة الاسلامية التى تمزقها الاعـداء والفاتحون وزاحمها على أرضها الغربيون وطاردها في حماها المتغلبون وهي مستغرقة في بحران الغفلة مستسلمة لاحكام القضاء استسلام الجبان للعدو القاهر لاتلتمس لها مخرجا من هذا الضيق ولا تفتأ تعبد رؤساءها الذين

قذفوا بها الى هذا المكان السحيق وقالوا بعداً للقوم الجاهلين

ثم ان عمر رضي الله عنه قال للهرمزان ماعذرك وماحجتك في انتقاضك مرة بعد مرة فقال أخاف ان تقتلني قبل ان اخبرك قال لا تَخَفْ ذلك فاستسقى الهرمزان ماء فاتي له به في قدح غليظ فقال لومت عطشاً لم أستطع ان أشرب في مثل هذا فأتي به في اناء يرضاه فأظهر الجزع وقال اني أخاف ان أقتل وأنا أشرب الماء فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه : فاكفأه فقال عمر: أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش : فقال لا حاجة لي في الماء انما أردت ان استأمن به فقال له عمر: اني قاتلك : قال : قد آمنتني : فقال كذبت فقال أنس صدق ياأمير المؤمنين قدآمنته : قال ويحك ياأنس اناأومن قاتل مجزأة والبراء والله لتأتيني بمخرج أو لأعاقبنك : قال:قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني وقلت لا بأس عليك حتى تشربه : وقال له من حضرمثل ذلك فاقبل على الهرمزان وقال خدعتني والله ولا أنخدع الا لمسلم فاسلم الهرمزان وفرض له على الفين وانزله المدينة . وربما كان بعض الوفد هو الذي علمه هذه الحيلة شفقة عليه من القتل والا فما نخاله يعلم من أخلاق العرب الوفاء الى هذا الحد والله أعلم

خشي عمر رضي الله عنه أن يكون سبب خروج الهرمزان على المسلمين عدة مرار مع كونه عاهدهم ودخل في ذمتهم ناشئاً عن سوء معاملة المسلمين لاهل ذمتهم في فارس والعراق فاستدعى الوفد الذي وفد عليه مع الهرمزان وسألهم عن ذلك وقال لعل المسلمين يفضون الى أهل الذمة بأذى : فقالوا لا ما نعلم الا وفاء وحسن ملكة: قال فكيف هذا وماسبب غدر أهل فارس : فلم يجد عند أحدمنهم شيئاً يشفيه ويبصر به مما يقولون الا ما كان من الاحنف بن قيس فقال : ياأمير المؤمنين أنا أخبرك انك نهيتنا عن الانسياح في البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما في

أيدينا وان ملك فارس حي بين اظهرهم وانهم لا يزالون يساجلوننا مادام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج احدهما صاحبه وقد رأيت انا لم نأخذ شيئاً بعد شيء الا بانبعاثهم وان ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعز امته فهنالك ينقطع رجاء اهل فارس ويضربون جأشا : فقال عمر صدقتني والله وشرحت لي الامر عن حقه ونظر في حوائجهم وسرحهم : وقدم الكتاب على عمر باجتماع اهل نهاوند فتحرك في نفسه أن يأذن بالانسياح بعد ان كان متوقفا فيه لقلة جيوش المسلمين بالنسبة لاهل فارس وعظيم قوتهم وضخامة سلطانهم

قدمنا ان ابا سبرة ذهب في أثر المنهزمين من جنود الهرمزان الى السوس وحاصرها فسلمت له وقيل بل كان على حصارها ابو موسى الاشعري وكان يزدجرد بعث احد قواده واسمه سياه في ثلثمائة مقاتل فيهم نحو سبعين رجلا من اشراف فارس وعظمائهم الى السوس وامره ان ينتخب من كل بلدة مر بها من أحب فمضى سياه الى السوس وقد سلمت ودخلت في حوزة المسلمين فتحول سياه ونزل بين رامهرمز وتستر وقد عظم عنده امر المسلمين وعلم بفراسته انهم ظافرون بالدولة الفارسية لا محالة فدعا الرؤساء الذين كانوا معه وقال لهم : قد علمتم انا كنا نتحدث ان هؤلاء القوم هم الشقاء والبؤس سيغلبون على هذه المملكة وتروث دوابهم في يوانات اصطخر ومصانع الملوك ويشدون خيولهم بشجرها وقد غلبوا على ما رأيتم وليس يلقون جنداً الا فلوه ولا ينزلون بحصن الا فتحوه فانظروا لانفسكم

قالوا رأينا رأيك. قال فليكفني كل رجل منكم حشمه والمنقطعين اليه فاني أرى أن ندخل في دينهم. ووجهوا مرة بن يكفوه لجند الافيا نعمد يحدثنهم

فيما لو أسلم أشرافهم فلبي الرؤساء أمره ثم وجهوا أحدهم واسمه شيرويه الى أبي موسى في عشرة من الاساورة فقدم عليه وقال له : انا قد رغبنا في دينكم فنسلم على أن نقاتل معكم العجم ولا نقاتل معكم العرب وان قاتلنا أحد من العرب منعتمونا منه وننزل حيث شئنا ونكون فيمن شئنا منكم وتلحقونا باشراف العطاء [1] ويعقد لنا الامير الذي هو فوقك بذلك : فقال أبو موسى بل لكم مالنا وعليكم ما علينا: قالوا لا نرضى : فكتب بذلك الى عمر ابن الخطاب فكتب اليه ان اعطيهم ما سألوه ورأى منهم مرة تقصيراً في الحرب فلامهم على ذلك فاعتذروا اليه بقلة العطاء فكتب بذلك الى عمر (رض) فكتب اليه ان ألحقهم على قدر البلاء في أفضل العطاء وأكثر شيء أخذه العرب : ففرض لمائة منهم في الفين ولستة منهم في الفين وخمسمائة فقال الشاعر

ولما رأى الفاروق حسن بلائهم وكان بما يأتي من الأمر أبصرا
فسن لهم الفين فرضاً وقد رأى ثلاثمين فرض عكٍ وحميرا

وفي هذه الابيات استحسان لما صنعه عمر رضي الله عنه بالحاق القوم بأفضل العطاء تأليفاً لقلوبهم وحذراً من أمر يأتي من قبلهم ولا جرم ان الانتفاع بناس كهؤلاء لا يفوت ذلك الخليفة العظيم الذي أدهش بحسن سياسته يومئذ ملوك الفرس والروم فرضي الله عنه وجزاه عن هذه الأمة خير الجزاء

خبر جندي سابور

وأمان عبد امضاه جيش المسلمين

روى الطبري أن أبا سبرة لما فرغ من السوس خرج في جنده حتى نزل على

---

(١) كذا في تاريخ الطبري ولعله بشرف العطاء اى اعلاه او بالاشراف من اهل العطاء والعطاء هو في عرفنا الآن المرتب او الماهية وسيأتي الكلام عليه في هذا الكتاب

جندي سابور وزر بن عبد الله بن كليب محاصرهم فأقاموا عليها يغادونهم ويراوحونهم القتال فلم يفجأهم يوماً الا وأبواب البلد تفتح ثم خرج الناس وخرج الاسواق وانبث اهلها فحار المسلمون من ذلك وأرسلوا فسألوهم ان مالكم: قالوا رميتم الينا بالامان فقبلناه وأقررنا لكم بالجزاء على ان تمنعونا: فقال المسلمون ما فعلنا: فقال أهل جندي سابور ونحن ما كذبنا: فسأل المسلمون فيما بينهم فاذا عبد يدعى مكنفاً كان أصله منها هو الذي كتب لهم: فقالوا انما هو عبد: فقالوا انا لا نعرف حركم من عبدكم قد جاءنا أمان فنحن عليه قد قبلناه ولم نبدل فان شئتم فاغدروا: فامسكوا عنهم وكتبوا بذلك الى عمر فكتب اليهم

ان الله عظم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تفوا ما دمتم في شك أجيزوهم وفوا لهم: فوفوا لهم وانصرفوا عنهم

ولو لم يعلم هذا العبد من اخلاق أولئك الفاتحين السامية انهم يجيزون أمانه وان أخلاقهم الكريمة ونفوسهم الشريفة فوق كل فاتح محارب لما رمى اقومه بالامان واستنزلهم من المعاقل ولو أنصف جبلة المتعصبين من المؤرخين وتتبعوا أخبار هذ الفتح وبحثوا عن سيرة أولئك الفاتحين وأخلاقهم البارة بالانسانية لكفوا أنفسهم مؤنة التهجم على ثلب المسلمين ووصفهم بالهمجية والتخريب في أيام فتوحهم العظيمة ولكن ما حيلة ونها لا تعمي الابصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور

﴿ الانسياح في بلاد فارس ﴾

اشرنا فيما تقدم الى ما رآه الأحنف بن قيس من لزوم انسياح [1] الجيوش الاسلامية في بلاد فارس تخلصاً من عصبية الملك واستخضاعاً للفرس وقد انتهى

---

(١) الانسياح هو الذهاب في الارض

عمر (رض) الى راي الأحنف وعرف فضله وصدقه فأعد لذلك المدة وقسم الجيوش وامر الامراء من أهل الكوفة والبصرة فأمر ابا موسى الاشعري ان يسير من البصرة الى منقطع ذمة البصرة اي آخرها فيكون هنالك حتى يبعث اليه وبعث بألوية من ولى مع سهيل بن عدي حليف بني عبد الاشهل فقدم سهيل بالألوية ودفع لواء خراسان الى الأحنف بن قيس : ولواء ازدشير خره وسابور الى مجاشع بن مسعود السلمي : ولواء اصطخر الى عثمان بن العاص الثقفي : ولواء فسا ودارابجرد الى سارية بن زنيم الكناني : ولواء كرمان مع سهيل بن عدي : ولواء سجستان الى عاصم بن عمر : ولواء مكران الى الحكم عمير التغلبي : فخرجوا في سنة (١٧ هـ) فعسكروا ليسيروا الى هذه الكور فلم يتيسر مسيرهم حتى دخلت سنة (١٨) وامدهم عمر (رض) بجماعة من جند الكوفة : فأمد سهيل بن عدي بعبد الله بن عبد الله بن عتبان : وامد الأحنف بعلقمة بن النضر وبعبد الله بن ابي عقيل و بربعي بن عامر وبابن ام غزال : وامد عاصم بن عمرو بعبد الله بن عمير الاشجعي : وامد الحكم بن عمير بشهاب بن المخارق المازني

سارت هذه الجيوش كل جيش في وجهته وافتتحت في غضون خمس سنين عني الى نهاية خلافة عمر (رض) القسم الأعظم من بلاد فارس الشرقية والغربية صلحاً وحرباً فبلغت ولاية اذربيجان شمالاً وسجستان (من ولاية افغانستان) ومكران (من ولاية بلوخستان في السند) شرقاً وبحر الهند وخليج فارس جنوباً وكردستان والجزيرة غرباً وكانت اعظم وقائع المسلمين في فارس بعد نسيان الجيش وقعة نهاوند وحسن فتح خراسان : فاما فتح خراسان فقد اختلف فيه هل كان في خلافة عمر بن الخطاب وخلافة عثمان رضي الله عنهما لهذا نرجئ الكلام عليه في سيرة الأحنف بن قيس : واما فتح نهاوند فنذكر طرفاً

من خبره هنا لاهميته ولكثره ماعاناه المسلمون في هذا الفتح من المشاق وما لاقوه من شدة العدو وعدته فنقول نقلا عما رواه الطبري في تاريخه

(خبر نهاوند)

كان الذي هيج أمر نهاوند كسرى يزدجرد فانه جمع اليه عظماء الفرس وخوفهم من اجتماع الجيوش الاسلامية على فارس وانذرهم بذهاب الملك اذا لم ينهضوا نهضة رجل واحد اصد المسلمين فأجمعوا رأيهم على اعداد الجيوش في نهاوند وكتبوا الى البلاد فحشروا الجنود الفارسية الى نهاوند وكانت عدتها ١٥٠٠٠٠ مقاتل فلما انتهى الخبر الى موبذان حلوان كتب بذلك الى سعد بن ابي وقاص وكتب هذا الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) فجمع عمر الصحابة واستشارهم في الامر فمنهم من أشار عليه بالنهوض بنفسه الى فارس ومنهم من أشار عليه بالمقام وبتسريح جنود الشام ومنهم من رأى غير ذلك وممن رأى أن يذهب الى حرب القوم بنفسه عثمان بن عفان (رض) فانه قام فقال(١) بعد أن تشهد

أرى يا امير المؤمنين أن تكتب الى اهل الشام فيسيروا من شامهم وتكتب الى اهل اليمن فيسيروا من يمنهم ثم تسير أنت باهل هذين الحرمين الى المصرين البصرة والكوفة فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين فانك اذا سرت بمن معك

(١) هكذا كانت العادة عند المسلمين اذا اجتمعوا عند الخليفة لشورى يقوم احدهم عند ابداء الرأي خطيباً ويشير بما يراه ويشبه في هذا العصر حال مجالس الشورى عند الامم الاوربية ولكن شتان بين اهل شورى يقضي بهم البحث لاختلافهم في المنازع والغايات الى المجادلة ثم المنازعة والمقارعة ثم الضرب بالايدي وبين اهل شورى وجهتهم واحدة واخلاقهم رزينة ونياتهم سليمة فلا يسفه احدهم رأي الآخر ولا ينطقون في الكلام على سوء بل يبدي رأيه مع الادب والرزانة فان قبل كان بها والا فغيره يقوم مقامه

وعندك . قل في نفسك ما قد تكاثر من عدد القوم وكنت أعز عزا واكثر. يا امير المؤمنين انك لا تستبقي من نفسك بعد العرب باقية (١) ولا تمتع من الدنيا بعزيز ولا تلوذ منها بحريز . ان هذا اليوم له ما بعده من الايام فاشهد برأيك وأعوانك ولا تغب عنه : ثم جلس فعاد عمر فقال

ان هذا اليوم له ما بعده من الايام فتكلموا : فقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه فقال

أما بعد يا امير المؤمنين فانك إن أشخصت اهل الشام من شامهم سارت الروم الى ذراريهم. (٢) وان أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة الى ذراريهم . وانك إن شخصت من هذه الارض انتقضت عليك الارض من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك أهم اليك مما بين يديك من العورات والعيالات . أقرر هؤلاء في أمصارهم واكتب الى أهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق فلتقم فرقة لهم في حرمهم وذراريهم ولتقم فرقة في أهل عهدهم لئلا ينتقضوا عليهم ولتسر فرقة الى اخوانهم بالكوفة مددا لهم . ان الاعاجم ان ينظروا اليك غدا قالوا هذا أمير العرب وأصل العرب فكان ذلك أشد لكلبهم وألبتهم على نفسك. واما ما ذكرت من مسير القوم فان الله هو اكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما يكره . واما ما ذكرت من عددهم فانا لم نكن نقاتل فيما مضى

(١) يريد لا تبالي بنفسك اذ أصيب العرب بشيء وفي قوله هذا ومن بقية الخطبة دليل على ما عده الفرس من القوة والعدة لمكافحة المسلمين يومئذ مما استكبر أمره الصحابة ورأوا لزوم اعداد القوة المماثلة لقوة الفرس الحاسمة لخطر هجومهم على المسلمين (٢) جمع الذرية وهو ولد الرجل والنساء الواحد والجميع ومراده ان الروم يسيرون الى الشام حيث لا يبقى الا النساء والاطفال فيكتسحون البلاد ويسبون الذرية

بالكثرة ولكنا كنا نقاتل بالنصر :

فقال عمر : أجل والله لئن شخصت من البلد لتنتقضن عليّ الارض من أطرافها واكنافها ولئن نظرت الى الاعاجم لا يفارقن العرصة وليمدنهم من لم يمدّهم وليقولن هذا أصل العرب فاذا اقتطعتموه اقتطعتم أصل العرب فأشيروا عليّ برجل أوَلِّهِ ذلك الثغر غداً واجعلوه عراقيا : قالوا أنت أفضل رأيا واحسن مقدرة وانت اعلم باهل العراق : فقال اما والله لاولين امرهم رجلا ليكونن لاول الأسنة اذا لقيها غداً : فقيل من يا امير المؤمنين : فقال النعمان بن مقرن المزني . فقالوا هو لها :

وكان النعمان [1] يومئذ بالمدينة وقيل كان بالبصرة مع القواد الذين امده بهم عمر لما افتتح رامهرمز وقيل بل كان على خراج كسكر وكان كتب الى عمر يستعفيه من امارة الخراج ويطلب منه الحاقه بجيش من جيوش المسلمين وذلك لان امارة الحرب كانت احب الى اقيال الصحابة من امارة الخراج لاعتبارهم الثانية من دواعي الراحة والرفاهية اللتين لا تألفهما نفوسهم العالية ميلها الى اكتساب الفضيلة والشرف من ساحات الحرب والقتال . واليك كتاب النعمان الى امير المؤمنين ومنه ترى بماذا شبه نعيم كسكر وكيف كان يأنف ذلك النعيم مابعد زمتي ومثل كسكر كمثل رجل شاب الى جنبه مومسة تلون له وتعطره فانشدك الله لما عزلتني عن كسكر وبعثتني في جيش من جيوش المسلمين

---

(١) هذا البطل الجليل هو النعمان بن مقرن بن عائذ بن سيحان ويتصل نسبه الى ... بن صحابة مزني سنة في مزينة من ولد عثمان بن عمرو قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في اربعمائة من مزينة وقيل هاجر ومعه سبعة اخوة له وكان معه لواء مزينة يوم فتح مكة وحضر حرب القادسية وغيرها من حروب فارس واستشهد بنهاوند

فكتب اليه عمر ان ائت الناس بنهاوند فاني قد وليتك حربهم فسر من وجهك ذلك حتى تأتي ماه فاني قد كتبت الى اهل الكوفة ان يوافوك بها فاذا اجتمع لك جنودك فسر الى الفيرزان ومن تجمع اليه من الاعاجم من اهل فارس وغيرهم واستنصروا الله واكثروا من قول لاحول ولا قوة الا بالله

وكتب الى الكوفة بشخوص الجيش الى نهاوند وعليهم حذيفة بن اليمان حتى يلتقي بالنعمان فتكون له امارة الجيش وكتب الى سلمى بن القين وحرملة ابن مريطة وغيرهم من الامراء الذين كانوا بالعراق العجمي وفارس أن يشغلوا الفرس عن جيش نهاوند فتقدم بعضهم الى تخوم أصبهان وبعضهم الى تخوم فارس فقطعوا عن نهاوند أمداد فارس ولما قدم جيش الكوفة على النعمان جاءه كتاب عمر ان معك حد العرب ورجالهم في الجاهلية فأدخلهم دون من هو دونهم في العلم بالحرب واستعن بهم واشرب برأيهم وسل طليحة وعمراً وعمراً ولا تولهم شيئاً

ويعني بالعمرين عمرو بن معدي كرب الزبيدي وعمرو بن أبي سلمى العنزي وهما وطليحة بن خويلد الاسدي من زعماء العرب في حروب الردة لهذا أمره عمر باستشارتهم ونهاه عن تأميرهم لانه رضي الله عنه كان لا يرى تأمير أحد من زعماء الردة وان أذن لأهل الردة بالجهاد واستنفرهم للفتح وكان أبو بكر رضي الله عنه لا يرى هذا ولا ذاك كما رأيت فيما مر من سيرته وانما ساغ لعمر (رض) ان يأذن لهم بحضور الفتوح للحاجة اليهم في إبان الفتح ولحصول الاطمئنان من جهتهم سيما بعد تبسط المسلمين في البلاد وحصول العرب على ذلك الملك العريض بفضل الاسلام

تقدم النعمان وتقدم امامه عمرو بن ابي سلمى وطليحة الأسدي

لاستكشاف حال العدو فخاف عمرو التوغل ورجع ومضى طليحة على وجهه وكان بطلا شجاعاً حتى بلغ نهاوند وعاد فأخبر النعمان بان ليس بينه وبين نهاوند شيء يخشاه فتقدم النعمان حتى نزل على نهاوند وعلى جيوش الفرس قائد اسمه الفيرزان وآخر اسمه بهمن جاذويه ووافى النعمان امداد أهل المدينة فيهم المغيرة بن شعبة وكذلك وافى أهل نهاوند كل من غاب عن القادسية والايام قبلها من أهل الثغور ونزلوا ونزل النعمان ولما أريد بناء فسطاط للنعمان بادر أشراف أهل الكوفة فبنوا له فسطاطا (وهو السرادق) وهم أربعة عشر منهم حذيفة بن اليمان وعقبة بن عمرو والمغيرة بن شعبة وبشير بن الخصاصية وحنظلة الكاتب بن الربيع وابن الهوبر وربعي بن عامر وعامر بن مطر وجرير بن عبد الله الحميري والأقرع بن عبد الله الحميري وجرير بن عبد الله البجلي والاشعث بن قيس الكندي وسعيد بن قيس الهمداني ووائل بن حجر فلم ير بناء فسطاط بالعراق كهؤلاء وفي هذا دليل على حسن الرابطة التي جعلها الاسلام بين أشراف العرب

وأنشب النعمان القتال فاقتتلوا يوم الاربعاء ويوم الخميس والحرب بينهم في ذلك سجال وفي يوم الجمعة لجأ الفرس الى خنادقهم وحصرهم المسلمون فاقاموا عليهم ما شاء الله والاعاجم لا يخرجون الا اذا أرادوا الخروج فاشتد ذلك على المسلمين وخافوا أن يطول عليهم الامر فجمع النعمان أهل الرأي والنجدة للشورى فاجتمعوا وأبدى كل واحد منهم رأيه وكان من رأي طليحة الاسدي ان يبعث النعمان خيلاً تفاجئ الاعداء في خنادقهم وتخالطهم ثم تخرج بهم وتستطرد لهم حتى يقاربوا الجيش فيبادرهم القتال ويقطع عليهم خط الرجوع فانتهى النعمان الى رأي طليحة فأمر القعقاع بن عمرو وكان على المجردة ففعل وأنشب القتال مع العجم فلما خرجوا نكص وما زال يتأخر ناكصا شبه المنهزم حتى اقترب بهم من

جيش المسلمين وكان النعمان على تعبية فاخذ يمر على الصفوف ويحرض المسلمين على القتال وكلهم سامعون مطيعون ثم حمل النعمان وحمل الناس وراية النعمان تنقض نحوهم انقضاض العقاب فاقتتلوا بالسيوف قتالا شديداً وكانت وقعة لم يسمع بمثلها قط وسال الدم في أرض المعركة فزلق به الناس والدواب وأصيب فرسان من فرسان المسلمين في الزلق وزلق فرس النعمان في الدماء فصرعه وتناول الراية نُعَيم ابن مقرن ثم دفعها الى حذيفة وجاء المغيرة بن شعبة وقال اكتموا مصاب أميركم لئلا يهن الناس واقتتلوا الى الليل وتمت الهزيمة على الفرس فانكفأوا في الخنادق فقتلوا ولم يفلت منهم الا الشريد ونجا الفيرزان فاتبعه نعيم بن مقرن وقدم القعقاع قدامه فادركه عند ثنية همذان فتوقل الجبل فتوقل القعقاع في أثره وأخذه ولما بلغ الفل همذان جاءت خيل المسلمين في آثارهم فنزلوا عليها فخرج اليهم خُسْرَوْ شْنُوم فاستأمنهم وضمن لهم همذان ودستبي وان لا يؤتي المسلمون من قِبَلِهم فأجابوهم الى ذلك وآمنوهم فأقبل كل من كان هرب واطمئن الناس

وقتل في وقعة نهاوند ناس من المسلمين ويقال ان ممن قتل يومئذ طليحة الاسدي وعمرو بن معدي كرب الزبيدي ودخل المسلمون المدينة بعد هزيمة الفرس واحتووا ما فيها وما حولها وجمعوا الاسلاب الى صاحب الاقباض[1] وهو السائب بن الاقرع وجاءهم الهربذ صاحب بيت النار مستامناً ودلهم على ذخيرة لكسرى كانت عنده على شرط ان يعطوه الامان على نفسه وعلى من شاء فعطاه حذيفة ذلك فأخرج له تلك الذخيرة في سفطين[2] وهي جوهر ثمين

(١) مين ـ والعدمة (٢) قف في القاموس السفط محركة كالجوالق أو القفة اه قوله حوالق معربة عن جوال التركية وهو ما يسميه الشاميون الان العدل أو الكيس وما يسميه مصريون زكيبة

كان اعده لنوائب الزمان فاجمع رأي المسلمين على رفعه الى عمر وقسم حذيفة الغنائم فكان سهم الفارس ستة آلاف وسهم الراجل الفين ورفع ما بقي من الاخماس الى السائب بن الاقرع فقبض السائب الاخماس فخرج بها الى عمر مع ذخيرة كسرى وتقدم الرسول بخبر الفتح وهو طريف بن سهم أخو بني ربيعة وكان عمر متململا ينتظر اخبار نهاوند فلما جاءه الرسول واخبره خبر الفتح واستشهاد النعمان بكي حتى اخضلت لحيته وترحم على النعمان وكان رضي الله عنه رقيق القلب محباً للمسلمين حريصاً على حياة القواد يحزن حزنا شديداً اذا أصيب أحد منهم.

ثم وصل السائب بالاخماس فوضعت في المسجد وامر عمر نفراً من اصحابه منهم عبد الرحمن بن عوف بالمبيت فيه ودخل منزله فاتبعه السائب بالسفطين واخبره خبرهما وان الناس رضوا بأن يكونا له فقال له عمر : يا مليكة والله ما دروا هذا ولا انت معهم فالنجاء عودك على بدئك حتى تأتي حذيفة فيقسمهما على من افاءهما الله عليه : فأقبل راجعا حتى تبى ن حذيفة فقدمهما فباعهما فأصاب اربعة آلاف الف (اربعة ملايين)

هذه هي العفة التي قل ان تكون في بشر فضلا عن ملك يكون له من السلطة على الناس ما كان لذلك الخليفة العظيم وتصدق وصدق من قال عمر ان عمر ليس بنبي ولكنه يعمل عمل الانبياء. وحقاً ان هذه الاخلاق اخلاق الانبياء الذين استهانوا بالدنيا ومتاعها ولا فاي حرج على عمر رضي الله عنه لو قبل هدية خصه بها المسلمون ورضي الجيش كله برفعها اليه وان كانت من فيئهم ومما غنموه بسيوفهم ولكن متخلقاً باخلاق النبوة المحمدية مخلصاً لله في السر والعلانية ليس له رغبة في غير الكفاف من العيش وسعادة المسلمين وغناهم وراحتهم فرضي الله عن نفسه الطاهرة ما اشرفها واسماها، ومن الامة بعمر ان

يرد اخراها الى اولاها ويبذل نفسه في سبيل سعادتها

ثم لما جيء بسبي نهاوند الى المدينة جعل ابو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة لا يلقى منهم صغيراً الا مسح رأسه وبكى وقال : اكل عمر كبدي : وكان نهاوندياً فأسرته الروم ايام حربهم مع الفرس واسره المسلمون بعد فنسب الى حيث سبي

ولما تم فتح نهاوند جاء اهل الماهين ماه بهرذان وماه دينار وطلبوا من حذيفة الامان على ان يؤدوا الجزية فكتب لاهل كل ماه عهداً هذه صورته (عن الطبري)

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما اعطى حذيفة بن اليمان اهل ماه دينار اعطاهم الامان على انفسهم واموالهم وارضيهم لا يغيرون عن ملة ولا يحال بينهم وبين شرائعهم ولهم المنعة [1] ما أدوا الجزية في كل سنة الى من وليهم من المسلمين على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته . وما أرشدوا ابن السبيل وأصلحوا الطرق وقروا (أضافوا) جنود المسلمين من مر بهم فآوى اليهم يوماً وليلة ونصحوا . فان غشوا وبدلوا فذمتنا منهم بريئة . شهد القعقاع ابن عمرو ونعيم بن مقرن وكتب في المحرم سنة ١٩

(١) قد مر معنا لفظ المنعة في عهود اهل الذمة عدة مرار في هذا الكتاب ولم نذكر شيئاً عنها ونقول هنا المنعة محركة هي الحماية والامتناع بالعشيرة وكان المسلمون يشترطون على انفسهم للذمي المنعة اي انه يصير كواحد منهم يمنعونه من كل غاصب ومحارب ومن كل من اراده بسوء ولهذا السبب لا يكلف اهل الذمة بالدخول مع المسلمين في محاربة الاعداء وضمنهم دفاعاً عن الحوزة تحمل المسلمين ذلك دونهم من عهد الفتح وهذه هي العلة في ان الدول الاسلامية لا تعمم احكام الجندية ولا تأخذ من اهل الذمة عسكراً لحراسة البلاد او يحارب مع اعدائها من اي جنس كانوا وهي نعمة لا يزال يقدرها قدرها كثير من عقلاء المسيحيين في المشرق ويتمنون اصلاح حال الحكومات الاسلامية لتدوم عليهم بدوامها سلطة الاسلام

ومما يستنبط من هذا الكتاب ان العرب لما امعنوا في بلاد فارس وكثرت مخالطتهم للفرس والروم اخذوا باصول الحضارة وتمكنوا من سياسة الملك وعرفوا لوازم العمران فجعلوا اصلاح الطرق التي هي عون الامم التجارية والحربية اجبارياً على اهل البلاد كما رايت في هذا الكتاب وكما جاء في كتاب عياض بن غنم لأهل الرها من الجزيرة وكان فتحها في سنة ١٨ في السنة التي فتحت بها نهاوند والماه وربما كانوا رأوا الطرق في التشعث والخراب تابعة لسائر العمران في مملكتي الفرس والروم يومئذ لما كانتا عليه من التناهي في الظلم واغفال شؤون العمران فاشترطوا على اهل البلاد اصلاحها وانما قلنا انهم شعروا بهذه الحاجة لما امعنوا في البلاد وكثرت مخالطتهم لتلك الامم لانا لم نر في كتب العهد السابقة على ذلك التاريخ شرطاً كهذا الشرط وهو وجوب اصلاح الطرق وهذا يخبرنا عن بدء انتظام الشؤون العمرانية في الدولة العربية لاسيما اذا اضفنا اليه انصراف همة امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه منذ السنة السادسة عشرة للهجرة الى تمصير الامصار في العراق وشق الانهر واصلاح الجسور كما رايت وسترى في هذا الكتاب

وكان الذي عقد صلح الماه مع المسلمين احد ابناء البيوتات من آل قارن واسمه دينار وبه سمي الماه الواحد ماه دينار وكان سبب صلحه ان احد ابطال المسلمين وهو سماك بن عبيد العبسي سره عقب فراره من وقعة نهاوند ثم من عليه بالاطلاق فعرف له هذا الجميل وطلب منه ان يقدمه الى الامير ليصالحه على بلده فقدمه الى حذيفة فكتب له حذيفة ذلك الكتاب وجعله على عمله فوفى للمسلمين بالعهد وحسن الجوار وكان يختلف الى الكوفة كلما كان عمله تاماً لعامل الكوفة فاختبر اخلاق المسلمين ايام الفتح وعرف احوالهم ووقف على سيرتهم

ولما كان من اهل الكوفة ما كان من الانشقاق والخروج على العمال ومنابذة الخلفاء قدم عليهم دينار في خلافة معاوية فقام بالناس في الكوفة فقال

يامعشر اهل الكوفة انتم اول مامررتم بنا كنتم خيار الناس فعمرتم بذلك زمان عمر وعثمان ثم تغيرتم وفشت فيكم خصال اربع بخل وخب (اي خداع) وغدر وضيق (الشك والتردد) . ولم يكن فيكم واحدة منهن فرمقتكم فاذا ذلك في مولديكم فعلمت من اين اتيتم فاذا الخب من قبل النبط والبخل من قبل فارس والغدر من قبل خراسان والضيق من قبل الاهواز:

وانما أحببت ايراد هذه الحكاية هنا لمالها من العلاقة بما قام في فكري منذ ولعت بالتاريخ من جهة تغيير اخلاق اهل العراق من العرب دون أهل الشام في أيام الخلفاء علي ومعاوية رضي الله عنهما ومن بعدهما وسأبسط الكلام على هذا في محله ان شاء الله

والى هنا نقف بالقلم عن التبسط في تاريخ فتح بلاد العجم اكتفاء بما جمعناه من خبر انسياح الجنود الاسلامية في تلك البلاد والاطراف التي بلغوها في خلافة عمر رضي الله عنه وانما توسعنا في بعض الاخبار دون بعض الآخر التماساً لبعض الشوارد التاريخية التي لها مناسبة بما علقناه وسنعلقه عليها من الشروح والاستنباطات التاريخية والدينية والاجتماعية ولو اوردنا كل خبر انفتح وعلقنا عليها الشروح وتتبعنا المناسبات لاحتجنا لكتابة اكثر من مجلدين في سيرة امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي هذا من المشقة ما ربما يبطيء بنا كثيراً في ابراز هذا التاريخ على ان الفائدة التي قصدناها حاصلة ان شاء الله وفي القليل احياناً ما يغني عن الكثير وفيما يأتي من هذا الجزء غنية عما تركناه والله ولي التوفيق

باب

فتح الجزيرة

الجزيرة هي الجزء الشمالي من الاراضي الواقعة بين الفرات ودجلة وأما الجزء الجنوبي فانه العراق وكلاهما كانا من منازل العرب من بكر وربيعة ومضر وكان رحيل العرب الى هذه البلاد من أزمان متطاولة قيل إنها تتدانى ما بعد سيل العرم حيث رحلت هذه القبائل ونزلت بهذا القسم من الارض وقاعدة الجزيرة هي الموصل وقد كان فتحها وفتح تكريت في سنة (١٦ هـ) على يدي عبد الله بن المعتم وربعي بن الافكل وكان بعثهما سعد بن أبي وقاص من العراق وقيل بل كان فتح الموصل على يدي عياض بن غنم (١) فان فتح الجزيرة بين سنة ١٨ وسنة ٢٠ وتحرير الخبر أنا ذكرنا في فتوح الشام كيف أن هرقل مدّ الروم وهاجم المسلمين في حمص بعد استقرارهم في بلاد الشام وأن عمر كتب الى سعد بن أبي وقاص بأن يمد أبا عبيدة في حمص بالقعقاع بن عمرو ويشغل جيوش الجزيرة عن مدد هرقل بجيوش من المسلمين عليها عياض بن غنم فسار القعقاع حتى أدرك أبا عبيدة في حمص وقد ظفر بالروم وتفرقوا وحصر عياض بعض مدن الجزيرة

---

(١) قد مر معنا كثيراً اسم هذا الفاتح الكبير في هذا الكتاب ولذا رأينا هنا بمناسبة فتحه الجزيرة ان نذكر شيئاً من نسبه وسيرته فهو عياض بن غنم بن زهير بن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن وهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر القرشي [illegible] وقيل أبو سعيد وأبو عبيدة بن الجراح ابن عمه وقد قاتل معه [illegible] كما رأيت في هذا الكتاب وصار اليه فتح الجزيرة وولاية أبي عبيدة الشام وتوفي سنة عشرين وكان صالحاً فاضلاً سمحاً جواداً وكانوا يسمونه زاد الركب لانه كان يطعم الناس زاده فاذا نفد نحر لهم جمله وكان اسلامه قبل الحديبية رضي الله عنه وأرضاه

ثم لما بلغه شخوص عمر (رض) للجابية شخص للسلام عليه هو وخالد وابو عبيدة ومعظم الامراء فطلب ابو عبيدة من عمر رضي الله عنهما أن يعينه بعياض ففعل وأبقاه عنده ولما مات ابو عبيدة في طاعون عمواس سنة (١٨) استخلف عياضاً فورد عليه كتاب عمر بتوليته عمل ابي عبيدة وهو حمص وقنسرين واضاف اليه الجزيرة وامره بالمسير الى فتحها فسار ومعه من القواد ميسرة بن مسروق العبسي وسعيد بن عامر بن حذيم الجمحيّ وصفوان بن المعطل السلمي ويقال وخالد بن الوليد والاصح ان خالداً لم يسر تحت لواء أحد بعد أبي عبيدة

وقد تضاربت الروايات في زمن مسير عياض الى فتح الجزيرة وفي هل سار من قبل سعد وهو في العراق أم من قبل ابي عبيدة والصحيح الذي يستنتج من مجموع تلك الروايات هو ما ذكرناه

وكان فتح الجزيرة كله صلحاً ومنه ما كان بعد قتال قليل وأهم البلاد التي فتحت هي الرقة والرها[١] ورفقا ونصيبين وحران وسميساط وسنجار وقرقيسيا (وكان فتحها على يدي حبيب بن مسلمة الفهري) وسروج وجسر منبج والموصل وآمد وغيرها وهكذا حتى بلغ عياض بادية الشام غرباً وأرمينيا وكردستان شرقاً ثم دخل الدرب[١] فبلغ بدليس (بتليس الآن) من كردستان وجازها الى خلاط وانتهى الى عين الحامضة ثم عاد فضمن صاحب بدليس خراج خلاط ثم عاد الى الرقة وانصرف منها الى حمص ومات سنة ٢٠ فولى عمر مكانه سعيد بن عامر بن حذيم فلم يلبث الا قليلاً حتى مات فولى عمر عمير بن سعد بن شهيد الانصاري احد الاوس وقيل هو عمير بن سعد بن عبيد وقتل أبوه سعد

---

١ قال في القاموس الدرب باب السكة الواسع والباب الاكبر وكل مدخل الى الروم وهو المقصود بقولهم درب اي دخل الدرب

يوم القادسية

فتح عمير عين الوردة ويقال لها رأس العين وهي مجتمع العيون التي يجري منها نهر الخابور ويصب في الفرت ثم سلك الخابور حتى أتى قرقيسيا وقد نقض أهلها فافتتحها وصالح أهلها على صلحهم الاول ثم أتى حصون الفرت حصناً حصناً ولم يلق فيها كيداً حتى بلغ الناوسة وآلوسة وهيت فوجد سعد بن عمرو بن حرام الانصاري وقد [illegible] أمير الكوفة يغزو [illegible] الانبار [illegible] جتمع عمير وسعد فصالح عمير أهل هيت وانصرف [illegible] الرقة

وكان عياض بن غنم رضي الله عنه أعطى كتاباً في الصلح لاهل الجزيرة وقد تقدم [illegible] فتح بلاد العجم [illegible] في [illegible]
[illegible]
[illegible]

(بسم الله الرحمن الرحيم [illegible] كتاب [illegible] عياض بن غنم [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

باب

«فتح مصر وبرقة»

كان عمرو بن العاص شديد [illegible] مصر [illegible] في فتحها [illegible]
في الجاهلية ورأى من ثروة [illegible] في فتحها [illegible] عمر

ابن الخطاب الجابية في سنة (١٨) اختلى به وفاتحه بما في نفسه وهون عليه أمر مصر
ورغب اليه ان يوليه فتحها فتردد عمر رضي الله عنه في الامر لان جيوشه متفرقة
في الشام والجزيرة وفارس تكافح دولة الفرس والروم فما زال به عمرو حتى
استرضاه وأذن له بقصدها وجهز معه أربعة آلاف مقاتل كلهم من عك وقال له سر
وأنا مستخير الله في مسيرك وسيأتيك كتابي ان شاء الله تعالى فان أدركك كتابي
وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف
وان كنت دخلتها قبل ان يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره

فسار عمرو بن العاص ووافاه كتاب عمر يأمره فيه بالانصراف فلم يفتحه
حتى دخل أرض مصر وسيأتي الكلام على هذا في سيرة عمرو ثم تقدم عمرو
حتى بلغ الفرماء فقاتله بها الروم نحواً من شهر فهزمهم وتقدم الى القواصر ولا
يدافع الا دفاعاً خفيفاً ثم الى بلبيس ثم أتى أم دنين ثم مصر وأبطأ عليه الفتح
فاستمد عمر فأمده بأربعة آلاف ثم استمده مرة أخرى فأمده باربعة آلاف
آخرين وكتب اليه اني قد امددتك باربعة آلاف رجل منهم رجال مقام
الالف . الزبير بن العوام . والمقداد بن الاسود . وعبادة بن الصامت .
ومسلمة بن مخلد . واعلم ان معك اثنى عشر ألفاً ولا تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة :

كان القبط في مصر يكرهون سيادة الروم ويودون التخلص منها ولو
بسيادة المسلمين فلم بلغ عمرو مصر وظفر بجنود الروم تواطأ على صلحه المقوقس
مع قومه وصالحوه على شيء معلوم وبعد ان تم الصلح شخص عمرو بجنده الى
الاسكندريه وكان فيها جمع كثيف من الروم فحاصرها مدة طويلة ثم أخذها عنوة
وكتب بالفتح الى عمر واستقرت قدمه في البلاد فأخذ في تنظيم شؤونها وترتيب
خراجها وتقرير أسباب الراحة والامان بين اهلها وما زال والياً عليها حتى عزله

عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد رأينا أن نرجئ تفصيل الكلام على فتح مصر وجغرافيتها وحالتها الاجتماعية على عهد ذلك الفاتح العظيم عمرو بن العاص الى سيرته التي نوفيها حقها من البيان ان شاء الله

لما استتب لعمرو الامر بمصر سار الى برقة وتسمى قديماً انطابلس وهي واقعة بين مصر وطرابلس الغرب ومن فرضها الشهيرة بنغازي فصالحه اهلها على الجزية وسار الى طرابلس الغرب ففتحها عنوة وكتب الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب : اما بعد انا قد بلغنا طرابلس وبينها وبين افريقيا [1] تسعة أيام فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل : فنهاه عمر فولى على برقة عقبة بن نافع الفهريّ وعاد وربما ذكرنا ذلك في سيرته ببيان اطول ان شاء الله :

انتهى ما اردنا ايراده من اخبار الفتح في خلافة عمر (رض)

باب

تعبية الجيوش وبراعة القواد

وديوان الجيش

وعدنا فيما سبق ان نفرد فصلاً خاصاً في هذا الكتاب نبين فيه كيفية تعبية الجيوش على عهد عمر بن الخطاب وبراعة قواده وتفننهم في اساليب الحرب ووفاء بالوعد افردنا هذا الفصل لهذه الغاية ولبيان اصول التجند وديوان الجيش على عهده فنقول

---

(١) يريد بافريقيا تونس وهكذا كان يسميها الروم ثم سماها العرب بهذا الاسم أيضاً والظاهر ان الجغرافيين ثم توسعوا فدعوا القارة كلها بهذا الاسم بعد من قبيل تسمية الكل باسم الجزء

اعلم أن العرب أمة حربية قل أن يماثلها في ذلك العصر شعب من الشعوب في الشجاعة والاقدام والتعود على أساليب القتال لدأب أفرادها منذ نعومة الاظفار على الفروسية وتعلم فنون الحرب واشتغالهم بالقتال وحبهم للغارة التي تقتضيها حالتهم الاجتماعية وتعودهم البداوة الا انه كانت تنقصهم الجامعة والعدة أي آلات الحرب فكانوا مع كونهم أمة واحدة من جنس واحد قبائل متفرقة الاهواء والمنازع يقاتل بعضها بعضاً ويثب بعضها على بعض ولم يكن عندهم من آلات الحرب والقتال وأنواع السلاح الا الرمح والسيف والدرع والسهم ولم يكن [illegible] وربما كان أجودهم سلاحاً هو [illegible] في الملك من عصور [illegible] بالمغازل لدقتها وسذاجة [illegible] رأيته فهم [illegible] الطاعة والانقياد [illegible] دولتي فارس والروم مما [illegible] جنود الدولتين [illegible] الحرب [illegible] رأيت فيما تقدم من هذا الكتاب [illegible] النصر حليفهم والفوز رائدهم في كل مكان

[illegible] جنداً [illegible] في داخل البلاد مما يجعلها وراءهم [illegible] تحمي ظهورهم [illegible] ولا يمكن العدو من أن يقطع على [illegible] ذلك في وقعة اليرموك حيث كان ردءهم يزيد بن أبي سفيان وعنده [illegible] خيس [illegible] صخر لانقاذ [illegible] حيث قامت المسالح من البصرة [illegible] الاهواز [illegible] بعضها بعضاً ويوصل بالمدد ذلك الجيش كي لا يقطع عليه الفرس

طريق الرجوع ويهلك مع جيش العلاء

ومنها انهم كانوا لايحاصرون مدينة مالم يقطعوا عنها طرق المواصلة مع جيش العدو كما رأيت في فتوح دمشق حيث أرسل أبو عبيدة عشرة قواد ومعهم الجيوش فنزلوا بين فحل ودمشق وأرسل ذا الكلاع بجيش فكان بين حمص ودمشق وأمثال علقمة بن حكيم ومسروقاً فكانا بين فلسطين ودمشق ثم زحف هو وخالد ويزيد بن أبي سفيان على دمشق وحاصرها حتى فتحها ثم سار منها الى فحل

ومنها انهم كانوا يبدأون العمليات في أطراف البلاد التي في البادية كي إذا أصابتهم هزيمة تكون جزيرة العرب من ورائهم فلا يتبعهم جيش العدو [illegible] وفتحهم الحيرة [illegible] في [illegible] وكانوا يجتنبون ان [illegible] على [illegible] في [illegible] جيوشهم [illegible] اليرموك من [illegible] في تاريخ حروب [illegible] من اصحاب [illegible]

[illegible]

[illegible] وغنائم [illegible] فتح دمشق [illegible] فتح كما صنع ذلك عمرو بن العاص [illegible] على جيش [illegible] رسول من قبل المسلمين [illegible]

الرسل وكما صنع عبادة بن الصامت في فتح اللاذقية باظهاره القفول عنها وحفره الاسراب لاختفاء جنده فيها

ومنها اليقظة الدائمة لحركات العدو وسكناته والاستعداد لصد غاراته كما كان ذلك لما حاول هرقل مهاجمة جيش المسلمين من جهة الجزيرة ووقف المسلمون على خبره قبل ان يبدأ بشيء من ذلك فأدرت عليه الجنود من جهتين من جهة الشام بقيادة خالد بن الوليد ومن جهة العراق بقيادة من ذكر في محله من القواد حتى اوقفوه عن حركته ولم يمكنوه من المهاجمة ولا الوصول الى الجزيرة

ومنها توهينهم قوة العدو باشتغال جيوشه بالحرب عن ان يمد بعضها بعضاً عند الحاجة كما كان ذلك لما هاجم هرقل حمص واستنجد بأهل الجزيرة فاسرعت القواد من العراق وشغلت أهل الجزيرة عن نصرة هرقل ريثما تمت هزيمته وغلب عليه جيش أبي عبيدة بن الجراح

ومنها براعتهم في سرعة اجتماع جيوشهم بعضها الى بعض عند وجود الخطر الكبير ومظنة الخوف من غلبة العدو على جيوشهم اذا كانت متفرقة كما كان ذلك في جمع الامراء على اليرموك بعد ان تفرقوا في أنحاء البلاد وإنما تيسر لهم هذا الاجتماع بمحافظتهم على خط الرجوع وعدم تمكين العدو من قطع طرق المواصلات بين تلك الجيوش وبين ردء الذي هو جاس يزيد بن أبي سفيان هذه وأشباهه من مكائد الحرب التي مر ذكرها في غضون أخبار الفتح كلها تدل على براعة القواد المسلمين يومئذ وتفوقهم في أساليب الحرب واصول القيادة على قواد جيوش الروم والفرس لاسيما خليفة عمر بن الخطاب الذي كان مع بعده عن مواقف القتال يصدر اوامره الى القواد في الاعمال الحربية وكيفية الهجوم

والدفاع على وجه يدل على انه من اعاظم قواد الجيوش في العالم هذا فضلاً عما كان يوصي بها القواد من الرفق وحسن المعاملة مع المغلوبين وعدم التسلط بالايذاء عليهم وبدوام اليقظة والسهر والرفق بجيوش المسلمين وعدم القائهم في المهالك والتريث في الحرب والتبصر في امور القتال الى غير ذلك مما مر بيانه في هذا الكتاب ولا حاجة لاعادته هنا

واما تعبية العرب الجيوش في [illegible] التي مر ذكرها في هذا الكتاب فقد بلغ الغاية في الترتيب وحسن النظام والانتظام وخير [illegible] ما سبق معنا ذكره في هذا الكتاب من تعبيتهم جيوش [illegible] وتعبيتهم [illegible] وقعة اليرموك ووقعة القادسية و[illegible] في فنون الحرب و[illegible] البصيرة في [illegible] الجيوش [illegible] كالمقدمة والمجردة [illegible]

[illegible]

والكاتب والاطباء لمداواة الجرحى كما ترى ذلك كله مبسوطاً فيما يلي من ذكر تعبية الجيوش في اليرموك والقادسية

روى الطبري في تاريخه أن خالد بن الوليد عبى جيش المسلمين يوم اليرموك تعبية لم تعب العرب مثلها فجعل القلب كراديس واقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن ابي سفيان وجعل على كل كردوس من هذه الكراديس قائداً فجعل القعقاع بن عمرو على كردوس من كراديس اهل العراق ومذعور بن عدي على كردوس وجعل غير هذين بضعة وثلاثين قائداً كل قائد على كردوس منهم عياض بن غنم القرشي وحبيب بن مسلمة القرشي وسهيل بن عمرو القرشي وعكرمة بن ابي جهل القرشي في عدة مثلهم من قريش واما من كان من غير قريش فمنهم ذو الكلاع الحميري والسمط بن الاسود الكندي وضرار بن الازور الاسدي وجارية بن عبد الله الاشجعي واضرابهم من صناديد العرب الذين نضرب صفحاً عن ذكر اسمائهم حباً بالاختصار وكان القاضي أبو الدرداء والقاص[1] أبو سفيان بن حرب وكان على الطلائع قباث بن أشيم الكناني وكان على الاقباض عبد الله بن مسعود وكان القارئ المقداد بن عمرو كان من السنة ان تقرأ سورة الانفال عند القتال وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس ويحرض المسلمين على القتال

هكذا كانت تعبية الجيش على اليرموك واما على القادسية فربما كانت أرقى من ذلك وأحسن نظاماً وترتيباً فقد ذكر الطبري أن سعد بن أبي وقاص قدر

---

(١) في القاموس القاص من يأتي بالقصة ولعله هنا الذي يحمل اوامر الامير الى الصفوف ويأتيه باخبارهم

الناس وعباهم بشراف كما أمره عمر (رض) فأمر أمراء الاجناد وعرف العرفاء على كل عشرة رجالا كما كانت العرافات أزمان النبي صلى الله عليه وسلم: قال الطبري وكذلك كانت الى ان فرض العطاء: وامر على الرايات رجالاً من اهل السابقة وعشر الناس وأمرّ على الاعشار رجالا من الناس ولهم وسائل في الاسلام وولى الحرب رجالا فولّى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورَجلها وركبانها فلم يفصل (أي من شراف) الا بتعبية فاما أمراء التعبية فاستعمل زهرة ابن عبد الله بن قتادة بن الحوية من ملوك هجر فقدمه ففصل بالمقدمات من شراف حتى انتهى الى العذيب: واستعمل على الميمنة عبد الله بن المعتم: واستعمل على الميسرة شرحبيل بن السمط الكندي وكان غلاما شاباً وكان قاتل اهل الردة فعرف ذلك له (مر خبره في ذلك في سيرة أبي بكر) وجعل خليفته خالد بن عرفطة وجعل عاصم بن عامر التيمي ثم العمري على الساقة وسواد بن مالك التيمي على الطلائع وسلمان بن ربيعة الباهلي على المجردة وعلى الرجل حمال بن مالك الاسدي وعلى الركبان عبد الله بن ذي السهمين الخثعمي فكان امراء التعبية يلون الامير (أي بعده في المرتبة) والذين يلون امراء التعبية امراء الاعشار والذين يلون امراء الاعشار أصحاب الرايات والذين يلون أصحاب الرايات والقواد رؤس القبائل: قال الطبري وبعث عمر الاطبة[1] وجعل على قضاء الناس عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ذا النور وجعل اليه الاقباض وقسمة الفئ وجعل داعيتهم[2] ورائدهم سلمان الفارسي والترجمان هلال الهجري والكاتب زياد بن أبي سفيان

(١) جمع طبيب وهو جمع قلة وذلك لان الاطباء يومئذ قليلون فكان يرسل مع الجيش ولو عدداً قليلا لمداواة جرحى الحرب (٢) داعيتهم أي الذي يدعو في دينهم ويبلغ العدو مطالبهم ورائدهم الذي يرتاد لهم موضع النزول

وأنت ترى من هذا أن تعبية الجيش على عهد عمر بن الخطاب كانت وافية بالغرض من كل الوجوه وما نخال ان تعبية جيوش الدول المتمدنة يومئذ كالفرس والروم كانت أرقى من تعبية جيوش المسلمين وانما كان الفرق بين الجيشين بالعدد الحربية كما قدمنا ومع ذلك فان العرب لما خالطوا تلك الجيوش ورأوا ما عندها من أدوات الحرب وعدتها كالأوهاق (١) والمجانيق والسلالم وغيرها من أدوات الحصار وما شابهها بادروا الى استعمالها في حروبهم معهم كما رأيت ذلك في الكلام على حصار دمشق والطبع كما انهم استعملوا امثال هذه الآلات فقد استعملوا ايضا نوع السلاح الجيد الذي كانوا يغنمونه من هذه الجيوش ومن ثم تكافأ العرب بالقوى الحربية يومئذ مع أعدائهم وانما كانت تفضلهم جيوش الفرس والروم بكثرة العدد ويفضلهم العرب بالشجاعة العربية التي فاقت حد الوصف وألقت الرعب يومئذ في قلوب الأمم كما رايت ذلك في اخبار الفتح يضاف اليه عزم امير المؤمنين عمر (رض) ويقظته وسهره الدائم على امور المسلمين وتعزيزه جانب [illegible] بسد الثغور واعداد المرابطة واقامة المسالح في الاطراف التي أتى من قبلها خطر [illegible] العمال بادرار ارزاق الجند ومواصلته بالاخبار وبحثه لاماكن الخزنة للجنود واقامة الحرس على المناظر التي توقد فيها النيران للخبر عن [illegible] الذي يقترب من الحدود وكثرة صرفه العناية في كل ما يعود بالقوة والعز على المسلمين ويرفع شأن الخلافة كما رأيت وترى ذلك في هذا الكتاب. و[illegible] المسلمين وتفوقهم في اساليب الحرب واعتقاد المسلمين بالنعيم الاخروي حتى كان يحبب اليهم الموت في ميادين الحرب ونيل الشهادة بين صفوف الاعداء: وصبرهم على المكاره وتحملهم اشظف العيش

(١) حسك يرمى في [illegible] فتؤخذ به الدابة والانسان كما في القاموس.

(١٥) حيث دون عمر الدواوين وفرض العطاء كما سترى في باب آثاره في الخلافة ولم يسوّ في قسمة الفيء بين الجند بل جعلهم على مراتب وطبقات باعتبار السابقة فقد روى ابن جرير الطبري ان عمر لما فرض العطاء فرض لاهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف ثم فرض لمن بعد الحديبية الى أن اقلع ابو بكر عن أهل الردة ثلثة آلاف ثلثة آلاف في ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبي بكر ومن ولى الايام قبل القادسية (اى الحروب التي كانت قبلها) كل هؤلاء ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ثم فرض لاهل القادسية واهل الشأم ألفين ألفين وفرض لاهل البلاء (أي الذين عرف بلاؤهم في الحرب) البارع منهم الفين وخمسمائة الفين وخمسمائة وفرض لمن بعد اليرموك والقادسية الفاً الفاً وكانت هذه الطبقات هي الاصل في ترتيب العطاء ومن جاء بعدهم من الطبقات ممن لم يشهد تلك المشاهد الكبيرة كان يلحق كل قوم منهم باهل طبقة من تلك الطبقات يسمون الروادف والرديف لغة التبع وقد فرض لهؤلاء الروادف على درجاتهم المثني منهم خمسمائة خمسمائة ثم للروادف الثليث بعدهم ثلثمائة ثلثمائة وسوى كل طبقة في العطاء قويهم وضعيفهم عربهم وعجمهم وفرض للروادف الربيع مائتين وخمسين مائتين وخمسين وفرض للنساء مثل ذلك أيضاً فجعل لنساء الجند من الخمسمائة الى المائتين وجعل الصبيان مائة وعلى هذ الترتيب ضبطت اعطيات الجند في ديوان الجيش وكان من اراد الالتحاق بالجيش بعد تدوين عمر (رض) للديوان يقيد في ديوانه على هذا الترتيب ثم كان على عهد عثمان رضي الله عنه ومن بعده يزاد وينقص العطاء على مقتضى الظروف والاحوال كما سترى بعد. واما المغانم فقد ضرب أحد عماله بالشام للفارس بسهمين وللراجل بسهم فأجازه

ويظهر مما تقدم ان عمر (رض) كان يسوي بين الجنود الاعاجم من الفرس

والروم الذين تأخر اسلامهم وبين العرب كل منهم في طبقته باعتبار السابقة أيضاً بل ربما ميز بعضهم أحياناً في العطاء تأليفاً لقلوبهم كما صنع ذلك مع سياه الفارسي وقومه لما أسلم وأسلموا معه كما رأيت ذلك في خبر فتح تستر والسوس

وكانت اصول اعطاء العطاء لاهله على ما في رواية ابن جرير الطبري هكذا يدفع العطاء الى أمراء الاسباع وأصحاب الرايات والرايات على أيادي[1] العرب فيدفعونه الى العرفاء والنقباء والامناء فيدفعونه الى أهله في دورهم : ولنا كلام آخر على تدوين الديوان والفيء وحكمه سيأتي في باب آثاره في الخلافة ان شاء الله

باب

علائق عمر مع الملوك

كانت علائق عمر قبيل وفاته مع ملك الفرس حربية كما رأيت وتوفي رضي الله عنه وجيوشه تطارد يزدجرد في بلاده وتدوخ ملكه وأما علائقه مع ملك الروم فقد كانت سلمية واستقر بين دولتيهما الصلح منذ أتم عمر (رض) فتح الشام والجزيرة وجرت بينه وبين ملك الروم المكاتبات الودادية وذكر مؤرخو العرب ان هذه المكاتبات كانت مع هرقل ولكن لم يذكروا هل كانت مع هرقل الاول الذي انتزع منه عمر بلاد الشام أم مع ابنه هرقل الثاني المعروف بهرقل قسطنطين لان هرقل الاول توفي سنة (٦٤١م) الموافقة سنة (٢١هـ) وتولى الملك ابنه المذكور في هذه السنة أي قبل وفاة عمر (رض) بسنتين وسواء كان حصل التودد والمكاتبة مع هرقل الاول أو الثاني فقد بلغ من توثق عرى العلائق الحبية يومئذ بين الفريقين أن كانت تتردد بينهما رسل بالمكاتبة

---

(١) كذا في الاصل

وان أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه وزوج عمر بن الخطاب أرسلت مرة مع رسول جاء المدينة من قبل ملك الروم هدية من الطاف المدينة الى أمبراطورة الروم امرأة هرقل وأرسلت لها هذه في نظيرها عقداً نفيساً من الجواهر فأخذه منها عمر ورده الى بيت المال هذا على ما في رواية نقلها في كنز العمال واما الطبري فذكر ان ام كلثوم ارسلت تلك الهدية مع بريد عمر ونص رواية الطبري بتصرف واختصار

قالوا وترك ملك الروم الغزو وكاتب عمر وقاربه وسأله عن كلمة يجتمع فيها العلم كله . فكتب اليه احب للناس ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لها تجتمع لك الحكمة كلها واعتبر الناس بما يليك تجتمع لك المعرفة كلها . الى ان قال بعد ان ورد مكتبات أخرى جرت بينهما . وبعثت ام كلثوم بنت علي بن أبي طالب الى ملكة الروم بطيب ومشارب واحفاش من احفاش النساء ودسته الى البريد فأبلغه لها وأخذ منه وجاءت امرأة هرقل وجمعت نساءها وقالت هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكاتبتها وكافأتها وأهدت لها . وفيما أهدت لها عقد فاخر فلما انتهى به البريد الى عمر امره بامساكه ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال انه لاخير في امر ابرم من غير شورى ثم اخبرهم الخبر وسألهم عن [illegible] فكثر [illegible] . فقال ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم فأمر بردها الى بيت المال ورد على ام كلثوم منه بقدر نفقتها

وقد ذكر الطبري هذه الرواية في أخبار سنة (٢٨) في غضون الكلام على غزو المسلمين في البحر وان عمر ترك غزو البحر فترك ملك الروم غزوه وكاتبه وسالمه وهو دليل على رهبة ذلك الخليفة العظيم التي دبت في قلوب الملوك فرأى هرقل ان مسالمته خير من مناوأته ففعل وكان من الفائزين

باب

أهم الاحداث في عصره

أهم الاحداث في خلافة عمر رضي الله عنه طاعون عمواس وعام الرمادة فاما طاعون عمواس فاختلف في سنة حدوثه هل كانت سنة ١٧ أو سنة ١٨ وروى الطبري انه ظهر في العراق ومصر واستقر بالشام وفتك بالناس فتكاذريعا ومات به في الشام عدة من اعلام المسلمين منهم أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد ابن أبي سفيان ولما اشتدت على الناس وطأته خطب الناس عمرو بن العاص فقال : أيها الناس ان هذا الوجع اذا وقع فانما يشتعل اشتعال النار فتحيلوا منه في الجبال ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا في الجبال ورفعه الله عنهم

وروى الطبري عن ابن عباس ان عمر خرج في تلك السنة غازياً وخرج معه المهاجرون والانصار فلما بلغ سرغ لقيه أمراء الاجناد في الشام وأخبروه خبر الطاعون وأشاروا عليه بالرجوع فجمع الناس واستشارهم في الرجوع فمنهم من أشار عليه به ومنهم من أشار عليه بالتقدم وكان ممن أشار عليه بالرجوع مهاجرة الفتح فأصبح وقد عزم على الرجوع فقال أبو عبيدة بن الجراح أفراراً من قدر الله : قال نعم فرار من قدر الله الى قدر الله أرأيت لو أن رجلا هبط واديا له عدوتان احداهما خصبة والاخرى جدبة أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله ثم قال لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة ثم خلا به بناحية دون الناس فبينا الناس على ذلك اذ أتى عبد الرحمن بن عوف وكان متخلفاً عن الناس لم يشهدهم بالامس فقال ما شأن الناس فأخبر الخبر فقال عندي من هذا علم : فقال عمر فأنت عندنا الامين المصدق فماذا عندك . قال

سمعت رسول الله يقول (اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه واذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه) فقال عمر فلله الحمد انصرفوا أيها الناس فانصرف بهم [(١)]

ولما زال الطاعون وبلغ عمر ما أصاب الناس من كثرة الموت حتى كادت تضيع المواريث قدم الشام ونزل الجابية وقسم المواريث وسد الثغور واستعمل بدل من ماتوا من العمال كما سترى ذلك في الباب التالي وكانت هذه المرة هى المرة الرابعة التي قدم بها الشام ولم يأتها بعد ذلك

وعام طاعون عمواس كان عظيم الخطر على المسلمين وأفنى منهم أكثر من عشرين ألفا وهو عدد يوازي نصفهم بالشام وربما تخوف من ذلك المسلمون يومئذ واستشعروا الخطر من قبل الروم وفي الحقيقة لو تنبه الروم لهذا النقص الذي أصاب جيش المسلمين في سورية يومئذ وهاجموا البلاد لصعب على الجيوش المرابطة دفعهم ولكن ربما كان اليأس تمكن من نفس هرقل فأقعده عن مهاجمة المسلمين خصوصا اذ كان أهل البلاد راضين بسلطة المسلمين مرتاحي القلوب من عدلهم العادل وسيرتهم الطيبة الحسنة وبدون الاستعانة بهم لا يتيسر غرض مهاجمة البلاد لاسيما اذا أضفنا الى هذا مال القوم من الحرب وخلادهم الى الراحة من عناء المقاومة لقوم أصبح النصر حليفهم في كل مكان ودب الرعب من سطوتهم في قلب كل انسان

وسنة الرمادة فسمي بذلك لريح كانت تسفى تراباً كالرماد واصاب الناس بالحجاز مجاعة شديدة وكان قحط عظيم أهلك الضرع والزرع وعانى عمر (رض) بسبب ذلك النصب وآلى ان لا يأكل سمناً ولا عسلاً حتى يحيي الناس ويكون واياهم

(١) اتخذ المتأخرون هذا الحديث ورجوع عمر الى الحجاز حجة على مشروعية الحجر الصحي المعروف بالكورنتينا

الاستسقاء كلام طويل بين العلماء لا نحب الخوض فيه فليرجع اليه من شاء في كتب المحدثين

باب

آثاره في الخلافة

(كتابة التاريخ الهجري)

لم يكن للعرب قبل الاسلام تاريخ يؤرخون به الا الحوادث الشهيرة عندهم فانها كانت بمثابة التاريخ فكانوا يقولون حدث ذلك في عام الفيل مثلا وولد فلان بعد عام الفجار بكذا وهلم جراً واستمر ذلك في الاسلام الى مضي سنتين ونصف من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه اي الى سنة ست عشرة من الهجرة وفيها رأى عمر لزوم وضع التاريخ لضبط الحوادث بعد اذ انتشر الاسلام وكثر الفتح ومست الحاجة لضبط الشؤون والاعمال في الحكومة الاسلامية فجمع الصحابة الكرام واستشارهم في ذلك وسألهم من اي يوم نكتب التاريخ فأشار عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بان يجعل التاريخ من السنة التي هاجر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة ففعل

(تدوين الدواوين وفرض العطاء)

من البديهي أن حاجات الدولة تترقى بترقي العمران وامتداد السلطان وقد كانت دولة الاسلام في خلافة ابي بكر وصدراً من خلافة عمر في مبادئ الظهور وسذاجة البيئة وعدم اتساع السلطان ولم يكن لها من الدخل والخرج الا الصدقة التي كانت تؤخذ من الاغنياء وترد على الفقراء [1] واما الغنائم والفيء فكانت قليلة لم

---

(١) علمت من هذا الفصل وغيره حكم الفيء في الاسلام ووجوه صرفه التي أتانها

تحوج أخماسها التي يبعثها للمدينة الى صرف العناية في ترتيب الشؤون الادارية على اصول الدول المترقية يومئذ كفارس والروم وانما كانت العناية منصرفة الى الشؤون الحربية والفنون العسكرية ولما توسع المسلمون في الفتح و تنشروا

الكتاب الكريم وزيادة في الفائدة نشرح لك هنا حكم الصدقة ووجوه الصرف التي قررها للصدقة الاسلام ومنه تعلم ان الأمة الاسلامية انما سعدت واعتزت وقويت في صدر الاسلام بالعمل بهذا واشباهه من قواعد الاسلام التي ترمي كلها لغرض واحد وهو سعادة المسلمين : الصدقة تؤخذ على الماشية من غنم وابل وبقر بنسبة معروفة في كتب الشريعة لا محل لبسطها هنا وهي ليست كالفيء من حق سائر المسلمين بل هي والعشور التي تؤخذ من المسلمين لمن سمى الله عز وجل في كتابه الكريم بقوله تعالى (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل) قال ابو يوسف فاما المؤلفة قلوبهم فقد ذهبوا واما العاملون عليها (يعني ولاة الصدقة) فيعطيهم الامام ما يكفيهم من غير سرف ولا تقتير وبقية الصدقة للفقراء والمساكين سهم والغارمين وهم الذين لا يقدرون على قضاء ديونهم سهم وفي ابن السبيل [illegible] وفي الرقاب [illegible] [illegible]

في الممالك وكثرت موارد الدولة وتبسطت في مناحي العمران وأخذ يزداد الفيء من الخراج والجزية زيادة لا طاقة للخليفة وأمرائه بضبطها ولا قبل لهم باحصاء مستحقيها وتوزيع الاعطيات (المرتبات) على أربابها بالعدل الا بضبطها وترتيبها على أصول ثابتة وقيدها في قيود خاصة دعا عمر رضي الله عنه الصحابة واستشارهم في كيفية تدوين الديوان . فقال علي بن أبي طالب تقسم كل سنة ما اجتمع اليك من مال ولا تمسك منه شيئاً وقال عثمان : أرى مالاً كثيراً يسع الناس . وان لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الامر (ينبسط أو يلتبس) : فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا وجندوا جنداً [1] فدوّن ديوانا وجند جنداً : فأخذ بقوله فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من نبهاء قريش فأمرهم بتدوين الديوان ففعلوا والديوان هو الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية كما في القاموس وتوسعوا بتسماه بعد فأطلقوه على كل دفاتر الحكومة الادارية وغيرها ثم على المكان الذي يكون فيه الديوان فسموه ديواناً

ولما كتبت الدواوين كتب ديوان الشام بالرومية وديوان العراق بالفارسية واستمر كذلك الى عهد عبد الملك بن مروان في الشام والحجاج بن يوسف عامله على العراق فنقل عبد الملك في الشام الديوان الى العربية ونقله الحجاج فى العراق الى العربية رسيه كما نقل ذلك في فتوح البلدان ان عبدالملك بن مروان بلغه

(١) قال في القاموس الجند بالضم العسكر والاعوان والمدينة وصنف من الخلق على حدة اه والعرب كانوا يسمون كل ناحية لها جند يقبضون أرزاقهم به جنداً فيقولون جند قنسرين وجند الاردن وغيرها وهي من ترتيب عمر بن الخطاب (رض) كما سترى

عن أحد كتاب الروم أمرٌ ساءه فامر سليمان بن سعد بنقل الديوان الى العربية فسأله ان يعينه بخراج الاردن سنة ففعل ذلك وولاه الاردن فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله واتى به عبد الملك بن مروان فدعا بسرجون كاتبه فعرض عليه ذلك فغمه وخرج من عنده كئيباً فلقيه قوم من كتاب الروم فقال اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله منكم

وكذلك فعل الحجاج في العراق والذي نقله له الى العربية هو صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم وكان يكتب بين يدي زادان فروخ الفارسي كاتب الحجاج ولما قصد نقل الديوان الى العربية بذل له مردان شاه بن زادان مائة الف درهم على أن يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك فأبى ونقله والقصة طويلة سترد في سيرة الحجاج ان شاء الله

وانت تعلم ان قوام الدولة هو المال وروحها التي تحتاج في جسمها فتدير حركته هو الديوان ومع هذا فلما لم يكن العرب يومئذ في الدرجة التي تؤهلهم لادارة شؤون الديوان على اصول الدول المترقية في الحضارة عهد الخلفاء بهذا العمل الى الاعاجم من الفرس والروم ورضوا بكتابة الديوان بلغة الكتّاب الغريبة عن لغتهم مع ما في هذا من الغبن الظاهر وتعريض اموال الدولة لتلاعب الكتاب واذا دعاهم الى تسليم الدواوين الى الاعاجم وترتيبها على نحو ترتيب دولتي الفرس والروم ضرورة التوسع في الفتح والترقي في مرقي الحضارة والخروج عن حالة البداوة الى حالة تستلزم تقليد الأمم الراقية في وسائل العمران اذ لم يروا لهم مندوحة عن هذا الامر كما لم يروا مانعاً في الدين يمنعهم من مباراة الأمم في اصول الحضارة والمدنية واخذ العلم النافع ولو عن مشركي الفرس : ومن البلاء ان الصق بعض الفقهاء بعد كل شيء من امورنا الدنيوية بالدين وحرموا على الامة العمل بأي شيء نافع مادام

لم يصبغ بصبغة اسلامية ولو تمحلاً : ولو كان الدين يضيق على هذه الامة الى الحد الذي توهمه اولئك الفقهاء لَمَا قلد عمر رضي الله عنه الفرس والروم فيما اقتضته حاجة الدولة في عصره من وضع التاريخ والديوان وترتيب الجيوش واعداد العدة الحربية ونحو ذلك واذا قيل ان عمر رضي الله عنه مجتهد له ان يفعل بما يرى فيه المصلحة وعلى الامة ان تعمل فكيف ساغ لمثل الحجاج بن يوسف أن يبدل امراً اجتهد به الخلفاء الراشدون وأقروه فاصبح شرعاً لا ينبغي لاحد سواهم التصرف فيه والعدول عنه

ألم ان طبيعة الاجتماع تقضي باخذ الامم بعضها عن بعض كل ما يصلح للترقي في مراقي الكمال وشأن الامم هذا شأن الافراد في إحراز العلم بالمسابقة والاكتساب ومعاذ الله ان يرضى الاسلام بالحرج للمسلمين ويمنعهم عن المسابقة مع السابقين ليكونوا ادنى الامم والشعوب وانما توهم بعضهم ان من لوازم الدين صبغ كل شيء بصبغة الدين جعلنا نحكم بعقولنا القاصرة في الدين ونعتقد ان الاخذ باي سبب نافع من اسباب المدنية التي نتوصل بها الى مسابقة الامم والغلبة على الدول زيغ عن صراط الدين حتى بلغ بنا هذا الاعتقاد الفاسد أن صرنا نحرّم الامر الذي يدعونا الدين اليه ويحثنا عليه واقرب شاهد من هذا القبيل نتلوه عليك هذا الشاهد الملخص من تاريخ السلطان سليم الثالث العثماني رحمه الله تولى هذا السلطان العاقل منصب السلطنة في أوائل الجيل الماضي وقد اضطرب أمر الدولة وأشرفت على السقوط في هوة الدمار لتغلغل الفساد في جسم الفرق اليكجرية يومئذ وانحلال قوى الدولة بانحلال قوى الجندية العثمانية وانحطاط نظامها في جانب نظام الجند الاوربي الذي ظهر يومئذ بمظهر جديد مبني على الاصول العلمية والاختبارات الفنية فخشي السلطان ان هو لم يأخذ باصول الجندية

الجديدة ولم يبادِ بترتيب الجيوش المنظمة جيرانه من الدول الاوربية أن تكتسح هذه الدول مملكته العظيمة اذ ظهرت له بوادر الخطر يومئذ باحتلال نابليون لمصر وتحفز الروس للوثوب على القسطنطينية ونزوع أهالي المورة للثورة فعزم عزماً أكيداً على تنظيم الجندية العثمانية وقبول الاصلاحات الاوربيـة في البحرية والعسكرية والغاء الجندية الينيچرية ورأى ان تعريض حياته الشخصية للخطر مع جنود الينيچرية خير من تعريض المملكة لهجوم الدول الاوربية ومصير الدولة العثمانية للزوال وهو شمم وعلو نفس وأقدام قل أن صدر مثله عن أحد من الملوك الا فيما ندر اذ معظمهم يجعلون حياة الدولة والملك فداءً على حياتهم الشخصية ولا جرم فان لكثير من افراد هذه الاسرة العثمانية كثيراً من الايادي البيضاء على الامة وكل امرئ يذكر بفعله واجهل المؤرخين من يغمط فضل الرجال لما سنحت الفرصة لذلك الملك المقدام وأراد إبراز هذا العمل من القوة الى الفعل كان اول المقاومين له علماء الدين وفي مقدمتهم عطاء الله افندي شيخ الاسلام في عصره فحرضوا عليه العامة وأثاروا عليه الضغائن بحجة انه يريد التشبه بالافرنج وما زالوا يكافحونه مع الينيچرية ويكافحهم حتى تغلبوا عليه وخلعوه ثم قتلوه وجرت بعد ذلك امور يطول شرحها على عهد خلفه السلطان مصطفى والذي يليه السلطان محمود وكان قصاراها إهراق سيول من الدماء انفذ بعدها السلطان محمود رحمه الله ماضي عزيمته إرادته في الاصلاح وقضى على نظام الينيچرية واهلها شر قضاء وتالله لو لم يفعل ذلك لما بقي لدولة آل عثمان باقية الى الآن اذ هي الآن على ضخامة قوتها وترتيب جندها على النظام الجديد ومجاراته لأحسن جنود الدول في فنون الحرب قد غلبت على امرها وانتزعت الدول الاوربية كثيراً من ممالكها الاوربية والافريقية فكيف بها لو كانت على حالها القديم من ضعف الجندية وفساد النظام

لاجرم انها كانت ذهبت لاقدر الله مع الذاهبين واصبحت مثلا في الغابرين ولو سئل ساعتئذ عطاء الله أفندي هل بهذا يأمر الدين ويريد تلاشي المسلمين لاجابك بالبراءة الى الله من ذنبه واستغفر الى ربه

على ان الدول العثمانية حرسها الله قد قدت هذه القيود الثقال وقبلت من الاصلاح في أمورها السياسية وأمور الامة المعاشية ماجعلها تدخل في مصاف الدول الاوربية وان كانت الامة العثمانية لم تزل في دور الانحطاط وأما غيرها من الدول الاسلامية كدولة مراكش مثلا فانها لم تزل الى الآن على ماكانت عليه منذ مئات من السنين فليس لديها نظام للجندية ولا للادارة ولا للقضاء وليس عندها مدارس تعلم الناشئين الفنون الحديثة والاصول الحربية وتكسب الامة ملكات العلم بحاجات العصر وترشد الدولة الى أسباب المنعة والقوة والمانع من هذا كله هو زعم تحريم الدين لمثل هذه المنافع الدنيوية ومعاذ الله أن يكون الدين رائد هلاك الامة والمانع من ترقي المسلمين ولو كشفت الامة المراكشية عن بصائرها حجاب الغفلة وقامت دولتها بواجب الخدمة الصحيحة فنبذت عنها أوهام الواهمين وتخرصات الجاهلين فأخذت بحظ من أصول المدنية النافعة لكانت أحسن دول الاسلام حالا وأعظمهن قوة لخلو بلادها من أهل الملل من غير المسلمين الذين تجعلهم الدول الاوربية في الممالك الاخرى ذريعة لمد يدها الشؤون الداخلية والتعرض بالاذى للدول الاسلامية وتالله ان أمة يبلغ عددها الثمانية ملايين كلهم من جنس واحد ودين واحد لورزقها الله سائساً عظيم النفس عالي الهمة محباً للاصلاح يرتب شؤون دولته على نمط جديد ويصرف همته في اعزاز شأن الملك لكانت أمة عزيزة الجانب منيعة الجناب ولكان لها جيش منظم يزيد عدده عن النصف مليون يحمي ذمارها ويرد الغارة عن ديارها ولكن

أين من يسمع ويعقل ومن ينصف ويعمل

هذا وأما فرض العطاء فان عمر أمر بان يحصى الناس بالديوان ويبدأ من ذلك بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ومن يليه من ذوي القربى ثم باهل السابقة والذين حضروا الفتوح على درجاتهم التي اختارها لهم عمر ثم بالفقراء والمساكين النساء والاطفال كما هو مبين في مظانه من كتب الاحاديث والتاريخ وقد أشرنا اليه في باب ديوان الجيش : وقال قائل لعمر يومئذ ياامير المؤمنين لو تركت في بيوت الاموال عدّةً لكون إن كان : فقال كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقاني الله شرها وهى فتنة لمن بعدي بل أعد لهم ماأمرنا الله ورسوله . طاعة لله ورسوله فهما عدتنا التي بها أفضينا الى ماترون فاذا كان هذا المال ثمن دين أحدكم هلكتم :

على ان العطاء على ذلك الوجه لم يستمر الا مدة الخلفاء الراشدين ثم لما تغير حال الدول وانتشر الاسلام وكثر المسلمون خص الخلفاء العطاء من غير الخمس بطبقة الجند فقط على نسبة اختاروها لا على نسبة الفئ كله أي خصصوا لهذا قدراً مخصوصاً من الفئ يختلف باختلاف الدول واستأثروا بالباقي وبالخمس لانفاقه في وجوه المصالح العامة لان العطاء كان يعطى للمسلمين باعتبار انه فئ أخذوه بسيوفهم اذ كانوا كلهم جنوداً محاربين فاتحين ثم لما خصصت الجندية بطبقة مخصوصة من الناس تغير نظام العطاء أيضاً واضطر الدول بحكم الضرورة لاقتصاد الاموال وادخارها في بيت المال لانفاقها على المصالح الأخرى التي تقوم بها الدول وتقتضيها أبهة الملك هذا بقطع النظر عما خصص منها للانفاق على ترف الدولة وشهوات الملك لان هذا تابع بالطبع لحال الملوك من عفة وشره ومساك وبذل

وأما الكلام على الفيء الذي هو أصل العطاء وعلى حكمه وحكم الخمس وما هو وحكم الجزاء أو الجزية المستثناة من الخمس الى غير ذلك مما يتعلق بهذا البحث فمبسوط في كتب الفقه وكتب التفسير المطولة فليرجع اليه من أحب

وانما زيادة في الفائدة نقول هنا إن الفيء هو كل ماصالح عليه العدو بعد وضع الحرب أوزارها وحكمه أن يرفع منه الخمس الى الامام ليقسمه بين أهله الذين نص عليهم القرآن والباقي يوزع على الجند الفاتحين للبلاد والمرابطين في الثغور والقائمين على حراسة الدولة الا الجزية فانها مستثناة من حكم الخمس أي لا يرفع منها الخمس بل تعطى للجند القائمين بحماية أهل الذمة وحراسة البلاد

واعلم ان الاسلام هو أول شريعة نصت على مصرف الفيء أي وجوه الصرف والانفاق من أموال بيت المال ووضع مايعرف الآن (بالبودجه) ومعناها تقرير وجوه النفقات السنوية للحكومة فقد روى الطبريّ في تاريخه عن ابن عباس قال : لما فتحت القادسية ودمشق قال عمر للناس اجتمعوا فاحضروني علمكم فيما أفاء الله على أهل القادسية وأهل الشام فاجتمع رأي عمر وعليّ على ان يأخذوا من قبل القرآن فقالوا (ماأفاء الله على رسوله من أهل القرى) يعني من الخمس (فلله وللرسول) من الله الامر وعلى الرسول القسم (ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) الاية ثم فسروا ذلك بالآية التي تليها (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم) الاية فأخذوا الاربعة الاخماس على ماقسم عليه الخمس فيمن بدئ به وثنى وثلث وأربعة أخماس لمن أفاء الله عليه المغنم ثم استشهدوا على ذلك أيضاً : بقوله تعالى : (انما غنمتم من شيء فان لله خمسه) فقسم الاخماس على ذلك واجتمع على ذلك عمر وعليّ وعمل به المسلمون بعد هذا ماذكره الطبري وانما كان عمل المسلمين بذلك مدة الخلفاء الراشدين

واما من يليهم الى اواسط الدولة العباسية فقد عملوا بهذا بما وصل اليه الامكان ثم لما توسع امر الدول وتبسط الخلفاء في مناحي الحضارة أخذ يتغير ذلك الترتيب كما علمت هذا مما تقدم وربما بدأ هذا التغيير في عهد ولاية معاوية على الشام كما سترى في قصته مع ابي ذر فيما يلي من هذا الكتاب

ترتيب العمال

وتقسيم الولايات

لما تولى الخلافة عمر بن الخطاب كانت الحرب قائمة في الشام وكانت الامراء من علمنا مما تقدم في محله فجعل امارة ما يفتح من الشام الى أبي عبيدة وجعل امارة الحرب في كل جهة لامير مخصوص فجعل إمارة الحرب في دمشق ليزيد بن أبي سفيان وامارة الاردن لشرحبيل بن حسنة وامارة فلسطين لعمرو بن العاص وقد مر تفصيل ذلك وبيانه الآن ان الامارة العامة كانت لابي عبيدة فالمخابرة والصلح وكل ما يتعلق بامور الحرب السياسية كان منوطاً به ولما تم فتح الشام واستقرت فيها قدم المسلمين أبقى أبا عبيدة أميراً عاماً على الشام وجعل مقره حمصاً واضاف اليه جند قنسرين ثم اضيف الى هذ القسم جزء من الجزيرة لما فتحها عياض بن غنم وولي جند قنسرين بعد وفاة أبي عبيدة ثم جعل دمشق جنداً وعليها يزيد بن أبي سفيان ثم معاوية بعده ثم جعل الاردن كذلك جنداً وفلسطين جنداً وقسمه الى قسمين أحدهما حاضرته ايلياء والآخر حاضرته رملة وقد مر الكلام على ذلك فلا حاجة للتفصيل والمرد من الجند هو انهم كانوا يسمون كل ناحية بها جند يقبضون ارزاقهم منها جنداً فبدلاً من ان يقولوا ولاية قنسرية متلا يقولون جند قنسرين ويسمون لولاية يضاً كورة جمعها كور وروى الطبري في أخبار سنة (١٧ هـ) ان عمر لما جاء الشام في هذه السنة رتب الشوتي والصوئف

(أي الجنود التي تغزو في الصيف والجنود التي تغزو في الشتاء) وسدّ فروج الشام ومسالحها [١] وأخذ يدور بها واستعمل عبد الله بن قيس على السواحل من كلّ كورة (أي على السواحل جميعها سواء كانت تابعة لكورة دمشق او غيرها)

وجعل أبا عبيدة على حمص وخالد بن الوليد تحت يديه على قنسرين وعلى دمشق يزيد بن أبي سفيان وعلى الاردنّ معاوية (بعد شرحبيل) وعلى فلسطين علقمة بن مُجَزِّز وعلى الاهراء [٢] عمرو بن عبسة وجعل على كل عمل عاملاً فقامت مسالح مصر والشام والعراق على ذلك الترتيب الذي رتبه عمر (رض) الى عهد العباسيين

وذكر في فتوح البلدان ان معاوية كتب الى عمر بعد موت اخيه يزيد يصف له حال السواحل فكتب اليه في مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها واقامة الحرس على مناظرها [٣] واتخاذ المواقيد لها

---

(١) تقدم معنى المسالح والفروج في خبر فتوح سعد بن أبي وقاص

(٢) المخازن التي تخزن فيها الحبوب وغيرها من اموال الفيء

(٣) المناظر وتسمى لهذا العهد المناطير هي قباب مبنية على رؤس الجبال العالية بين كل بلد وآخر بحيث يتقارب بعضها من بعض ويشرف بعضها على بعض وكان يقام فيها حراس يوقدون النار عند ما يرون اقبال العدوّ من جهتهم فيوقد حراس المنظار الذي يليهم كذلك وهكذا حتى يصل الخبر الى المدينة أو الثغر أو مسلحة في زمن قليل فيسرعون لامداد الجهة التي أقبل منها العدوّ ولم تزل آثارها قائمة الى الآن في كثير من انحاء سورية وقد شاهدت بنفسي المناطر القائمة على الجبال بين دمشق وحمص الى ما فوق ومعظم الموجود من بقاياها الى الآن هو من آثار الدول التركمانية والكردية والجركسية التي شيدوها في أيام الحروب الصليبية وعنوا بها اعتناء عظيماً جداً

وكذلك كان تقسيم العراق وفارس فكان ذلك الوجه قسمين قسم تابع للبصرة وعليه عتبة بن غزوان ثم المغيرة بن شعبة ثم أبو موسى الاشعري وقسم تابع للكوفة وعليه سعد بن أبي وقاص ثم عمار بن ياسر ثم غيره وغيره وكانت عمالة عامل هذا القسم اي قسم الكوفة كما في رواية ابن جرير الطبري تمتد ما بين الكوفة وحلوان والموصل وما سبذان وقرقيسياء الى البصرة ثم امتدت هذه العمالة حتى تجاوزت فارس الغربية وكانت تقسم الى أقسام عليها عمال من قبل عامل الكوفة وكانت مسالحها وثغورها مما يلي الجزيرة وارمينيا الموصل وقرقيسياء وثغورها فيما يلي فارس تابعة لتقدم الجيوش في الفتح وتجاوزها حدود البلاد الاسلامية بالطبع

وكان يتبع كل امير حرب كاتب وقاض يقضي بين الناس كما رايت في باب تعبية الجيش وغيره ويتبعه امير يسمى عامل الاقباض يحصي الغنائم فاذا فتحت البلاد وتقررت الجباية كان عامل الخراج وكان عامل الاقباض في حرب فارس السائب بن الاقرع وعامل الخراج النعمان بن مقرّن ثم غيره وغيره وقد مر بيان ذلك في غضون اخبار الفتح فلا حاجة للمزيد

وأنت ترى ان ذلك الترتيب هو غاية في اصابة الغرض وبعد النظر في تنظيم شؤون الدولة بالنسبة لذلك العصر وربما نحا عمر (رض) في بعضه نحو فارس والروم ولعله بدئ ساذجاً ثم ترقي بترقي المسلمين وتقدمهم في الفتح في خلافة عمر (رض) بحيث تم هذا الترتيب في سنة (١٧) كما رأيت

(ضرب النقود)

كانت العرب قبل الاسلام تتعامل بالنقود الفارسية والرومية من الدرهم والدينار واستمر ذلك الى ان جاء الاسلام ومضى صدر من خلافة عمر وكان الشائع استعماله بينهم يومئذ الدرهم البغلية وهي دراهم فارس وكان وزن هذا الدرهم

زنة مثقال من الذهب فلما كانت سنة (١٨هـ) ضرب عمر الدراهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير انه زاد في بعضها الحمدلله وفي بعضها محمد رسول الله وجعلها في أواخر خلافته كل عشرة دراهم بزنة سبعة مثاقيل كما ذكر ذلك المقريزي في النقود الاسلامية الاّ انّ عمر (رض) لم يضرب الدينار وانما ضربت الدنانير على عهد عبد الملك بن مروان. وأما نسبة الدرهم الى الدينار فقد كانت تختلف باختلاف الزمان كما سنذكر ذلك في سيرة عبد الملك بن مروان ان شاء الله : وأما نسبة الدرهم والدينار الى نقود هذا الوقت لا باعتبار الوزن بل باعتبار قيمة المقومات من كل شيء بالدرهم أو الدينار فذلك يحتاج أولاً الى الوقوف على نسبة حقيقية لاجور العمال بالدرهم في صدر الاسلام ليقاس عليها مثلها في هذا العصر وتعلم القيمة الاعتبارية يومئذ للدرهم وتقاس على مثلها في هذا العصر وكل ماقيل من هذا القبيل اذا لم يُبْنَ على ذلك التقدير الصحيح فحدس وتخمين ليس من الحقيقة على شيء لان الدرهم من الفضة دنيء القيمة الآن اذ ربما ساوى كل أربعين درهماً باعتبار الوزن ديناراً والدينار يتراوح ثمنه بين ١٢ فرنكاً و ١٦ فرنكاً وهـذه القيمة ربما كانت في بعض بلاد أوروبا لهذا العهد قيمة أجرة عاملين أو ثلاثة وفي بعض بلاد المشرق قيمة أجرة أربعة عمال الى الثمانية من ذوي المهن لاما يسموه العمل البسيط

فالدرهم والدينار لا يصح ان يكون قيمتهما الاعتبارية في صدر الاسلام كقيمتهما الآن بل أغلى وربما كان الدينار أجرة عشرين عاملاً أو أكثر والفرق بينهما لا يعلم الاّ من تحقيق عمل العامل في ذلك الوقت وعسانا نتوفق الى الوقوف على حقيقة ثابتة من هذا القبيل فنبسطها عند الكلام على النقود الاسلامية في خلافة عبد الملك بن مروان ان شاء الله

(وضع البريد)

البريد اسم للمسافة التي بين كل محطة وأخرى من محطات البريد وهي أربعة فراسخ او أثنا عشر ميلا ثم أطلق على حامل الرسائل وتوسعوا به الآن فأطلقوه على أضبار (اكياس) البريد وأصله على ما يقال من وضع الفرس والذي رتبه دارا ملك الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد ثم استعمله الرومان وغيرهم من الأمم وربما نأتي على شيء من تفصيل خبره في غير هذا المحل

ثم استعمل في الاسلام وأقيم له عامل مخصوص يسمى عامل البريد وهو منفصل عن سلطة الولاة مكلف خلا عن أعمال البريد بنقل أخبار الولاة والبلاد لدار الخلافة وان يكتب المهم من هذه الاخبار للخليفة ليكون على علم من أحوال الرعية والولاة وقد كانت هذه الوظيفة تارة لصاحب البريد وتارة منفصلة عنه يسمى عاملها صاحب الاخبار وسنستقصي الكلام على هذا عند وصولنا الى الكلام على دولة الخلفاء من بني امية وبني العباس ان شاء الله

وروى المؤرخون ان أول من وضع البريد في الاسلام هو معاوية بن أبي سفيان ولعله هو أول من رتبه على أصول معروفة ووضع له الخيل وأقام له المحطات والا فالبريد استعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل معاوية اذ قد جاء ذكره كثيراً في سيرته ومنه ما مر في فصل علائقه مع الملوك عند ما قال عن الرسول الذي أتى بالعقد هدية من امبراطورة الروم انه بريد المسلمين وفي مناقب عمر للامام ابن الجوزي أنّ عمر لما أبعد نصر بن حجاج عن المدينة الى البصرة بسبب تغزل بعض النساء به قلق نصر للرجوع الى المدينة وكتب عمر الى عامله بالبصرة كتابا فمكث الرسول عنده أياما ثم نادى مناديه الا انّ بريد المسلمين يريد ان يخرج فمن كانت له حاجة فليكتب فكتب نصر بن حجاج كتابا ودسه في الكتب الى أمير المؤمنين

فمن هذا الخبر وغيره يستدل على أن أول واضع للبريد في الاسلام هو عمر ابن الخطاب الا انه ربما لم يكن على الوجه الذي كان بعد ولم يبلغ من الاتقان مبلغه في عصر الامويين والعباسيين وانما هو بدئ ساذجا ثم ترقى بترقي الزمان

﴿ تمصير البصرة والكوفة ﴾

مصرت البصرة سنة (١٥ هـ) عن يد عتبة بن غزوان بامر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكان في مكانها محل يسمى الخريبة تقيم فيه مسالح كسرى لتمنع العرب من العيث ومصرت الكوفة سنة (١٧ هـ) عن يد سعد بن أبي وقاص وكان البناء أولاً بالقصب فدب الحريق في الكوفة والبصرة فارسل سعد الى عمر نفراً يستأذنونه في البنيان باللبن (الطوب) فقال افعلوا ولا يزيد أحدكم على ثلاثة ابيات ولا تطاولوا في البنيان وكتب الى اهل البصرة بمثل ذلك فخططوا المناهج (الشوارع) على عرض عشرين ذراعا وطول أربعين ذراعا والازقة سبعة أذرع والقطائع ستين ذراعاً وبنوا المسجد الجامع في الوسط بحيث تتفرع الشوارع وكان أمرهم عمر بتخطيط الشوارع على ذلك الوجه الا انه لما ازدحمت السكان في المدينتين أخلوا بذلك الاصل ولم يراعوا حالة التنظيم فتقدموا في البناء في الشوارع والساحات حتى ازدحمت المنازل وضاقت الشوارع واختلت أصول التنظيم التي وضعها لهم عمر رضي الله عنه وانما كان الباعث على ذلك بعد القوم عن أسباب الحضارة وعدم مراعاتهم لاصول التأنق في البنيان لقرب عهدهم بالبداوة وقد عقد العلامة ابن خلدون فصلا بهذا الصدد في مقدمته الشهيرة أغنانا عن الكلام فليرجع اليه من شاء

﴿ التوسعة في المسجدين ﴾

في سنة (١٧ هـ) حج عمر (رض) فبنى المسجد الحرام ووسع فيه وهدم على

قوم أبوا ان يبيعوا دورهم ووضع أثمان دورهم في بيت المال حتى أخذوها واستأذنه أهل المياه التي على الطريق بين مكة والمدينة في ان يبنوا منازل في هذا الطريق فأذن لهم وشرط عليهم ان ابن السبيل أحق بالظل والماء. وكذلك صنع بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه هدمه ووسع فيه وأدخل دار العباس فيما زاد فيه

جملة مآثره

ومن مآثره ان أقام دور الضيافات وأدر عليها الارزاق : عن ابن سعد قال اتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج اليه يعين به المنقطع ووضع فيما بين مكة والمدينة في الطريق مايصلح من ينقطع به وفي بعض الروايات انه فعل مثل ذلك أيضا بالطريق بين الشام والحجاز (ومنها) انه مر يوم مجيئه الشام على قوم من المجذمين ففرض لهم شيئا من بيت المال ومنعهم بذلك عن التكفف بين الناس (ومنها) أمره عمرو بن العاص بمصر بحفر الترعة التي وصلت بين النيل وبين البحر الاحمر في عام الرمادة واستمرت كذلك الى عهد الفاطميين ثم ردمت كما سترى تفصيل الخبر عنها في سيرة عمرو بن العاص (ومنها) ما تقدم ذكره من حفر الترع واقامة الجسور في العراق العربي والعراق العجمي (ومنها) ماتقدم ذكره أيضا من وضع الديوان واقامة الكتاب له وفرض العطاء للعساكر والمجاهدين وتقسيم الجيوش وترتيبها كما ستراه مفصلا في سيرة سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه وغير ذلك من الآثار الجليلة التي تمكن من ايجادها ذلك الخليفة العظيم مع اشتغاله بالفتوح وانصراف همته لتوسيع نطاق سلطان الاسلام جزاه الله عن هذه الأمة خير الجزاء وربما نأتي على اجمال آخر من آثاره عند ذكر أوائله في غير هذا الباب ان شاء الله

باب

﴿ أخلاقه ومناقبه ﴾

(سياسته وعدله)

كانت العرب على جانب من خشونة الطباع وجفاء الخلق والاعتزاز بالعشيرة والأنفة عن الخضوع لحكم السلطان يعلمه من وقف على تاريخ هذه الامة ولما جاء الاسلام هذب أخلاق فريق منهم وهم الصحابة لمعاشرتهم للنبي عليه الصلاة والسلام ووقوفهم على حقائق الدين وإشراب قلوبهم حب الايمان والفريق الآخر الذين لم يتمكن من قلوبهم الاسلام لقرب عهدهم منه بقي في نفوسهم شيء من آثار الجاهلية لا ينتزعه الا تمادي الزمان لهذا لم يسع أبا بكر الصديق رضي الله عنه الا ان يعاملهم بالقوة الممزوجة بالرفق كما رأيت ذلك في سيرته وأخباره معهم أيام الردة ولما استخلف عمر رضي الله عنه وجد أن لا مناص له من ان يحذو في معاملتهم بالشدة عند الحاجة حذو أبي بكر خوف النزوع الى الثورة والخروج عن حدود الاسلام وقيود الاخوّة والرجوع الى الفرقة والشقاق والعصبية المضرة وقد كان رضي الله عنه شديداً بطبعه فساس أولئك الاقوام بمزيد الشدة والارهاب لما كان يتوقعه من حصول الفتن والدسائس ولو لم يقابل شدته اغراقه في العدل وكرمه في بذل المال وحكمته في وضع الثواب في محله والعقاب في محله لما استقام له امر الخلافة كما انه لو لم يستعمل مع العرب تلك السياسة لما استقام أمر المسلمين ولخيف من حصول فتن كبرى تنكمش لها أعصاب الاسلام كما حصل ذلك بعد وفاته رضي الله عنه الا انه لم يتأتَّ عن تلك الفتن من الضرر

مايوازي الضرر الذي كان يتأتى عنها فيما لو حصل ذلك في أوائل خلافة عمر (رض) وانما خف ضرر تلك الفتن بعدُ لان الاسلام كان ملأ أكناف الارض والعرب كلهم تفرقوا في أنحاء البلاد واشتغلوا بامور الفتح وذاقوا لذة الملك والسلطان وأسسوا ذلك الملك العريض الذي استحال ان تدكّ أساسه عواصف الفتن في خلافة عثمان وعلي ومعاوية رضي الله عنهم وانما كان الفضل في هذا لعمر بن الخطاب الذي أخذ على الأمة سبيل النزوع الى الجاهليه الأولى ودفعها في غمار الفتح وشغلها بمحاربة الامم عن محاربة نفسها ورباها على الخضوع لأولي الامر فيما لا يكون به حيف على النفوس ولا مساس بالدين ولا حجر على الحرية ولا تمييز بين الطبقات وهذا منتهى ماتوصف به رجال السياسة من الفضل والدهاء والعلم بسياسة الأمم وإحكام أمور الدول وحسب عمر انه كان كالشمس المشرقة على الآفاق لا تخفى عليه خافية من أمور الرعية ولا يفوته ظالم فينتصف منه أو مظلوم فينصفه حتى قيل ان علمه بمن نأى من عماله كان كعلمه بمن كان عنده لانه جعل عليهم عيونا حيثما كانوا ينقلون اليه أخبارهم في معاملة الرعية حتى كانت أخبار الجهات كلها عنده تأتيه بها البرد صباح مساء [1] وياويح العامل الذي تبدر منه بادرة أذى لاحد من

---

(١) هكذا حال الدول عند ما تبدأ في سلم الصعود ومتى انقلبت الى الهبوط انقلبت عندها هذه القاعدة رأسا على عقب فجعل الامراء العيون على الرعية لاعلى العمال ليكونوا عونا للولاة على الرعية كما هي الحال الآن في ممالك الاسلام حيث لايستطيع أحد ان يشكو ظلم العمال وسوء الاحوال حتى اوغل الولاة في الظلم وساموا الناس سوء العذاب وخربوا العمران وانتسر أمر الدول الاسلامية في الشرق والغرب واختل الملك وقوى عليها العدو وياويح من تبدر منه بادرة شكوى من هذا الخطب فانه للحال يزج به في ظلمات السجون أو ينفى من الارض وهذا ما جعل الاوربية لهذا العهد تتسلط على الممالك الاسلامية وترمي المسلمين بوصمة العجز عن ادارة شؤون حكومات

الرعية أو يهفو هفوة في شأن من الشؤون فانه لايلبث أن يأتيه نذير عمر بالعزل أو التأنيب من حيث لايشعر فلهذا ملأت رهبته القلوب وخافه العمال وانقاد له الناس واستكانت لديه النفوس العاتية

أخرج ابن الجوزي في المناقب عن عمر بن مرة قال : لقي رجل من قريش عمر فقال لن لنا فقد ملئت قلوبنا مهابة . فقال أفي ذلك ظلم . قال لا . قال فزادني الله في صدوركم مهابة . وأخرج عن عبد الله بن جبير انه سمع عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما يحدث قال . مكثت سنة وأنا أريد أن اسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن آية فلا أستطيع أن أسأله هيبة .
وأخرج ابن جرير في تاريخه عن زيد بن أسلم عن أبيه أن نفراً من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا : كلم عمر بن الخطاب فانه قد أخشانا حتى والله مانستطيع أن نديم اليه أبصارنا : قال فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر: فقال أوقد قالوا ذلك فو الله لقد لنت لهم حتى تخوفت الله في ذلك ولقد اشتددت عليهم حتى خشيت الله في ذلك . وايم الله لأنا أشد منهم فرقاً (خوفاً) منهم مني :
وأخرج ابن عساكر هـذا الحديث من طريق آخر وزاد عليه قول عمر : فاين المخرج وقام يبكي يجر رداءه ويقول عبد الرحمن بيده أف لهم بعدك : والظاهر ان عمر رضي الله عنه انما استعمل مع العرب هذه الشدة لعلمه باخلاقهم الجافية

وتلصق بهم عار الانحطاط الى دركات الضعة والذل واستسلامهم لعقيدة الرضا بالقضاء والصبر على الضيم ولو تخطفهم الامم وأصبحوا يساقون بعصا الاستعباد كاليهود ولقد شافهني مرة أحد علماء الالمان بكلام من هذا القبيل علمت منه مرتبتنا في نظر العالم المتمدن بين الامم وكنت والله لا أعلم أننا انتهينا في نظرهم الى هذا الحد فانا لله وانا اليه راجعون

وانهم ان تظاهر لهم باللين فقد فتح لهم باب الادلال والتعجرف المعروف فيهم يدلك على هذا مارواه الحافظ ابن عساكر عن الاصمعي قال: كلم الناس عبد الرحمن بن عوف ان يكلم عمر بن الخطاب في ان يلين لهم فانه قد أخافهم حتى اخاف الابكار في خدورهن: فكلمه عبد الرحمن فالتفت عمر اليه فقال: ياعبد الرحمن اني لا اجد لهم الا ذلك والله لو انهم يعلمون ما لهم عندي من الرأفة والرحمة والشفقة لاخذوا ثوبي من عاتقي: والذي زاد عمر هيبة في النفوس انه كان لا يراعي في الحق كبيراً ولا يبالي شريفاً ولا أميراً الا فيما تقضي به الضرورة السياسية وهذا فيما لا يمس به حق من حقوق الرعية ومن هذا القبيل حكايته المشهورة مع جبلة بن الايهم ملك غسان فانه لما أسلم ووفد على عمر بن الخطاب بأبهة الملك وحشمه تلقاه عمر بالترحيب وبينما هو يطوف يوما وطئ على إزاره اعرابيّ من بني فزارة فضربه على وجهه فشكاه الاعرابي الى أمير المؤمنين فاستدعى عمر جبلة وقال له اما ان ترضيه واما ان يضربك كما ضربته فكبر ذلك على جبلة وقال الا تفرقون بين الملك والسوقة: قال لا قد جمع بينكما الاسلام: فاستمهله الى الغد ثم أخذ قومه وفر بهم ليلا ولحق بالامبراطور هرقل بالقسطنطينية فارسل عمر من يسترضيه فابى الرجوع وهذه مرتبة من انصاف الرعية واقادتهم حتى من الملوك لم يبلغها أحد غير عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ومن بدائع اخباره في انصاف افراد الرعية من الولاة ما نقله في حسن المحاضرة عن أنس قال أتى رجل من اهل مصر الى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم: قال عذت معاذاً: قال سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربني بالسوط ويقول أنا ابن الاكرمين: فكتب عمر الى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه عليه فقدم: فقال عمر أين المصري خذ السوط فاضرب فجعل

يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الاكرمين ثم قال للمصري ضعه على صلعة عمرو : قال يا أمير المؤمنين انما ابنه الذي ضربني وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو : مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احراراً : قال ياامير المؤمنين لم اعلم ولم يأتني (يعني) المصري

هذا منتهى الانصاف للرعية والعدل بين طبقات الامة وبمثله علم الناس ان لا كبير فوق الحق ولا امير الا دون الشريعة حتى نفسه رضي الله عنه فقد كان ينصف غيره منها ولا يعتبر نفسه امام الحق والعدل الا كواحد من الناس فقد جاء في كنز العمال عن الشعبي قال كان بين عمر وبين أبي بن كعب خصومة فقال عمر اجعل بيني وبينك رجلا . فجعلا زيد بن ثابت فاتياه فقال عمر اتيناك لتحكم بيننا وفي بيته يؤتى الحكم .فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال ههنا يا امير المؤمنين . فقال له عمر هذا اول جور جرت في حكمك ولكن اجلس مع خصمي فجلس بين يديه فادعى أبي وانكر عمر فقال زيد لابي اعف لامير المؤمنين من اليمين وما كنت لاسألها لاحد غيره فحلف عمر ثم اقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض الناس عنده سواء (وفيه) عن عبد الله بن عكيم قال قال عمر بن الخطاب .انه لا حلم احب الى الله تعالى من حلم امام ورفقه ولا جهل ابغض الى الله تعالى من جهل امام وخرقه ومن يعمل بالعفو فيما بين ظهريه تأتيه العافية ومن ينصف الناس من نفسه يعطى الظفر في أمره والذل في الطاعة أقرب الى البر من التعزز بالمعصية : وخلا هذا فقد كان رضي الله عنه حريصا على ان لا يشكي منه ويرشد الى كل ما فيه راحة الناس وسلامة الامة وتنكب طرق الخطأ او الجور حتى بلغ به الامر ان كان كلما اجتمع اليه ناس من الامصار او جماعة من كبار الصحابة يسألهم عن سيرته بين الناس ويستطلع

طلع ضمائرهم من جهة سياسته في الرعية ولا يأبى قبول النصيحة (ومن) ذلك ما جاء في كنز العمال عن النعمان بن بشير ان عمر بن الخطاب قال في مجلس وحوله المهاجرون والانصار . أرأيتم لو ترخصت في بعض الامور ما كنتم فاعلين فسكتوا فقال ذلك مرتين أو ثلاثا . فقال بشير بن سعد لو فعلت ذلك قومناك تقويم القِدح (وهو السهم المعوج قبل ان يراش وينصل) فقال عمر . أنتم اذن أنتم اذن (استحسانا لقولهم) . وفي مناقب عن عبد الجبار بن عبد الواحد النوخي قال قال عمر (رض) وهو على المنبر أنشدكم الله لا يعلم رجل مني عيباً الا عابه فقال رجل نعم يا امير المؤمنين تذيل بين البردين وتجمع بين الادمين ولا يسع ذلك الناس قال فما أذيل بين بردين ولا جمع بين أدمين حتى لقي الله . وقوله يذيل بين بردين اي يلبس قميصا وشملة ويلبس غيره (وذكر بعض المؤرخين ان عمر خطب يوما فقال أيها الناس من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه . فقام رجل وقال والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . فقال عمر . الحمد لله الذي وجد في المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه

لأني لا أتف [illegible] حسبت وفي [illegible]

قبل [illegible] الاخبار . وانت ترى من [illegible] الاخبار [illegible]

حرية الضمائر وحب [illegible]

الحق وتمسك [illegible]

الي [illegible] لاضرتهم [illegible] وسودت [illegible] كم سودت

المؤمنين [illegible] تخذو [illegible]

لله فتذفو [illegible]

وفي كنز العمال عن [illegible] بن شهاب العبدي قال قال عمر بن الخطاب [illegible]

الرعية إن لنا عليكم حق النصيحة بالغيب والمعاونة على الخير وانه ليس شيءٌ أحب الى الله تعالى وأعم نفعاً من حلم امام ورفقه وليس شيءٌ أبغض الى الله تعالى من جهل امام وخرقه

(ومن سياسته) في تقويم أخلاق الناس وحملهم على المحجة الواضحة في الاعمال وان لهم ماتكنه السرائر ماجاء في كنز العمال أيضا من حديث عتبة بن مسعود قال . سمعت عمر بن الخطاب يقول . ان ناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وان الوحي قد انقطع وانما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم فمن أظهر لنا خيراً آمناه وقربناه وليس لنا من سريرته شيءٌ الله يحاسبه في سريرته . ومن أظهر لنا شراً لم نأمنه ولم نصدقه وان قال ان سريرته حسنة . وانما يعرض بهذا بالمنافقين تنبيها لهم الى انه مراقب لاعمالهم

ومع انه كان يأخذ الناس بهذه الطريقة ويحملهم على الاستقامة في الاعمال فانه كان يحذرهم من خيانة السرائر وينهاهم عن التردد في الامور ويرشدهم الى الجمع بين العزيمة والنية سوقاً لهم الى الاستقامة في العمل والحزم في الرأي فقد أخرج ابن جرير الطبري في تاريخه عن عمر بن مجاشع قال . قال عمر بن الخطاب القوة في العمل ان لاتؤخر عمل اليوم لغد . والامانة ان لا تخالف سريرة علانية واتقوا الله عز وجل فانما التقوى بالتوقي ومن يتق الله يقه .

وهكذا رضي الله عنه كان في رعيته كالوالد الرؤف يواليهم بالنصائح ويرشدهم الى سبيل الخير والسعادة ويأمرهم بالتقوى والعدل والتألف والاجتماع وينهاهم عن التحزب والتفرق وخصوصا قريشا فانه كان لاينام لهم على أمر ولا يدعهم ساعة من نصيحة لانهم قدوة الناس وأئمة العرب

أخرج الطبري عن ابن عباس أن عمر قال لناس من قريش بلغني انكم

تتخذون مجالس لايجلس اثنان معاً حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان حتى تحوميت المجالس وأيم الله ان هذا لسريع في دينكم سريع في شرفكم سريع في ذات بينكم ولكأني بمن يأتي بعدكم يقول هذا رأي فلان . قد قسموا الاسلام أقساماً .أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معاً فانه أدوم لالفتكم وأهيب لكم في الناس اللهمّ ملوني ومللتهم وأحسست من نفسي وأحسوا مني ولا ادري باينا يكون الكون وقد اعلم انّ لهم قبيلا منهم فاقبضني اليك .

ومن جميل سياسته انه كان يعلم من نفسه الشدة فلا يرضى لعماله ان يكونوا مثله لهذا عزل خالد بن الوليد عن الامارة وجعل بدله أبا عبيدة بن الجراح وكان عماله جميعهم ممن عرفوا باللين والاناة كأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص وعتبة ابن غزوان وحذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وأضرابهم الا بعض القواد فربما كانوا على شيء من الشدة وذلك يكون في منشئهم بالطبع ومع شدته رضي الله عنه فقد كان يوصي عماله بالرفق والعدل والاناة وعدم الايغال في العقوبة وبلغ به كرهه الايغال في العقوبة ان أرسل مرة الى أبي موسى الاشعري وقد اشتد في العقوبة على بعضهم يهدده بالعقاب اذا عاد الى مثلها

جاء في كنز العمال عن ابن عمر قال : كنت مع عمر في حج أو عمرة فاذا نحن براكب : قال عمر أرى هذا يطلبنا : فجاء الرجل فبكى : قال ما شأنك ان كنت غارماً أعناك وان كنت خائفاً أمناك الا أن تكون قتلت نفساً فتقتل بها وان كنت كرهت جوار قوم حولناك عنهم : قال اني شربت الخمر وأنا احد بني تيم وان أبا موسى جلدني وحلقني وسود وجهي وطاف بي الناس وقال لاتجالسوه ولا تؤاكلوه فحدثت نفسي باحدى ثلاث . اما أن أتخذ سيفاً فأضرب به أبا موسى . واما أن آتيك فتحولني الى الشام فانهم لا يعرفوني : واما

ان الحق بالعدو فآكل معهم واشرب : فبكى عمر. قال مايسرني انك فعلت وان لعمر كذا وكذا واني كنت لاشرب الناس لها في الجاهلية وانها ليست كالزنا . وكتب الى ابي موسى ما صورته

سلام عليك اما بعد فان فلان بن فلان التيمي أخبرني بكذا وكذا وأيم الله اني ان عدت لاسودن وجهك ولاطوفن بك في الناس فان أردت أن تعلم حق ما أقول فعد . فأمر الناس أن يجالسوه ويؤاكلوه فان تاب فاقبلوا شهادته . وحمله عمر (أي أركبه) واعطاه مائتي درهم

ومن جميل سياسته اهتمامه باهل الذمة الذين دخلوا في عهد المسلمين وسلطانهم من الشعوب غير المسلمين و وصاياه للعمال بالحرص على راحتهم وتجنب ظلمهم واذاهم وبلغ اهتمامه بهم ان كان اذا غابت عنه أخبارهم أو بلغه أقل شيء عنهم يستدعي ذوي امانة من المسلمين الذين أقاموا في بلادهم ويسألهم عن أحوالهم ويستقصي سيرة العمال معهم ومن ذلك ما رواه الطبري في تاريخه أن عمر (رض) كتب الى أمير البصرة أن يبعث له جماعة من ذوي الرأي والبصيرة فارسل اليه وفداً فيهم الاحنف بن قيس فسألهم عن أهل الذمة وهل يشكون ظلماً أو حيفاً فاجابوه بالسلب ولم يطمئن لقولهم حتى استوثق من الاحنف وكان يثق بصدقه ثم صرفهم

ومن أجمل ما يؤثر عنه من الرفق باهل الذمة ماجاء في كنز العمال أن عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسئل على ابواب المساجد فقال ما أنصفناك كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه

ومن حسن سياسته تقدمه الى قواده بان لا يمسكوا الجند في الغزو أكثر من اربعة أشهر وسببه انه كان يطوف ليلة بالمدينة على عادته فسمع امرأة من وراء بابها تقول

تطاول هذا الليل واسودّ جانبه ... وأرقني أن لاخليل ألاعبهُ
فلولا حذار الله لاشيء مثله ... لزُحزح من هذا السرير جوانبُه

فكتب عمر الى عماله ان لاينيب أحد بالغزو : ونعم الرأى

ومن سياسته توقيفه الحدود عند الضرورة الداعية لذلك فقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن حكيم بن عمير قال كتب عمر بن الخطاب ألا لا يجلدنّ أمير جيش ولا سرية أحداً الحد حتى يطلع الدرب لئلا تحمله حمية الشيطان ان يلحق بالكفار

ومن سياسته انه كان يحبس عن العمل كثيراً من كبار الصحابة منهم من كان لايستعمله خوفاً على دينه من أن يدنسه بالولاية فقد أخرج ابن سعد عن عمران بن عبد الله قال : قال أبي بن كعب لعمر بن الخطاب ما لك لاتستعملني : قال أكره أن يدنس دينك

ومنهم من لايستعمله خشية أن يجترئ على رقاب الناس أو خشية أن تحدثه نفسه بالامارة اذا بعد عن مراقبته وهؤلاء هم بنو هاشم لما كان يتوسمه فيهم من التطلع الى الامارة في مروج الذهب للمسعودي عن عبد الله بن عباس أن عمر أرسل اليه فقال يا ابن عباس ان عامل حمص هلك وكان من أهل الخير وأهل الخير قليل وقد رجوت أن تكون منهم وفي نفسي منك شيء لم أره منك وأعياني ذلك فما رأيك في العمل قال لن أعمل حتى تخبرني بالذي في نفسك . قال وما تريد الى ذلك . قال أريده فان كان شيء أخافه على نفسي خشيت منه عليها الذي خشيت وان كنت بريئاً من مثله علمت أني لست من أهله فقبلت عملك هنالك فاني قلما رأيتك طلبت شيئاً الا عاجلته : فقال يا ابن عباس اني خشيت أن يأتي علي الذي هو آت وأنت في عملك فتقول هلم الينا ولا هلم اليكم دون غيركم :

اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وتركَكم : قال (اي ابن عباس) والله قد رأيت من ذلك فلم تراه فعل ذلك : قال (أي عمر) والله ما ادري أضن بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم أم خشي أن تبايعوا بمنزلتكم منه فيقع العقاب ولا بد من عتاب فقد فرغت لك فما رأيك قال: (أي ابن عباس) أراني لا أعمل لك : قال ولم : قلت ان عملت لك وفي نفسك مافيها لم أبرح قذى في عينك قال : فأشر عليّ ؟ قلت اني أرى ان تستعمل صحيحا منك صحيحا لك

ومن سياسته تقدمه الى العمال بان لا يأذنوا لاحد من جنود المسلمين ان يزرع أو يزارع في البلاد المفتتحة وان لا يقطعوا أرضاً لاحد منهم البتة وذلك لامور الامر الاول كي لا يزاحم المسلمون أهل الذمة والعهد في أرضيهم و يضيقوا عليهم في معيشتهم والامر الثاني كي لا يألف الجند الاعمال في الارض في إبان الفتح فتميل نفوسهم الى الراحة من عناء الحرب والأمة حربية لم يأن لها اطراح لامة القتال واعتزال الحرب والاخلاد الى الراحة والترف والامر الثالث كي تبقى الارض في يد أهلها مادة تستمد منها الدولة مايقوم بشؤونها العسكرية والادارية ولا يحتكرها المقتطعون من جنده فتعدم مادة القوة عن الدولة الاسلامية فيما بعد ولا تجد من المال مايكفي لمن يقوم من الجند بحراسة البلاد وقد مرّ الشاهد على سياسته هذه في غير محل من هذا الكتاب ومنه ما كتبه الى عمال العراق وعمرو بن العاص في مصر كما رأيت ذلك في فصل (كيف يكون الاستعمار) وأخباره في سياسته طويله نكتفي منها بما تقدم دلالة على الباقي

﴿ نظرة في بعض الاخبار المتعلقة باهل الذمة ﴾

قد رأيت في هذ الباب وفي باب اجلاء عمر لاهل نجران وسترى في باب اخباره واقواله كيف كانت سياسة عمر مع اهل الذمة وكيف كان شديد الحرص

على راحتهم حاثاً للعمال على انصافهم وعدم ايذائهم ومن كان هذا شأنه مع القوم فيستحيل على العقل التصديق بما يناقض سيرته هـذه معهم وقد اورد بعض ارباب السير ونقلة الحديث خبرين عن عمر يتعلقان بأهل الذمة احدهما امره لعامله في العراق بختم رقاب أهل الذمة من الفرس بالرصاص : والثاني تقدمه الى العمال ان لايحدث النصارى في امصار المسلمين (أي التي مصرها المسلمون خاصة كالبصرة والكوفة) بيعة ولا يرفعوا صليبا على ان هذين الخبرين وما شابههما قد وهن روايتها أهل الحديث وحفاظه وقالوا إنها موضوعة وقد اورد الامام الشوكاني في نيل الاوطار الحديث الثاني عن البيهقي وعن الحافظ الحراني باختلاف بينهما باللفظ وقال عن الاول في اسناده ضعف وعن الثاني في اسناده حنش وهو ضعيف. ويريد بحنش احد المطعون بهم في رواية الحديث .

فلا ندري ما هو الباعث الذي للوضاعين على وضع امثال هذه الاحاديث أهو الجهل بمقاصد الاسلام الذي جاء للتأليف بين القلوب والتعارف بين الشعوب (ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم) ام ذلك شيء دس في الاخبار وتناقله الرواة مع الغفلة عن مقاصد الشرع

ليس بعجيب على الكذابين والمنافقين او الجاهلين ان يدسوا ماشاؤوا في الاخبار انما العجيب ان ينقلها بعض المؤرخين والعلماء الأعلام على علاتها كما نقل ابن الجوزي وهو امام معروف الخبر الثاني في مناقب عمر دون التنبيه على ضعفه وانما جرّ بلاء التشيع ونفث روح التفرق وانسى المسلمين اصول التألف والتحابب حتى بين انفسهم انتشار امثال هذه الاحاديث والاخبار في كتب الخاصة مع علمهم بان منها الكاذب ومنها ضعيف السند وانما دعاهم الى نقلها توهم

انما قربى يتقرب بها الى الدين او يتعصب بها له مع ان التعصب للدين هو التمسك به والذود عن حوضه واعزاز جانبه وجانب اهله بارشادهم الى ان السيادة على الامم انما هي بمسابقتهم في مضمار الحياة الاجتماعية الا بايذاء الغير في دينه وحريته والله تعالى يقول (لكم دينكم ولي دين) ولو اراد الاسلام ايذاء الذمي في حريته الدينية والشخصية لامر باكراه اهل الكتاب على الاسلام كما أمر باكراه مشركي العرب . ومن ثم فلو فرض ورود امثال تلك الاخبار سواء عن عمر (رض) أو عن غيره فلا ينبغي لها ان تحمل على ما يناقض اصول الدين بل تحمل على الضرورة السياسية التي ربما تدعو اليها سياسة الفتح كما يدل عليه تخصيص امر عمر لو صح الخبر عنه بعصر مخصوص اذ لا بد لكل فاتح من اظهار الشدة في بادئ الامر بما يشبه ما يسمونه الآن الادارة العرفية او العسكرية ريثما تثبت قدمه في البلاد وتسكن الى حكمه نفوس المغلوبين هذا من جهة ومن جهة ثانية فربما كان لجدة العرب في الدين وعدم تمكن عقائدهم منه لقرب عهدهم به دخل في مثل تلك السياسة التي يراد بها المحافظة على عقائد العرب يومئذ من ان يتطرق اليها اهل جوارهم من الكتابيين بشيء من الافساد لقرب عهدهم بالوثنية واغراقهم في الجهل كما كان لهذه السياسة دخل في اجلاء اهل نجران ومن هذا القبيل الخبر الذي نحن بصدد الكلام عليه وهو خبر تقدم عمر الى عماله بعدم احداث النصارى بيعاً في الامصار التي مصرها المسلمون هذا على فرض صحته وهو لم يصح كما رأيت وعلى هذا التقدير ينبغي ان يحمل كل ماجاء من الاحاديث والاخبار التي من هذا القبيل لا على قصد ايجاد النفرة بين المسلمين واهل الكتاب لاسيما والمحذور الذي كان يدور في خلد الصحابة ويخشاه النبي صلى الله عليه وسلم على العرب يومئذ كان قد زال بزوال اسبابه ولا يحمل هذه الاخبار على غير هذا المحمل الذي بسطناه

الا جاهل بمقاصد الاسلام غير عالم بان الدين الذي يأمر أهله بمعاشرة أهل الذمة بالمعروف ومعاملتهم بالانصاف وعدم ايذائهم في حال من الاحوال لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم لا يناقض نفسه ويأتي بما يخالف عدله ولكن العقلاء الذين يضعون الامور موضع النقد والمحاكمة قليل وآفة العلم الفهم بما يوافق الهوى لا الحق والسلام

أخباره مع عماله
ووصاياه لهم

كان رضي الله عنه شديد المراقبة لعماله كثير السؤال عن سيرتهم واخبارهم وبلغ به ذلك ان اقام عليهم العيون يوافونه بأخبارهم وجعل احد الصحابة وهو من اهل التقى والصدق واسمه محمد بن مسلمة قاصاً اي محققاً لاخبارهم ومقتصاً لآثارهم فاذا شكا احد من الرعية احداً من العمال رسل محمداً المذكور يقتص الخبر ويحقق الشكوى تحقيقاً علنياً لا في السر كي لا يؤخذ العامل بوشاية واش وسعاية مفتر فيذهب ويجمع اليه الناس في المسجد وربما طاف عليهم في أحيائهم يسألهم عن علمهم بسيرة الامير وباسباب الشكوى منه ومن ذلك ما ذكره الطبري في تاريخه عند الخبر عن ارسال الجيوش الى نهاوند في اخبار سنة (٢١) قال ونزل بسعد (اي ابن ابي وقاص) قوم والبوا عليه فيما بين تراسل القوم وجمعهم الى نهاوند ولم يشغلهم ما دهم المسلمين من ذلك وكان ممن نهض الجراح بن سنان الاسدي في نفر فقال عمر ان الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الامر وقد استعد لكم من استعد وايم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وان نزلوا (يعني الفرس) بكم فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للاعاجم والاعاجم في الاجتماع وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العمال الذي يقتص آثار

من شكى زمان عمر [1] فقدم محمد على سعد ليطوّف به على أهل الكوفة والبعوث تضرب على أهل الامصار الى نهاوند فطوّف به على مساجد أهل الكوفة لا يتعرض للمسئلة عنه في السر وليست المسئلة في السرّ من شأنهم اذ ذاك . وكان لا يقف على مسجد فيسئلهم عن سعد الاّ قالوا لا نعلم الاّ خيراً ولا نشتهي به بدلا ولا نقول فيه ولا نعين عليه : الاّ من مالأ الجراح بن سنان وأصحابه فانهم كانوا يسكتون ولا يقولون سوءاً الا ان قال الطبريّ وخرج محمد به (أي بسعد) وبهم الى عمر حتى قدموا عليه فاخبره الخبر فسأله عمر عن أوجه الشكوى فانكرها ولم يسعهم إثباتها فردهم عمر وخشى اذا أبقى سعداً على الكوفة أن يكون بينهم وبينه أمر فعزله احتياطاً وسأله من خليفتك على الكوفة فقال له عبد الله بن عبد الله بن عتبان فأقرّه

ومنه تعلم كيف كان رضي الله عنه مراقباً لعماله كثير التحقيق عن أخبارهم لا يتعجل في أمرهم اذا جاءته شكاية على أحدهم بل يتثبت الخبر بنفسه ويحققه بمواجهته فان ثبت عليه شيء مما يدعيه الشاكي عزله وله بهذا الصدد أخبار كثيرة مع عماله ربما نأتي على شيء منها في سيرة أشهر المشهورين من رجاله ان شاء الله تعالى

وكان رضي الله عنه لا يحب أن يفرق عماله في المعاملة بين الحر والعبد ولا بين القويّ والضعيف أخرج بن جرير الطبري عن الاسود بن يزيد قال كان الوفد اذا قدموا على عمر (رض) سألهم عن أميرهم فيقولون خيراً فيقول هل يعود مرضاكم فيقولون نعم فيقول هل يعود العبد فيقولون نعم فيقول كيف صنيعه بالضعيف وهل يجلس على بابه فان قالوا لا عزله

(١) وظيفة محمد بن مسلمة هذه تشبه وظيفة المفتشين لهذا العهد

وكان رضي الله عنه لا يغفل عن أن يرسل الاوامر الى عماله تباعاً في أن يعدلوا ولا يظلموا ولا يأخذوا بالظنة ولا يبغوا أو يغدروا ومن ذلك انه لما وفد عليه الاحنف بن قيس وسأله عن حالة الذمة في ولاية البصرة وصرفه كما تقدم الخبر عن ذلك في الفصل السابق كتب معه كتاباً الى عتبة بن غزوان أمير البصرة يوصيه فيه باهل الذمة هذه صورته (عن تاريخ الطبري)

أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا ان يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغي فانكم انما ادركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم اليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عونا وناصراً

وبلغه مرة ان حرقوصاً عامله على الاهواز نزل جبل الاهواز والناس يختلفون اليه والجبل كؤود يشق على من رامه فكتب اليه ما صورته نقلا عن تاريخ الطبري في حوادث سنة (١٧)

(أما بعد) بلغني انك نزلت منزلاً كؤوداً لا تؤتى فيه الا على مشقة فأسهل ولا تشق على مسلم ولا على معاهد وقم في أمرك على رجل تدرك الآخرة وتصفو لك الدنيا ولا تدركنك فترة ولا عجلة فتكدر دنياك وتذهب آخرتك

هذه لعمري الرأفة بالرعية وهذا منتهى الحنان وغاية الحرص على راحة الناس فالهم ان خليفة لا يغفل حتى عن امثال هذه الجزئيات لخليفة لا يخنه زمن ولا يوهن له سلطان ولا تمحى ذكره عن صفحات الجنان فرضي الله عنه وارضاه

ومن وصاياه للعدل ما اخرجه الطبري عن ابي عمران الجوني قال كتب عمر الى ابي موسى: انه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجهم فاكرم من قبلك من وجوه الناس وبحسب المسلم الضعيف من العدل ان ينصف في الحكم وفي القسم

ومراده بهذه الوصية أن يكرم أبو موسى وجوه الناس ليألفوه ويرفعوا اليه حوائج المسلمين وأمور الضعفاء كي يكون عارفاً بحاجات الرعية من كل الطبقات فينصف هذا في الحكم وذلك في القسم ولا يفوت عدله فرداً من أفراد الرعية الذين لا يصلون اليه

وأخرج عن أبي فراس قال خطب عمر بن الخطاب فقال: يا أيها الناس اني والله ما ارسل عمالاً اليكم ليضربوا ابشاركم ولا يأخذوا اموالكم ولكني أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم (وفي رواية ويقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل) فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه اليّ فوالذي نفس عمر بيده لاقصنه منه [1] فوثب عمرو بن العاص فقال يا امير المؤمنين أرأيت ان كان رجل من امراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته انك لتقصه منه: قال اي والذي نفس عمر بيده اذاً لأقصنه منه وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه. ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم

وعن أبي رواحة قال كتب عمر بن الخطاب الى العمال: اجعلوا الناس عندكم في الحق سواء قريبهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبهم اياكم والرُشا والحكم بالهوى وان تاخذوا الناس عند الغضب فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار

وروى الطبري ان عمر كان يقول في عماله: اللهم اني لم أبعثهم ليضربوا أبشارهم من ظلمه أميره فلا امرة عليه دوني: ومع كل هذا التشديد على العمال فانه رضي الله عنه كان دائماً قلقاً على الرعية خائفاً من ان يجار عليهم بامر لا يصله

(١) يعني يمكن خصمه من الاقتصاص منه أو يقتص له منه

خبره لهذا عزم قبيل قتله ان يسافر ويطوف على العمال جميعهم ليبحث عن أمور الرعية ويقضي حاجاتهم : فقد أخرج الطبري عن الحسن قال : قال عمر بن الخطاب لئن عشت ان شاء الله لاسيرن في الرعية حولاً فاني أعلم ان الناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم فلا يرفعونها الي وأما هم فلا يصلون الي فأسير الى الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير الى الجزيرة فأقيم بها شهرين ثم أسير الى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير الى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البصرة فأقيم بها شهرين والله نعم الحول هذا. ونحن نقول نعم الخليفة هذا ولا والله لا يخلفه خليفة في المسلمين ولا يدانيه ملك من ملوك الارض أجمعين

هكذا كان قلقه على الرعية وتطامه الى أخبار العمال مع تحريه في انتخابهم أهل الامانة والتقى والكفاءة لولاية أمور الرعية حتى كان أكثر عماله ناهجين في العدل منهجه سالكين في الزهد والورع والعفة طريقه فمن عماله سلمان الفارسي وكان عامله على المدائن وكان على جانب من الزهد والتقى والصلاح عظيم فكان يلبس الصوف ويركب الحمار ببرذعته بغير إكاف ويأكل خبز الشعير فلما احتضر بالمدائن قال له سعد بن أبي وقاص يا أبا عبد الله أذكرك الله عند همك اذ هممت وعند لسانك اذا حكمت وعند يدك اذ قسمت : فجعل سلطان يبكي فقيل يا ابا عبد الله ما يبكيك : قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان في الآخرة عقبة لا يقطعها الا المخفون وأرى هذه الاسودة (جمع سود وهو المال الكثير) حولي فنظروا فلم يجدوا في البيت الا دوة وركوة ومطهرة

وكان عامله على الشام أبا عبيدة بن الجراح وكان يظهر للناس وعليه الصوف الجافي فعذل على ذلك وقيل له انك بالشام وأمير المؤمنين وحولنا الاعداء فغير من زيك وأصلح من شارتك : فقال ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر

رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكان عامله على حمص سعيد بن عامر بن حذيم فشكاه أهل حمص اليه وسألوه عزله : فقال عمر اللهم لاتفل فراستي فيهم . ماذا تشكون منه : قالوا لايخرج الينا حتى يرتفع النهار ولا يجيب أحداً بليل وله يوم في الشهر لايخرج الينا : فقال عمر عليّ به فلما جمع بينه وبينهم فقال ماتنقمون منه : قالوا لايخرج الينا حتى يرتفع النهار : فقال ماتقول ياسعيد : فقال ياأمير المؤمنين انه ليس لاهلي خادم فاعجن عجيني ثم اجلس حتى يختمر ثم اخبز خبزي ثم أتوضأ وأخرج اليهم : قال وماذا تنقمون منه . قالوا لا يجيب بليل . قال قد كنت أكره أن أذكر هذا اني جعلت الليل كله لربي وجعلت النهار لهم .قال وما ذا تنقمون منه . قالوا له يوم في الشهر لايخرج الينا . قال نعم ليس لي خادم فاغسل ثوبي ثم اجففه فامسي . فقال عمر الحمد لله الذي لم يفل فراستي فيكم يااهل حمص فاستوصوا بواليكم خيراً . ثم انّ عمر بعث اليه بالف دينار وقال استعن بها . فقالت له امرأته قد أغنانا الله عن خدمتك فقال لها ألاندفعها الى من يأتينا واحوج ما كنا اليه قالت بلى فصرها صراراً ثم دفعها الى من يثق به وقال انطلق بهذه الى فلان وبهذه الى يتيم بني فلان ومسكين آل فلان حتى بقي منها شئ يسير فدفعه الى امرأته وقال أنفقي هذه ثم عاد الى خدمته فقالت له امرأته ألا تبعث بذلك المال فتشتري لنا منه خادماً فقال سيأتيك أحوج ماتكونين اليه

هكذا كان معظم عمال عمر رضي الله عنه فكيف لايكون عصره أسعد العصور على المسلمين وأعظمها بركة على الرعية ولا جرم فالخليفة الصالح لايختار من العمال الا الصلحاء العدول والناس على دين ملوكهم والعمال يسلكون طرائق سلوكهم فان كان الملوك ظالمين ظلم العمال وان كانوا عادمين عدلوا

وكان رضي الله عنه يكره احتجاب العمال عن الرعية ويبالغ في حب ظهورهم للناس فان بلغه أن عاملا احتجب عن الرعية نكل به أشد تنكيل فقد روي الطبري أن سعد بن أبي وقاص لما بني دار الامارة في الكوفة وكانت الاسواق قريبة منه وغوغاؤهم تمنع سعداً الحديث ادعى الناس عليه ما لم يقل وقالوا قال سعد سكّن عني الصويت وبلغ عمر ذلك وان الناس يسمون الدار قصر سعد فدعا محمد بن مسلمة فسرحه الى الكوفة وقال أعمد الى القصر حتى تحرق بابه ثم ارجع عودك على بدئك فخرج حتى قدم الكوفة فاشترى حطباً ثم أتى به الى القصر فأحرق الباب وأتي سعد فأخبر الخبر فقال. هذا رسول أرسل لهذا الشأن وبعث لينظر من هو فلما عرفه أرسل اليه رسولا بان أدخل فأبى فخرج اليه سعد فأراده على الدخول والنزول فأبى وعرض عليه نفقة فلم يأخذ ودفع كتاب عمر الى سعد وفيه

بلغني انك بنيت قصراً اتخذته حصناً ويسمى قصر سعد وجعلت بينك وبين الناس باباً فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال انزل منه منزلاً مما يلي بيوت الاموال وأغلقه ولاتجعل على القصر باباً يمنع الناس عن دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم ليوفقو مجلسك ومخرجك من د رك ذ خرجت :

فحلف له سعد ما قال لذي قالوا ورجع محمد بن مسلمة من فوره حتى أذا دنا من المدينة فني زاده فتبلغ بلحاء اشجر فقدم على عمر فسأله فأخبره الخبر كله فقال له هلا قبلت من سعد : فقال لو أردت ذلك كتبت لي به أو أذنت لي فيه : فقال عمر ان أكمل الرجال رأياً من اذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم أو قال به ولم ينكل

وأخبره محمد بيمين سعد وقوله فصدق سعداً وقال : هو أصدق ممن روي

عليه وأبلغني

جاء في كنز العمال عن عاصم بن أبي النجود أن عمر بن الخطاب كان اذا بعث عماله شرط عليهم ان لا تركبوا برذوناً ولا تأكلوا نقياً ولا تلبسوا رقيقاً ولا تغلقوا ابوابكم دون حوائج الناس . إن فعلتم شيئاً من ذلك فقد حلت بكم العقوبة . ثم يشيعهم فاذا أراد أن يرجع قال : اني لم أسلطكم على دماء المسلمين ولا على أعشارهم ولا على أبشارهم[1] ولا على اعراضهم ولا على اموالهم ولكني بعثتكم لتقيموا بهم الصلاة وتقسموا فيهم فيئهم وتحكموا بينهم بالعدل فان أشكل عليكم شيء فارفعوه الي : ألا فلا تضربوا العرب فتذلوها ولا تجمروها[2] فتفتنوها ولا تعتلوا عليها فتحرموها جوّدوا القرآن : (وفي رواية) وأقلوا من الرواية

وكان اذا بلغه عن أحد من عماله أمر يخل بالمروءة عزله في الحال ففي المناقب لأبي الفرج بن الجوزي عن بن سعد قال . كان عمر بن الخطاب استعمل النعمان بن نضلة على ميسان وكان يقول الشعر فقال .

ألا هل أتى الحسناء ان حليلها بميسان يسقى في زجاج وحنتم

في أبيات يقول في ختامها

لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المتهدم

فلما بلغ عمر قوله قال . نعم والله انه ليسوءني من لقيه فليخبره اني قد عزلته: فقدم عليه رجل من قومه فاخبره بعزله فقدم على عمر فقال والله ما أحب شيأمما قلت ولكن كنت أمرءاً شاعراً وجدت فضلا من قول فقلت فيه الشعر فقال عمر والله لا تعمل لي على عمل ما بقيت .وفي روايةعن عثمان الحزامي عن أبيه قال

---

(١) كناية عن أجسامهم وأموالهم (٢) قال في القاموس جمره تجميرا جمعه والقوم على الامر تجمعوا الى ان قال والجيش حبسهم في أرض العدو ولعله هو المراد

لما بلغ عمر بن الخطاب هذا الشعر كتب الى النعمان بن نضلة (بسم الله الرحمن الرحيم) حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا اله الا هو اليه المصير . أما بعد فقد بلغني قولك

لعلّ امير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المتهدم

وايم الله انه ليسوءني وعزله

ومن عجيب سياسته مع العمال انه كان يحصي اموالهم قبل العمل وما زاد بعده يصادرهم على كله او بعضه ومن هذا ما رواه الطبري ان عمر استعمل عتبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم المدينة بمال فقال له ما هذا يا عتبة قال مال خرجت به معي وتجرت فيه . قال ومالك تخرج المال معك في هذا الوجه فصيره في بيت المال .

وروى ان خالداً لما أدرب هو وعياض الى بلاد الروم انتجعه من العراق رجال منهم الاشعث بن قيس فوصله بعشرة آلاف درهم فبلغ ذلك عمر فكتب الى أبي عبيدة أن يحصي مال خالد ويصادره على النصف فدعاه وتلا عليه أمر امير المؤمنين وصادره على نصف ماله حتى الخفين أخذ منهما واحداً وترك له الآخر . وكان خالد بن الوليد أميراً على قنسرين من قبل أبي عبيدة لا من قبل عمر ففي رواية أخرى للطبري أن عمر كان لا يخفى عليه شيء في عمله فكتب اليه من العرق بخروج من خرج من الشام وبجائزة من اجيز فدعا البريد وكتب معه لى ابي عبيدة ان يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من ين جاز الاشعث أمن ماله أم من اصابة أصابها (يعني من المغنم) فان زعم نها من اصابة اصابها فقد أقرّ بخيانة وان زعم انها من ماله فقد اسرف واعزله على كل حال واضمم اليك عمله . فكتب ابو عبيدة لى خالد فقدم عليه ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر فقام البريد فقال أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من اصابة فلم يجبه حتى كثر عليه

وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً فقام بلال (مولى رسول الله) صلى الله عليه وسلم اليه فقال ان امير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته وقال ماتقول أمن مالك أم من اصابة قال لابل من مالي فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده ثم قال (نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا) وأقام خالد متحيراً لا يعلم أمعزول هو أم غير معزول وأبو عبيدة لا يخبره كرامة له وكأن عمر لما ابطأ عليه الخبر علم بالذي كان فكتب الى خالد بالقدوم عليه فعتب خالد على أبي عبيدة لانه لم يعلمه بأمر عمر من قبل فقال أبو عبيدة اني والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بداً وقد علمت ان ذلك يروعك .ثم ان خالدا رجع الى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم وتحمل ثم أقبل الى حمص فخطبهم وودعهم ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر فشكاه وقال لقد شكوتك الى المسلمين وبالله انك في امري غير مجمل [1] ياعمر فقال عمر من اين هـذا الثرى . قال من الانفال والسهمان مازاد على الستين الفاً فلك فقوم عمر عروضه [2] فخرجت اليه عشرون الفاً فأدخلها بيت المال ثم قال ياخالد والله انك عليّ لكريم وانك اليّ لحبيب ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء .ثم ان عمر كتب الى الامصار اني لم اعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت ان يوكلوا اليه ويبتلوا به فأحببت ان يعلموا ان الله هو الصانع وان لا يكونوا بعرض [3] فتنة . ويقال انه عوضه عما اخذه منه وكتب الى الناس: وهكذا ايضا شاطر سعد بن ابي وقاص على ماله وشاطر ابا هريرة ولما ابى ان يشاطره ضربه وصادر غيرهم ايضا وردّ اموالهم لبيت المال . وهـذا امر لا يعجب من صدوره عن عمر (رض) على شهرته بالعدل لانه لا بدّ أن يكون له في هذا رأي سديد ومرمى بعيد ولعل الحامل

(١) مجمل من أجمل في الطلب أتأد واعتدل ولم يفرط (٢) متاعه (٣) بطريق

له على ذلك هو لانه كان يرى أن هذا المال حق المسلمين فينبغي له ان يكون لعامة المسلمين حتى لايتكاثر به الاغنياء ويتعالوا به على الفقراء ويدلنا على هذا ما رواه ابن جرير الطبري في تاريخه عن السائب بن يزيد قال. سمعت عمر بن الخطاب يقول والله الذي لا اله الا هو (قالها ثلاثا) مامن احد الا له في هذا المال حق أعطيه أو منعه وما أحد احق به من أحد الا عبد مملوك وما انا فيه الا كأحدهم ولكنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم والرجل وبلاؤه في الاسلام والرجل وقدمه في الاسلام والرجل وغناؤه (كفايته) في الاسلام والرجل وحاجته والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه

وأخرج عن حبيب بن ابي وائل قال . قال عمر بن الخطاب لو استقبلت من أمري ما استدبرت لاخذت فضول أموال الاغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين

ولا يخفى على من له إلمام بأصول المذاهب الاشتراكية القائمة في هذا العصر في أوروبا ان من الاغراض التي ترمي اليها جعل الاموال حقاً يشترك فيه الناس من كل الطبقات والاسلام قد قرر قاعدة الاشتراك الا ان بين مذهب الاشتراكين ومذهب المسلمين فرقاً في ان المسلمين يعتبرون في هذا الحق في ثمرة رأس المال وهي الفضول وان الاشتراكيين يعتبرونه في رأس المال نفسه وهو خطأ اداهم اليه الافراط والغلو كما شرحنا ذلك في كتابنا تنبيه الافهام . وبالله لو علم اولئك الناس ان الاسلام قرر قاعدة الاشتراك على أصول الحق والعدل التي لا تصادم نواميس الاجتماع وان أهله بأنوا لا يعرفون شيئاً من هذه القاعدة ولا غيرها من القواعد التي تضمن سعادتهم الاجتماعية وحياتهم الملية

لأخذتهم الحيرة من هذا الامر وربما تنبه قادتهم وزعماؤهم الى قبول الاسلام وجعله اساساً للسعادة التي ينشدونها للانام واكتفوا في بث دعوتهم مؤنة المقاومة التي يلاقونها من أهل الجدل والخصام

﴿كلمة في الحرية والطاعة﴾

(أو الحكومة العسكرية والحكومة القانونية)

أخذت على نفسي أن لا اغفل في هذا الكتاب خبراً يمر على القارئ من الاخبار التاريخية المهمة مالم اردفه ببيان مفيد لا سيما فيما يرجع للاخلاق ويمثل صورة الفضائل والرذائل ويفرق بين السعادة والشقاء ومما ينبغي ان لا يفوتنا النظر فيه حادث خالد بن الوليد الذي هو اهم حادث في تاريخ الحرية العربية في الاسلام وكيف لا يكون كذلك وهو يمثل نتائج الحرية والعدل في صورة من الكمال تتزلزل لها أقدام الظلم وتخشع امامها قوى الكون البشري الهابطة من أعلى عليين والصاعدة من أسفل سافلين ألا وهي الطاعة للرئيس والخضوع للقانون

الحرية فضيلة معناها تخلص الانسان من الاسر وتملصه من ضيق الحجر وجواز تصرفه في كل حق من حقوق الانسانية التي سوغها العقل وقضت بها أصول الاجتماع والتعاون بحيث يكون الانسان مالكا لارادته لا بهيمة تحرك بارادة سواه مالكا لثمرة عمله لا حق لآخر بحرمانه منها مالكا لأمنه لا سلطان لآخر في سلبه منه ومتى فقد الشخص واحدة من هذه الثلاث سلب منه معنى الحرية وصار كالحيوان يتعب ليأكل سواه ويشتى ليسعد غيره ويسعى ليموت هو ويحيا من عداه

وربما يتوهم ان الحرية بهذا المعنى هي الانطلاق عن كل قيد ما دام ليس لارادة النفس على مايعلم من حالها من قيد وليس الامر كذلك اذ كما ان التفريط بالحرية طرف للرذيلة كذلك الافراط فيها أيضاً وفي كلا الطرفين رجوع للبهيمية

وفقد لفضيلة الحرية وانما هناك وسط ترجع اليه وقيد تتقيد به بل قيدان وهما القيد النفسي والقيد الخارجي فاما القيد النفسي فهو إما الزاجر الديني وإما الفضيلة الذاتية والقيد الخارجي هو الوازع وليس في كلا القيدين معنى للعبودية أو منع للحرية وانما هو إمساك للنفس عن الاندفاع مع تيار الهوى والشهوة الذي يلحق الانسان بالبهائم ففي مطاوعة الارادة للزاجر النفسي مطاوعة للفضيلة ووقوف عند حد الانسانية وفي مطاوعتها للوازع مطاوعة للشرع وخضوع للقانون

الانسان ميال بطبعه للسعادة اذا ارشد اليها وحث عليها والشرائع انما هي شرعة السعادة البشرية وقوام الحياة الاجتماعية فالوازع الذي يزع الناس بالشريعة لا يحاول بما يزع به قهراً للنفوس ولا حجراً على الارادة بل يماشي الارادة ويساعد النفوس على نيل السعادة لهذا فطاعة الوازع من مستلزمات السعادة لا يأباها العقل ولا يهضم بها حق من حقوق الحرية مادامت طاعته يراد بها طاعة القانون الذي هو أصل في السعادة لا طاعة الوازع نفسه من حيث كونه آمراً بهواه وشهواته لا مأموراً من القانون ومهيمناً عليه

اذا تقرر هذا فاعلم ان الأمة العربية كانت في جاهليتها على جانب من الاغراق في الحرية يكاد يكون إفراطاً فيها كما يعم ذلك كل مطلع على تاريخ هذه الأمة لان حب الحرية خلق متأصل في نفوسها منذ نشأت في فضاء البوادي المتسع مطلقة عن كل حجر . ومن هذا الافراط نشأ ما يسمونه العصبية ذلك لانهم كانوا أشتاتاً في التجزؤ الى بطون وقبائل لا تجمعهم جامعة جنس وليس ثمة وازع يضمهم الى كلمة واحدة فكانوا يفزعون عند الحاجة الى العصبية بان تتحد العشيرة الواحدة ضد الأخرى دفاعاً عن حوزة وصداً لغارة أو جلبا لمغنم ومع ما في هذا الامر من ضعف النظام الاجتماعي وفقد الرابطة القانونية فانهم كانوا به ولعين وعليه

حريصين لانه نتيجةمغالاتهم في الحرية وحبهم للانطلاق عن كل قيد .ولماجاء الاسلام ببيانه وبسط عليهم جناح حنانه وجمعهم على كلمته وضم شتيتهم الى رايته كان من مبادئه الاولى في النصح والارشاد تحذيرهم من التفرق وتعليمهم لأصول الطاعة وأمرهم بالخضوع الى الوازع ليكونوا يداً واحدة وقوة واحدة ومن ذلك قوله تعالى في الكتاب الكريم « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم » وانما أرادهم على الطاعة لأولي الامر لانها طاعة للشرع الذي فيه سعادتهم بردهم في الحرية الى حد الوسط بلا شطط عليهم في التقييد ولا ارسال لهم منه ولا حمل لهم على طاعة الوازع لنفسه بل لما يزعهم به من الشرع العادل يدلك على هذا قول اول خليفة في الاسلام وهو ابو بكر (رض) في احدى خطبه التي مر ذكرها في الجزء الأول « أطيعوني ما أطعت الله (في تنفيذ أوامره) فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم » وقول الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) أعينوني على نفسي بالامر بالمعروف وإحضاري النصيحة واعينوني على انفسكم بالطاعة وقوله أنه لم يبلغ حق ذي حق « يعني نفسه » ان يطاع في معصية الله وكثير من أمثال هذا الكلام مما مر في باب خطبه وغيرها من هذا الكتاب واذ كانت البداوة اصلا في سلامة الفطرة وقبولها للخير وقد رأى القوم ان هناك نظاماً يضم اشتات الافكار الى وجهة واحدة ويقوم بحراسة الحقوق قياماً يغني عن العصبية مع استبقاء ما ألفوه من الاصول الديموقراطية في حالتهم الاجتماعية لم تأنف نفوسهم السامية من مثل تلك الطاعة وخضعوا لحكم الاسلام واجتمعوا على الرضا بسيادة الخلفاء ومن ثم تعلم ان دولة المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين كان قيامها بالقانون لا بالقوة وحياتها بالشريعة لا بالسيف وبعبارة اوضح انها كانت دولة قانونية تستند الى الشرع الآلهي لتقوم لا دولة عسكرية

تستند الى القوة الجبرية لتسقط وتحل وشتان بين دولة تستند الى القانون الذي هو سيف لا يفل حده وبين دولة تستند على قوة القهر التي لا تلبث ان تنى أو تحل وتهوى بالدولة الى حضيض الاضمحال وتعاجلها بالانحلال

لما علمت الامة العربية يومئذ ان الطاعة على ذلك الوجه ركن من أركان الحرية لا سبب لسلبها منهم وان ليس فيها سلب لارادتهم ولا قهر لنفوسهم ولا حيف عليهم ولا هضم لحقوقهم وان ليس للوازع فوق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أمر يراد به الاشتطاط عليهم والاستئثار بالامر دونهم راضت لاولياء الامر نفوسهم العاتية ولانت اخلاقهم الجافية فألقوا طاعتهم في الحق ومعاونتهم على المعروف واليك الدليل

خالد بن الوليد من سادت قريش وابن عم عمر بن الخطاب وفي مرتبته في الشرف الذي انتهى الى الرهط من قريش فوصله في الاسلام كما رأيت في صدر الجزء الاول من هذا الكتاب وخلا هذا فانه كان محبوباً من المسلمين كبير الجاه عند الناس له من قلوب الجند مكانة ليست لسواه اذا أمر طاعوا و ذا أشار قبلوا جاءه أمر امير المؤمنين بالشخوص الى حيث يقيم ابو عبيدة فامتثل وشال فتردد وهابه ابو عبيدة وهو ابن عمه وأميره أن يأمر فيه بأمر الخليفة فقام اليه مولى (عبد) من موالي رسول الله (صل) فنزع عمامته عن رأسه وعقله بها وسأله ماسأله حتى اجاب فأعاد قلنسوته الى رأسه وعممه بيده وقال نسمع ونطيع لولاتنا (يعني عمر) ونفخم مولينا [1] « يعني خالداً » هذا كله على ملأ الناس ومشهد من عامة المسلمين فما الذي اسكت مثل هذا الامير الجليل في مثل هذا الموقف فلم ينتصر لنفسه ولم ينصره احد من المسلمين هذا على ما عرف به من علو النفس

---

(١) مولى يطلق على السيد وعلى العبد

و إباء الضيم

اسكته امران الاول علمه ان لا يطاوع بسكوته وخضوعه هوى امير المؤمنين بل يطاوع وجدانه ويطيع قانونه ودينه والامر الثاني علمه بانه فيما صنع غير مسلوب الارادة بقوة عمر (رض) ولا مغلوب له على امره بل هو حر في ان يناقشه الحساب ويسأله عن سبب ماصنع وينتصف لنفسه منه اذا اشتط عليه او جار وقد كان ذلك كما رأيت وانصفه عمر (رض) ولولا ان يعلم خالد ان له سلطاناً في نفسه يناقش به عمر وارادة لا يغلبه عليها الا الحق لا ستحال على عمر ان يعامل مثله بتلك الشدة لما يعرفه في القوم من حب الحرية واستقلال الارادة وعزة النفوس وحسبك دليلا على هذا ان امير المؤمنين عمر (رض) لم يسعه بعد ان عامل خالداً بتلك المعاملة الا ان يتذرعاً صنع للناس ويجهر بالسبب على ملأ المسلمين دفعاً لشبه الضمائر وإعلاناً لسلامة حريتهم من مساس القوة والحجر وذلك انه قام يوماً نخطب فيهم خطبة في شأن العطاء: رواها ابن الجوزي في المناقب: قال في آخرها

واني اعتذر اليكم من خالد ابن الوليد فاني امرته ان يحبس هذا المال على ضَعَفَة المهاجرين فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان فنزعته وامرت أبا عبيدة بن الجراح

فقام ابو عمرو بن حفص بن المغيرة (ابن عم خالد) فقال والله ما اعتذرت يا عمر ولقد نزعت عاملا استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم واغمدت سيفاً سله رسول الله « صل » ووضعت امراً نصه رسول الله « صل » وقطعت رحما وحسدت ابن العم

فقال عمر (رض) انك قريب القرابة حديث السن مغضب في ابن عمك

ثم نزل ولم يزد على ان رد عليه رداً جميلاً

وهذا نهاية ما يقال في اطلاق الحرية للرعية يناقشون بها عن انفسهم ويكفون الايدي عن حقوقهم ومع وصول العرب الى هذا الحد من الجرأة في الرد على مثل عمر بن الخطاب ومناقشته الحساب فانهم كانوا اطوع له من بنانه لعلمهم بانهم انما يطيعون بطاعته الله والرسول في الشرع الذي كان عمر منفذاً له مهيمناً عليه ولو كانت الحكومة ثمة حكومة عسكرية لكان خالد اول من لجأ الى القوة وضرب بجيوشه وجه الدولة وناصب خليفة المسلمين العداوة وتوثب على الخلافة ومعاذ الله ان يحدث خالد نفسه بشيء من ذلك ما دام لا امر يومئذ للقوة وإنما كان الآمر الناهي عند سائر المسلمين هو الشرع والوجدان لا القوة ولا الرئاسة ولقد بلغ بفريق من المسلمين في دولة الخلفاء الراشدين غلوهم في الخضوع للوجدان والشرع دون الوازع وهم الحرورية وغيرهم من فرق الخوارج ان قالوا لعلي رضي الله عنه قولهم المشهور « لا حكم الا لله » وتغالوا في هذا القول حتى انكروا لزوم الخلافة وسفكوا دماء آلاف من الناس في سبيل تأييد معتقدهم الشاذ حتى افضى الامر الى فنائهم كما سترى بعد

اذا تمهد هذا علمنا ان حكومة الخلفاء الراشدين قامت على دعامة الشريعة لا القوة وكانت حكومة دستورية لا عسكرية وان الحرية لازم من لوازم الطاعة وسبب متين يتوصل به الى السعادة وشد عرى الصلة والاتفاق بين الحاكم والمحكوم لهذا كانت دولة الخلفاء الراشدين من اعظم الدول قياماً على الحق والحرية والعدل وبلغ المسلمون على عهدها مبلغاً من القوة والغنى وقهر الأمم وفل جيوش الدول ما عهد مثله في تاريخ دولة قبلهم ولا بعدهم قط ومذ اختلط العرب بالاعاجم وابذعروا في اطراف البلاد وتفرقوا على قلتهم في الممالك وضعفت

عصبيتهم عن مقاومة اعداء الحرية من المتوثبين على الخلافة والدخلاء في دولتهم من الأمم الأخرى الذين الفوا الاستعباد وفطروا على حب الاستبداد انحطت دول الاسلام عن مقامها واخذت بالتقهقر في سيرها وانقطعت صلة الاتفاق بينها وبين رعيتها فأصبحت ورعيتها على طرفي نقيض تريدهم على الخضوع لهوى الامراء وشهواتهم ويريدونها على العدل والاستقامة واتباع الشرع والقانون وهذا خطب عظيم اذا طال امره والعياذ بالله في امة دمرها تدميراً اذ لا يزال يضرب الامراء عقلاءها بجهلائها وفضلاءها بسفهائها حتى يفنى الفريقان كما فنيت امة الرومان واليونان وعرب المسلمين هذا اذا أبقى الاستبداد لافراد الأمة أفئدة تهوى الى الحرية ونفوساً تطلب النزوع الى الحياة الطيبة والرقيّ الى مرتبة الانسانية وأما اذا بلغ الاستبداد من عامة الأمة مبلغه فاصابها الفالج العام الذي يصيب الأمم في اواخر عهدها فيذهب بقواها ويميت اعضاءها عن الحركة وعقولها عن الادراك فدمارها يكون بيد غيرها لا بيدها والمآل الى هذا اشنع والموت بيد المتغلبين افظع وحسبك دليلا على هذا ما يقاسيه المسلمون من ضروب القهر والشقاء من بعض الدول الاوربية التي آل اليها لذلك السبب ملك المسلمين وتسلطت على اقوام كثيرين منهم ولو كان ثمة قوم لهم قلوب يفقهون بها وآذان يسمعون بها فاذا ذكروا يذكرون لما خنعوا لهذا الاستعباد ولكانوا انداد الأمم الأوربية في مضمار المنافسة الحيوية ولكن ياحرقة الفؤاد قومنا في واد والغربيون في واد

حضه الناس على الكسب

الانسان مدنيّ بالطبع يتعاون على العمل ويتبادل مع اخيه العوض والعوض انما هو ثمرة العمل فكل يعمل للآخر ليبادله العوض ورب صنعة يتعاون عليها جمع

من الناس كل فرد منهم يشتغل بفرع منها فاذا ترك احدهم نصيبه من العمل بذلك الفرع خسر الكل لهذا كان اس الحياة الاجتماعية العمل واصلها الكسب وليس في الوجود شرع ينهي عن الكسب بل كل الشرائع تأمر به ولو مع الرفق في الطلب والاسلام من الشرائع التي حتمت السعي للرزق وأمرت بالكسب الا انه أمر بالرفق في الطلب والتوكل على الله مع السعي ليكون الرجاء بالكسب اقوى والقناعة لجرثومة اليأس أقطع والعزيمة على السعي امضى واذ كان عمر رضي الله عنه أعلم الصحابة بالدين وأفقههم فيه وخشي أن يلابس نفوس العامة شيء من ظواهر الآيات التي أمرت بالتوكل والقصد ورأى بعضهم حمل معنى التوكل على محمل الزهد وترك السعي جعل دأبه حض الناس على السعي وحثهم على العمل والكسب ومن ذلك ماجاء في كنز العمال عن معاوية ابن قرة قال: لقي عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن فقال ما أنتم فقالوا متوكلون: فقال كذبتم ما أنتم متوكلون انما المتوكل رجل القى حبه في الارض وتوكل على الله. وفي المناقب لابي الفرج بن الجوزي عن محمد بن سيرين عن أبيه قال شهدت مع عمر بن الخطاب المغرب فأتى عليّ ومعي رزيمة[1] لي فقال ماهذا معك فقلت رزيمة لي أقوم في هذا السوق فاشتري وأبيع فقال يامعشر قريش لايغلبنكم هذا وأشباهه على التجارة فانها ثلث الامرة

وفيه عن حواب التيمي قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يامعشر القراء ارفعوا رؤسكم فقد وضح الطريق واستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالاً على المسلمين

وفيه عن الحسن قال: قال عمر رضي الله عنه من تجر في شيء ثلاث مرات فلم يصب فيه شيئاً فليتحول الى غيره

(١) تصغير رزمة وهى الكارة من الثياب

وفيه عن الأكيدر العارض قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعلموا المهنة فانه يوشك ان يحتاج أحدكم الى مهنة

وفي كنز العمال عن عمر قال : لولا هذه البيوع صرتم عالة على الناس

وفي المناقب عن بكر بن عبد الله قال : قال عمر مكسبة فيها بعض الدناءة خير من مسألة الناس

وفيه عن ذكوان قال : قال عمر اذا اشترى أحدكم جملا فليشتره عظيما سميناً فان أخطأه خيره لم يخطه سوقه

وفيه عن محمد بن عاصم قال : بلغني انّ عمر بن الخطاب كان اذا رأى فتىً فأعجبه حاله سأل عنه هل له حرفة فان قيل لا سقط من عينه

وفي العقد: قال عمر بن الخطاب لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني وقد علم ان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وانّ الله تعالى انما يرزق الناس بعضهم من بعض وتلا قول الله جلّ وعلا (فاذا قُضيَتِ الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون)

وفيه : قال عمر بن الخطاب يامعشر القراء التمسوا الرزق ولا تكونوا عالة على الناس

وفيه قال عمر بن الخطاب حَسَبُ الرجل ماله وكَرَمهُ دينه ومروّته خلُقه

نهيه عن التنطع
وتحذيره من الابتداع

الاسلام دين اليسر ودين الفطرة يأمر بالاعتدال في كل الاعمال حتى العبادة وينهي عن التنطع الناشئ عن التوسع والابتداع ولم يكن العرب على صلابتهم في الدين يعرفون هذا التنطع الذي ابتدعه الاعاجم بعد لعدم توسعهم في

التأويل ووقوفهم عند ظاهر الشرع لهذا لما انتشر الاسلام في انحاء الارض وعم سائر الشعوب في دولة الخلفاء الامويين والعباسيين وأكثر الاعاجم من الابتداع وغالوا بالتنطع والتشدد بما ليس من الدين كان يعيبهم العرب على ذلك ويهزأون بهم ويتباعدون عن بدعهم فقد ذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد عن الاصمعى قال . قدم ابو مهدية الاعرابيّ من البادية فقال له رجل يا أبا مهدية أتوضؤن بالبادية قال والله يا ابن أخي لقد كنا نتوضأ فتكفينا التوضئة الواحدة ثلاثة أيام والاربعة حتى دخلت علينا هذه الحمراء (وهى الموالي من الاعاجم) فجعلت تليق استاها بالماء كما تلاق الدواة

وانما اراد بقوله فتكفينا التوضئة الواحدة الخ الاغراق بالتهكم على تنطع الاعاجم لانهم (اى العرب) كانوا حقيقة يفعلون ذلك بالوضوء معاذ الله ان يكون في هذه المرتبة من التهاون بالفرائض وهم ابناء أولئك الذين نشروا هذا الدين وعلى عهدهم أنزل القرآن . ومن هذا تعلم ان التنطع امر لا يريده الدين وانما كان منشؤه الابتداع والتوسع ومن هذا القبيل توسعهم في حديث السواك وهو (لولا ان أشق على أمتي لامرتهم بالسواك) ومع ان الحديث يتضمن الندب والاستحباب فقد كاد بعضهم ينزله منزلة الواجب وكتبوا فصولا وأبوابا مخصوصة في فوائده واستعماله وحمله الى آخر ما قالوه في شأنه مما لم يكن منشؤه الا التنطع حتى فيما ليس من لدين

كان من الصحابة نفر ولعو بالعبادة وانقطعو الى التهجد لكن بما لا يخرج عما جاء به الكتاب ورأوه من نبيهم عليه الصلاة والسلام فخشى عمر ان يسري الى العامة حب الانقطاع الى العبادة والتنطع في الدين فينشأ عن ذلك تعطيل لوظائف الاجتماع الدنيوية وتوسع في التأويل وتجرؤ على لابتداع فجعل ينهي الناس عن

التنطع ويحذرهم من الابتداع ومن نهيه عن التنطع ما أخرجه أبو الفرج بن الجوزي عن محمد بن عبد الله القرشي عن أبيه قال . نظر عمر الى شاب قد نكس رأسه فقال له ياهذا ارفع رأسك فان الخشوع لا يزيد على ما في القلب فمن اظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه فانما اظهر للناس نفاقاً على نفاق

وأخرج عن ابى عمرو الشيباني قال . خبر عمر بن الخطاب برجل يصوم الدهر فجعل يضربه بمخفقته وجعل يقول كل يا دهر كل يا دهر

وعن سعيد بن المسيب ان عمر بن الخطاب قال عجلوا الفطر ولا تنطعوا تنطع أهل العراق

وعنه عن أبيه قال كنت جالساً عند عمر (رض) اذ جاءه راكب من أهل الشام فطفق يسأله عن حالهم فقال .هل تعجل اهل الشام الافطار . قال نعم . قال لن يزالوا بخير ما فعلوا ذلك ولم ينتظروا النجوم انتظار أهل العراق

وعن محمد بن سيرين ان عمر بن الخطاب خرج من الخلاء يقرأ القرآن فقال له ابو مريم يا أمير المؤمنين أتقرأ القرآن وانت غير طاهر: فقال له مسلمة (هكذا) أمرك بهذا

واما تحذيره من الابتداع فقد أخرج الامام ابو الفرج أيضاً عن عابس ابن ربيعة قال. رأيت عمر نظر الى الحجر فقال . أما والله لولا اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ثم قبله

وعن عبد الله بن سرجيس قال . كان الاصلع (يعني عمر) اذا استلم الحجر قال : اني لاعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك

وعن نافع قال : كان الناس يأتون الشجرة التى بايع رسول الله صلى الله عليه

وسلم تحتها بيعة الرضوان فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر فأوعدهم فيها وأمر بها فقطعت : وهذا الأثر يوافق ما قدمناه في فصل (لاوثنية في الاسلام)

وليت عمر يأتي في هذا العصر بدرته وسيفه وينظر الى مصير صار اليه المسلمون من تقديس الاحجار والاشجار واذا كانت تلك شجرة واحدة وبويع تحتها رسول الله صلى الله عليه وسلم فعندنا الآن عدد لا يحصى من الاشجار كالجميز في مصر والميس والزيتون في الشام وهي من الاشجار التي كانت تعتبر مقدسة عند الوثنيين القدماء فقدس عوام المسلمين بعضها بحجة ان هذه دفن تحتها فلان الصالح وتلك لمسها فلان الشيخ الى غير ذلك من الاعذار التي ينتحلونها بعقولهم القاصرة عن مرتبة التوحيد التي وضع الله فيها مثل أبي بكر وعمر فانا لله وإنا اليه راجعون

وأخرج عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال : أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل فقال : ياأمير المؤمنين انا لما فتحنا المدائن أصبت كتاباً فيه كلام معجب: قال أمن كتاب الله : قال لا فدعا بالدرة فجعل يضربه بها ويقول (الر تلك آيات الكتاب المبين انا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) الى قوله تعالى : وان كنت من قبله لمن الغافلين : ثم قال انما أهلك من كان قبلكم انهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والانجيل حتى درسا وذهب ما فيهما من العلم ه

﴿ أدبه وتأديبه ﴾

﴿ أدبه مع رسول الله ﴾

تقدم معنا في باب صحبته كلام على أدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبه له وقيامه دائماً بين يديه يغني عن الاسهاب في هذا الباب وحسبه أدباً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تفانيه في حبه تفانياً أذهله عن حقيقة موته فقال في ذلك اليوم (من قال ان محمداً قد مات علوت رأسه بسيفي هذا) والقصة ضوية مرمعنافي

هذا الكتاب ملخصا

﴿ أدبه مع نفسه ﴾

عن أنس قال دخلت حائطاً (بستاناً) فسمعت عمر يقول وبيني وبينه جدار: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله ابن الخطاب أو ليعذبنك الله

وقال السيوطي قال عبد الرحمن بن عامر بن ربيعة رأيت عمر أخذ تبنة من الارض فقال ياليتني كنت هذه التبنة ياليتني لم أك شيئاً ليت أمي لم تلدني: وعن سفيان بن عيينة قال: قال عمر بن الخطاب أحب الناس الي من رفع الي عيوبي. وأخرج الطبري عن سلمان ان عمر قال له أملك أنا أم خليفة فقال له سلمان إن جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو اكثر ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة فبكى عمر: ولشد ما كان وأبو بكر يهربان من صفات الملوك ويقومان بحقوق الخلافة خوف الاتسام بسمة الملوك الجبارين التي يأباها الاسلام وتنهي عنها شريعة محمد عليه الصلاة والسلام

﴿ تأديبه لنفسه ﴾

كان عمر رضي الله عنه شديداً على الناس سريع العقوبة يتناول المسيء بالدرة التي قيل فيها « لدرة عمر أهيب من سيوفكم » ومع هذا فقد كان سريع الانابة رقيق القلب لا يلبث أن يعاقب حتى يندم لطهارة وجدانه وسلامة قصده

اخرج الحافظ عز الدين الجزري في أسد الغابة عن أبي غنية يحيي بن عبد الملك بن سلامة بن صبيح التميمي قال: قال الأحنف بن قيس: كنت مع عمر ابن الخطاب فلقيه رجل فقال ياأمير المؤمنين انطلق معي فاعذني على فلان فانه قد ظلمني فرفع عمر الدرة نخفق بها رأسه: فقال: تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم حتى اذا شغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه اعذني اعذني: قال فانصرف

الرجل وهو يتذمر قال «اي عمر» عليّ الرجل «أي ردوه عليّ» فألقى اليه المخفقة . وقال امتثل «أي اقتص بمثل الضربة» فقال لا والله ولكن ادعها لله ولك : قال ليس هكذا اما ان تدعها لله ارادة ما عنده او تدعها لي فاعلم ذلك : قال ادعها لله : قال «اي الاحنف» فانصرف ثم جاء يمشي حتى دخل منزله ونحن معه فصلى ركعتين وجلس فقال «يخاطب نفسه» يا ابن الخطاب كنت وضيعاً فرفعك الله وكنت ضالاً فهداك الله وكنت ذليلا فأعزك الله ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك فضربته ما تقول لربك غداً اذا أتيته : قال فجعل يعاتب نفسه في ذلك معاتبةً حتى ظننا انه خير اهل الارض

واخرج ابن جرير في تاريخه عن اياس بن سلمة عن ابيه قال : مر عمر بن الخطاب (رض) في السوق ومعه الدرّة فخفقني بها خفقة فاصاب طرف ثوبي فقال امط عن الطريق فلما كان في العام المقبل لقيني فقال . يا سلمة تريد الحج . فقلت نعم فأخذ بيدي فانطلق بي الى منزله فاعطاني ستمائة درهم وقال استعن بها على حجك واعلم انها بالخفقة التي خفقتك . قلت يا أمير المؤمنين ما ذكرتها قال وانا ما نسيتها :

هذه هي القضية وذلك هو الوجدان الحساس الذي جعل ذلك الخليفة العظيم يطلب العفو من شخص عن خفقة أصابت ثوبه لا قصداً بل ذريعة لمجرد تنبيه الى كشف الاذى عن طريق الناس ... حتى اذا اتى من العام القابل الى الحج ووجد سبيلاً لاسترضاء ذلك المسلم عنه وطلب الصفح منه مع انه خليفة المسلمين الذي نيط به العقاب فعقب بمعروف ولم يتجاوز في مس طرف الثوب بدرّته حد التنبيه الى مصلحة الضرر عن الطريق فأين هذا الانصاف والرحمة من جبروت الخلفاء والسلاطين الذين يسطون بالقوة بعد على الناس وتحكموا فيهم

تحكم المالك في العبيد لا رحمة تشفع ولا جاه ينفع ولا فضيلة تمنع : وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون

(تأديبه للمسلمين)

بلغ برأفة عمر بالمسلمين وحملهم على الطريق الواضحة وتأديبهم بآداب النبوة ان كان اذا أراد تنبيههم الى امر نافع وصرفهم عن امر ضار يتقدم الى أهله بذلك التنبيه ليكون قدوة الناس وأسوة المسلمين في التأديب ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير في تاريخه عن سالم وابن عساكر في تاريخه عن ابن عمر قال كان عمر إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع اهله فقال : اني نهيت الناس عن كذا وكذا وان الناس ينظرون اليكم نظر الطير الى اللحم واقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله الا اضعفت عليه العقوبة لمكانه مني

وروي عن عكرمة بن خالد قال دخل ابن لعمر بن الخطاب عليه وقد ترجل ولبس ثياباً حساناً فضربه عمر بالدرة حتى ابكاه فقالت له حفصة لم ضربته قال رأيته قد أعجبته نفسه فأحببت ان أصغرها اليه

ومن اخباره في التاديب التي تدل على عظيم رحمته وحنانه وشدة عقوبته لغلاظ القلوب ما جاء في كنز العمال عن ابي عثمان النهدي قال : استعمل عمر بن الخطاب رجلاً من بني أسد على عمل فجاء يأخذ عهده فأتى عمر ببعض ولده فقبله. فقال الاسدي : أتقبل هذا يا أمير المؤمنين والله ما قبّلتُ ولداً قط : قال عمر فانت والله بالناس أقل رحمةً هات عهدنا لا تعمل لي عملا أبداً : فرد عهده

جوزي هذا العامل بالعزل والابعاد بتاتاً عن العمل « التوظف » لكلمة قالها لعمر (رض) أحس منها عمر بغلظة فؤاده فخشي إن هو عهد اليه بالعمل ان يكون فظاً غليظ القلب على الرعية فعزله : فهل كان للامراء والسلاطين من بعده

بصر يبصرون به أو سمع يسمعون به فيعلموا أنّ عمر بن الخطاب الذي أرهب أبناء الحرية ·وصناديد العرب وسادات قريش واستخضع لحكمه الفرس والروم الصابئة منهم وأهل الكتاب فكانوا كلهم بالسمع والطاعة له سواء انما ساسهم بمثل هذه السياسة وكان بهم رؤفاً كرأفة الوالد بالبنين وعليهم عطوفاً كعطف المرضع على الطفل

أجل كان منهم من علم ذلك وعمل به وهم الخيرة الطيّبون الذين ساسوا وعمروا وجاء غيرهم فخربوا ودمروا فكانوا صواعق من العذاب انقضّت على المسلمين فقضت على ما شيّده غيرهم بالدمار وشوّشت نظام الملك وقتلت العقول وجردت سيوف الاستبداد على الأمة فأعدمتها رشدها وأفسدت اخلاقها وذهبت بعلومها وطأمنت من اشرافها وأفقدتها عزها وشممها فأذلتها ذلاً ها نحن اولاء نشاهد نتائجه الآن بالعيان حيث نضام ونهان من كل انسان وليس فينا روح تدب ولا نائم يهب بل كلنا أموت يحسبنا العالم المتمدن من الرفات قلوبنا متفرقة وأهواؤنا شتّى ونفوسنا خامدة لا عن السفاسف وخطانا قاصرة الا عن أماكن الفساد وشأننا كه شأن من رضي بالذل وانغمس في الجهل واستسلم للقضاء حتى ساعة الفناء فمت

ومن ينم عن شؤونٍ كلها خطر فليس يخطئ من ينعيه للناس

ومن تأديبه لاشراف قريش وقهره لنفوسهم مع ما عرفوا به من الكبرياء والسيادة ما رواه ابن الجوزي عن الحسن قال حضر باب عمر (رض) سهيل بن عمرو بن الحرث بن هشام وابو سفيان بن حرب في نفر من قريش من تلك الرؤوس.وصهيب وبلال وتلك الموالي الذين شهدوا بدراً فخرج اذن عمر فأذن لهم (أي الموالي) وتركـ ـهم. فقال ابو سفيان لم أر كاليوم قط يأذن

لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت الينا : فقال سهيل بن عمرو وكان رجلاً عاقلاً أيها القوم اني والله أرى الذي في وجوهكم ان كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم دُعِيَ القوم ودُعيتم فاسرعوا وأبطأتم فكيف بكم اذا دُعوا على أنفسكم يوم القيامة وتركتم : وكان هذا شأنه رضي الله عنه مع كبار قريش الذين تأخر اسلامهم الى ما بعد الفتح أخرج أبو الفرج أيضاً عن يحيي بن عبد الرحمن بن أبي حاطب عن أبيه قال قدمنا مكة فاقبل أهل مكة يسعون . يا أمير المؤمنين أبو سفيان حبس مَسيل الماء علينا ليهدم منازلنا فاقبل عمر ومعه الدرة فاذا أبو سفيان قد نصب أحجاراً فقال ارفع هذا فرفعه ثم قال وهذا وهذا حتى رفع أحجاراً كثيرة خمسة أو ستة ثم استقبل عمر الكعبة فقال الحمد لله الذي جعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه : ومن علم ما هي سلطة أبي سفيان بمكة وكيف كان تحكم قريش في رقاب الناس علم فضل الاسلام في تأسيسه قاعدة المساواة وعدله بين الناس ومحوه آثار التفاضل بالانساب. ومن أخباره في التأديب ما نقله في العقد الفريد ان عمر (رض) قال لرجل من سيد قومك : قال انا : قال كذبت لو كنت كذلك لم تقله

﴿ أدبه مع المسلمين وتواضعه لهم ﴾

اذا أردت ان تعلم أدب الرجال العظام الذين رفع الله نفوسهم لا بالكبرياء وسودهم على الامم لا بالغطرسة والتجبر وحببهم الى الناس لا بالخيلاء فاسمع ما أخرجه الطبري في تاريخه عن الحسن قال : قال عمر اذا كنت في منزلة تَسَعُني وتَعجِزُ الناس فوالله ما تلك لي بمنزلة حتى أكون أسوة للناس

هذا الخليفة العظيم الذي دوّخ ملك فارس والروم وأرهبت سطوته الامم

وامتد ظل سلطانه الى حدود الهند شرقاً وأفريقيا الشمالية غرباً ومنحه الله هذا الملك العريض والسلطان العظيم لا يرضى لنفسه منزلة فوق منزلة الناس حتى من أدنى رعاياه انّ هذا لهو العدل الذي ليس فوقه عدل ولا جرم فبمثل ذلك عظم قدره وشاع ذكره وملأ الاذهان خبره حتى عدّه المؤرخون من أعظم رجال الاسلام وحتى اننا نفخر به على ملوك الارض فرضي الله عنه وأرضاه

ومن تواضعه ما أخرجه الطبريّ عن ابن أبي سليمان عن أبيه : قال قدمت المدينة فدخلت داراً من دورها فاذا عمر بن الخطاب (رض) عليه ازار قطريّ يدهن ابل الصدقة بالقطران

وأخرج عن زهير بن سالم انّ كعب الاحبار قال : نزلت على رجل يقال له مالك وكان جاراً لعمر بن الخطاب فقلت له كيف بالدخول على أمير المؤمنين : فقال ليس عليه باب ولا حجاب يصلي الصلاة ثم يقعد فيكلمه الناس

وفي المناقب عن الحسن (رض) قال كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام في شيء فقال له الرجل اتق الله فقال رجل من القوم أتقول لامير المؤمنين اتق الله فقال له عمر دعه فليقلها لي نعم ما قال لا خير فيكم اذا لم تقولوها ولا خير فينا اذا لم نقبلها

وليس قول عمر هذا من قبيل التواضع فقط بل هو من قبيل العلم بوجوب النصيحة على المسلمين وبوجوب النصح للامام منهم ورضاه بنصحهم وتذكيرهم له بالتقوى والعدل وذكر أرباب السير انّ عمر (رض) كان يوم القادسية شديد التطلع الى أخبار جيوش المسلمين كثير الاهتمام بأمرهم فكان يخرج كل يوم خارج المدينة يترقب الاخبار ... ثم يرجع الى أهله ... لقيه البشير سأله من أين فأخبره فقال يا عبد الله حدثني قال هزم الله العدو :

وعمر يخب معه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فاذا الناس يسلمون عليه بامرة المؤمنين فقال الرجل : فهلاً أخبرتني رحمك الله انك أمير المؤمنين وجعل عمر يقول لا عليك يا أخي

وذكروا انّ عمر لما قدم الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره وخلع نعليه فامسكهما بيده نخاض الماء ومعه بعيره فقال له أبو عبيدة (رض) قد صنعت صنيعاً عظيماً عند أهل الارض (يعني أهل الشام) فصك عمر في صدره وقال أواه لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة انكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس فأعزكم الله بالاسلام فمهما تطلبوا العزة بغير الله يذلكم الله

وروى الطبري ان عمر لما قدم الشام في ايام الطاعون اتخذ أيلة طريقاً حتّى اذا دنا منها تنحّى عن الطريق واتبعه غلامه فنزل فبال ثم عاد فركب بعير غلامه وعلى رحله فرو مقلوب واعطى غلامه مركبه فلما تلقّاه اوائل الناس قالوا اين امير المؤمنين : قال امامكم يعني نفسه وذهبوا هم الى امامهم فجازوه حتى انتهى هو الى ايلة فنزلها وقيل للمتلقين قد دخل امير المؤمنين ايلة ونزلها فرجعوا اليه (وذلك لانه لما قال لهم امامكم : وعنى نفسه لم يعرفوه وظنوا انه يشير الى انّ الامير غيره وقد تقدمه الى الامام)

وروى عن مولى لعثمان بن عفان (رض) قال كنت رديفاً لعثمان بن عفّان حتّى أتى على حظيرة الصدقة في يوم شديد الحر شديد السموم فاذا رجل عليه ازار ورداء قد لف رأسه برداء يطرد الابل يدخلها الحظيرة حظيرة إبل الصدقة فقال عثمان من ترى هذا قال فانتهينا اليـه فاذا هو عمر بن الخطاب : فقال هذا والله القويّ الامين

وفي كنز العمال عن الفضل بن عميرة انّ الاحنف بن قيس قدم على عمر بن

الخطاب في وفد من العراق قدموا عليه في يوم صائف شديد الحر وهو محتجز[1] بعباءة يهنا[2] بعيراً من ابل الصدقة فقال يا أحنف ضع ثيابك وهلمّ فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فانه من ابل الصدقة فيه حق اليتيم والارملة والمسكين فقال رجل يغفر الله لك يا أمير المؤمنين فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا : فقال عمر : يا ابن فلانة واي عبد هو أعبد مني ومن الاحنف هذا انه من ولي أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة واداء الامانة في المداراة .

تالله ان هذا الخلق يعلو بصاحبه عن وصف الواصفين ومرتبة لا يبلغها أحد من الخلفاء والسلاطين ومن يعد نفسه عبداً للرعية اذا ملكها وخادماً لها اذا أمرته عليها ويقوم على خدمتها قيام التابع على خدمة المتبوع في جزئيات أمورها وكليات سياستها لجدير به ان يقال هذا ملاك كريم لا ملك عظيم وحقيق بمثله الافتخار وعليه البكاء والى مثله الحنين ولا مثل لعمر جباراً على الظالمين رحيماً بالمستضعفين قوياً على الحق كريماً على الناس باراً بالرعية يتعب لتستريح ويسهر لتنام ويجوع لتشبع ويفتقر لتستغني فنسأل الله له الرحمة والرضوان كما نسأله لانفسنا العافية من الظلم والسلامة من عاقبة الجور انه مجيب السؤل

﴿ اهتمامه بأمور الرعية ﴾

(وعسه بالليل)

كان عمر رضي الله عنه من حرصه على راحة الرعية يتفقدهم بنفسه ويهتم بشؤونهم اكثر من اهتمامه بشؤون بيته وبلغ ذلك به ان كان لا ينام عنهم بالليل كما

(١) ملتف (٢) يطلي

كان لا يغفل عنهم ساعة من نهار فليله ونهاره في خدمة الرعية سواء اذا كان أكثر لياليه يعس بالمدينة بنفسه ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد احوالهم شأن الامراء الذين يعرفون انهم بما فوض اليهم من امر الهيمنة على القانون خدام للرعية مسؤلون عن راحة الامة وسعادتها لا ان الرعية خدام لهم عبيد لشهواتهم

روى الطبري في تاريخه عن بكر بن عبد الله المزني : قال جاء عمر بن الخطاب الى باب عبد الرحمن بن عوف فضربه فجاءت المرأة ففتحته ثم قالت له لا تدخل حتى ادخل البيت واجلس مجلسي فلم يدخل حتى جلست ثم قالت ادخل فدخل ثم قال هل من شيء فأتته بطعام فأكل وعبد الرحمن قائم يصلي : فقال له تجوّز ايها الرجل فسلم عبد الرحمن حينئذ ثم اقبل عليه فقال : ماجاء بك في هذه الساعة يا امير المؤمنين: قال رفقة نزلت في ناحية السوق خشيت عليهم سُرّاق المدينة فانطلق فلنحرسهم : فانطلقا فأتيا السوق فقعدا على نشز (مرتفع) من الارض يتحدثان فرفع لهما مصباح فقال عمر الم انهَ عن المصابيح بعد النوم : فانطلقا فاذا هم قوم على شراب لهم : فقال انطلق فقد عرفته فلما اصبح ارسل اليه فقال يا فلان كنت واصحابك البارحة على شراب : قال وما علّمك يا امير المؤمنين : قال شيء شهدته : قال او لم ينهك الله عن التجسس : قال فتجاوز عنه

قال بكر بن عبد الله وانما نهى عمر عن المصابيح لان الفأرة تأخذ الفتيلة فترمي بها في سقف البيت فيحترق وكان اذ ذاك سقف البيت من الجريد

وأخرج عن زيد بن أسلم عن ابيه قال : خرجت مع عمر بن الخطاب الى حرة حتى اذا كنا بصرار اذا نار تُؤرّثُ (تتقد) فقال : يا أسلم اني أرى هؤلاء ركباً قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا : فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فاذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون (يتصايحون) فقال

عمر السلام عليكم يا أصحاب الضوء وكره أن يقول يا أصحاب النار : قالت وعليك السلام : قال أأدنو : قالت ادن بخير أو دع . فدنا فقال ما بال هؤلاء الصبية يتضاغون : قالت الجوع قال وأي شيء في هذه القدر : قالت ما أسكتهم به حتى يناموا : الله بيننا وبين عمر : قال أي رحمك الله ما يدري عمر بكم : قالت يتولى أمرنا ويغفل عنا : فأقبل عليّ (أي على أسلم) فقال انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فاخرج عدلاً فيه كبة شحم فقال أحمله عليّ فقلت أنا أحمله عنك قال احمله عليّ مرتين او ثلاثاً كل ذلك اقول أنا أحمله عنك ، فقال في آخر ذلك أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أمّ لك : فحملته عليه وانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا اليها فالقى ذلك عندها واخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها ذرّي عليّ وانا احرك لك وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذا لحية عظيمة فجعلت انظر الى الدخان من خلل لحيته حتى نضج ودم القدر ثم انزلها وقال ابغني شيئاً: فأتته بصحفة فافرغها فيها ثم جعل يقول اطعميهم وانا اسطح لك فلم يزل حتى شبعوا ثم خلّى عندها فضل ذلك وقام وقمت معه فجعلت تقول : جزاك الله خيراً انت اولى بهذا الامر من امير المؤمنين: فيقول قولي خيراً انك اذا جئت امير المؤمنين وجدتني هناك ان شاء الله ثم تنحّى ناحية عنها ثم استقبلها وربض مربض السبع : فجعلت اقول ان لك شأناً غير هذا وهو لا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدأوا فقام وهو يحمد الله ثم اقبل عليّ فقال : يا اسلم ان الجوع اسهرهم وبكاهم فحببت ان لا انصرف حتى ارى ما رأيت منهم

وفي مناقب عمر للامام ابي الفرج ابن الجوزي عن انس بن مالك قال : بينا عمر يعس المدينة اذ مرّ برحبة من رحابها فاذا هو ببيت من شعر لم يكن

بالامس فدنا منه فسمع انين امرأة ورأى رجلاً قاعداً فدنا منه فسلم عليه ثم قال من الرجل: فقال رجل من اهل البادية جئت الى امير المؤمنين اصيب من فضله: فقال ما هذا الصوت الذي اسمعه في البيت قال انطلق يرحمك الله لحاجتك قال عليّ ذاك ما هو قال امرأة تمخّض قال هل عندها احد: قال لا قال (اي انس) فانطلق حتى اتى منزله فقال لامرأته ام كلثوم بنت علي رضي الله عنهما هل لكِ في اجرٍ ساقه الله اليك: قالت وما هو: قال امرأة عربية تمخّضْ ليس عندها احد: قالت نعم ان شئت: قال فخذي معك مايصلح المرأة لولادتها من الخرق والدهن وجيئيني ببرمة وشحم وحبوب: قال فجاءت به فقال لها انطلقي وحمل البرمة ومشت خلفه حتى انتهى الى البيت فقال لها ادخلي الى المرأة وجاء حتى قعد الى الرجل فقال له اوقدلي ناراً ففعل فأوقد تحت البرمة حتى أنضجها وولدت المرأة فقالت امرأته: يا امير المؤمنين بشر صاحبك بغلام: فلما سمع (اي الرجل) يا امير المؤمنين كأنه هابه فجعل يتنحى عنه فقال له مكانك كما انت فحمل البرمة فوضعها على الباب ثم قال (اي لام كلثوم) اشبعيها ففعلت ثم اخرجت البرمة فوضعتها على الباب فقام عمر رضي الله عنه فأخذها فوضعها بين يدي الرجل فقال كلْ ويحك فانك قد سهرت من الليل ففعل ثم قال (اي عمر) لامرأته اخرجي وقال للرجل اذا كان غد فأتنا نأمر لك بما يصلحك ففعل الرجل فأجازه واعطاه

لله ايّ نفس طاهرة بارة هذه النفس واي حنان خالص من شوائب التصنع هذا الحنان وايّ خليفة عظيم بعد عمر يحمّل نفسه مثل هذا العناء ويضع نفسه في هذه المرتبة من التواضع والرحمة ويأخذ نفسه بهذا الادب والاهتمام بافراد الرعية وهو يحتاج الى التجرد عن شهواة الملك وعظمة السلطان والتنزل عن مرتبة التسلط والكبرياء الى منزلة التساوي بأفراد الرعية وهيهات هيهات

فانّ الجبروت ملكة في نفوس الملوك لايمحوها الا الرغبة في الله كرغبة عمر او الرهبة من الشعب كرهبة ملوك الافرنجة من رعيتهم لهذا العهد

﴿ ورعه وزهده ﴾

تقدم معنا في سيرة ابي بكر (رض) ان طريقة الصحابة في الزهد هي العفة عن الفضول والقناعة بالكفاف وان ليس منهم الا من كان له سبيل للارتزاق وعمل اليد سواء كان في التجارة والصناعة وقد كان عمر كما في رواية النخعي تاجراً وانما هو كأبي بكر رضي الله عنهما ترك التجارة لمّا ولي امر المسلمين واقتنع من بيت المال بالكفاف وقال اصحاب السير ان عمر (رض) لما كتب نفسه في العطاء اقام نفسه مقام الاجير واخرج ابن جرير الطبري في تاريخه وابن الجوزي في المناقب عن نافع عن ابن عمر قال : جمع عمر الناس بالمدينة حين انتهى اليه فتح القادسية ودمشق فقال اني كنت امرءاً تاجراً وقد شغلتموني بأمركم هذا فماذا ترون انه يحل لي من هذ المال فاكثر القوم وعليّ رضي الله عنه ساكت : فقال يا عليّ ما تقول : قال ما يصلحك ويصلح عيالك بمعروف ليس لك من هذا الامر غيره : فقال القول ما قال عليّ بن ابي طالب

واخرجا عن اسلم قال : قام رجل الى عمر بن الخطاب (رض) فقال ما يحل لك من هذا المال : فقال ما اصلحني واصلح عيالي بمعروف وحلة للشتاء وحلة للصيف وراحلة عمر للحج والعمرة ودابة لحوائجه وجهاده

وروى الطبري ان هذا العطاء الذي رضيه عمر لنفسه وفرضه له المسلمون لم يكفه واشتدت به الحاجة فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وتشاوروا في زيادة يزيدونها لعمر في رزقه من بيت المال فهابوا مفاتحته بذلك فاتوا ابنته حفصة وامروها ان تخبره بالخبر وترى رأيه فيه ولا تذكر له

اسماءهم فلما اخبرته بذلك عرفت الغضب في وجهه وقال لها من هؤلاء : قالت لا سبيل الى علمهم حتى اعلم رأيك فقال لو علمت من هم لسوئتُ وجوههم انت بيني وبينهم انشدك بالله ما افضل ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك من الملبس (وكانت زوجته) قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما الجمع قال فايّ الطعام ناله عندك ارفع : قالت خَبَزْنا خبزة شعير فصببنا عليها وهي حارة اسفل عكة[1] فجعلناها هشة[2] دسمة فا كل منها وتطعّم استطابة لها : قال فاي مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ[3] قالت كساء لنا ثخين كنا نربعه في الصيف فنجعله تحتنا فاذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه قال يا حفصة فابلغيهم عني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدّر فوضع الفضول مواضعها وتبلّغ بالترجية واني قدّرت فوالله لأضعنّ الفضول مواضعها ولأتبلّغنّ بالترجية[4] وانما مثلي ومثلَ صاحبَيّ كثلاثة سلكوا طريقاً فمضى الاول وقد تزوّد زاداً فبلغ ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فافضى اليه ثم اتبعه الثالث فان لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وكان معهما وان سلك غير طريقهما لم يجامعهما

هكذا كان شأن عمر رضي الله عنه في العفة والقناعة والرضى بالكفاف مما يسد الجوع ويستر العرى وروي في المناقب عن الحسن قال خطب عمر الناس وهو خليفة وعليه ازار فيه اثنتا عشرة رقعة . وفي المناقب ايضاً عن ابي عثمان النهدي قال رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالبيت وعليه ازار فيه اثنتا عشرة رقعة احداهن بادم (جلد) احمر : وفيها عن قتادة ان عمر بن الخطاب ابطأ على

---

(١) قربة السمن الصغيرة (٢) طرية (٣) ألين (٤) قال في القاموس تبلغ بكذا أكتفى به والترجية والرجاء بمعنى واحد وهو ضد اليأس

الناس يوم الجمعة ثم خرج فاعتذر اليهم في احتباسه وقال انما حبسني غسل ثوبي هذا ولم يكن لي ثوب غيره

وفيها عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال . قالت حفصة بنت عمر بن الخطاب لعمر يا أمير المؤمنين لو لبست ثوباً هو الين من ثوبك هذا واكلت طعاماً هو ألين واطيب من طعامك فقد وسع الله من الرزق وأكثر من الخير. فقال اني سأخاصمك الى نفسك أما تذكرين ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من العيش : فما زال يذكرها حتى أبكاها

ومن هذا وغيره من أخبار عمر الكثيرة في الزهد نعلم انه (رض) انما سلك هذا الطريق من الزهد اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأبي بكر الصديق ولم يكن يرضى لعامة المسلمين بمثل هذا الزهد والتقشف وانما هو كان يحملهم على الطريق الوسطى كي لا ينغمسوا في النعيم ويسترسلوا في الشهوات فتفسد اخلاقهم وتفتر هممهم ولا ينقطعوا عن العمل ويعرضوا بتاتاً عن نعيم الحياة فتجمد ملكاتهم وتتعطل أمور معاشهم ومن يرى كتابه الذي كتبه الى أبي عبيدة بن الجراح (وستأتي صورته في باب كتبه) يلومه فيه على شدته في منع المسلمين عن التنعم يتضح له مذهبه في حمل المسلمين على طريق الوسط وعدم حملهم على الزهد وانما هو كان يشدد على العمال فقط في النهي عن التنعم ويحملهم على طريقته في الزهد كي لا يتبسطوا في نعيم الحضارة ويتوسعوا في أسباب الرفاهة فيحملهم ذلك على السرف الذي يحتاج الى كثرة المال وربما حملت أحدهم حاجة السرف الى تناول المال من غير طرقه المشروعة فتتأذى بهم الرعية ويضطرب نظام العدل الذي لم يكن شيء في الدنيا احب اليه منه

كلمة في بيت المال

علمت مما مر في الفصل السابق ان عمر رضي الله عنه انما سلك في زهده وتعففه طريق النبوة ولم يأخذ من بيت المال الا مقدار الحاجة للمعيشة الساذجة التي تليق بزهده كما ان المسلمين انما راعوا في فرضهم العطاء له حالة معيشته ولما اشتدت به الحاجة رأوا لزوم الزيادة في عطائه ليعادل نفقته فأبى عليهم هذه الزيادة ورعا وزهداً وعمل الصحابة هذا يدل على جواز تناول الامير من بيت المال ما فيه الكفاية له في معيشته بنسبة حاله فيما لو ترقت اصول معيشته اذ ليس في طاقة كل خليفة ان يسلك مسلك عمر وابي بكر في التقشف والزهد ويتأدب مثلهما بآدب النبوّة وليس ذلك بواجب على كل خليفة بل الواجب هو القصد في المعيشة والامساك عن البذل الى حد السرف والتعفف عن فضول اموال الأمة ووضعها في مواضعها المشروعة كما كان ذلك من الخليفة عثمان رضي الله عنه فانه لما لم يستطع المسير على قدم من سبقه جاز له ان يتوسع في المعيشة ويتناول من بيت المال ما يكفيه من غير صرف ولا تقتير

وقد رأيت ان الصحابة رضوان الله عليهم لما تشاوروا في امر الزيادة في عطاء امير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) انما راعوا حاجته الضرورية التي كانت تناسب معيشته وتقضي بتلك الزيادة ولم يراعوا نفس المنصب او يريدوا التوسعة عليه بفضول الاموال كما انه هو لم يرض بتلك الزيادة خشية ان يكون فيها شيء من السرف في الاموال وحبذا لو نظر الخلفاء بعد هذا النظر وراعوا في بيت المال أوامر الشريعة وسنة السلف من الصحابة فان فيها كل الحكمة وليست في ذاتها بمانعة لهم عن تناول مقدار الحاجة مهما بلغ وانما هي تمنع من تناول الفضول والتوسع في البذل والسرف في المعيشة الى حد الاستئثار

بأموال بيت المال وتبديدها في سبيل الشهوات ووضعها في غير مواضعها المشروعة التي بها قوام الامة كلها لا الخليفة وحده ولقد بلغ تجاوز هذه الحدود المعقولة في دول الاسلام مبلغاً يدهش عقول الباحثين وما نظن الا ان اكثر البلاء الذي حل بهذه الامة والضعف الذي انتابها في العصور القديمة والحديثة ناشئ عن اسراف امرائها وسلاطينها وتبديدهم للاموال في طرق الشهوات وليست هذه الآفة خاصة بدول الاسلام وانما هي عامة في كل دول الارض وانما هي تتفاوت بتفاوت الامم بمعرفة حقوق الرؤساء وحقوقها وتتباين بتباين صفة الحكومة في كل قوم

وأشقى الامم من هذا القبيل الأمم التي لا حد لسلطة رؤسائها يعرف ولا غاية لسلطانهم توصف وانما هم ارباب اليد المطلقة في اموال الرعية يأخذون منها ماشاءوا ويمنعون من شاءوا وينفقون الاموال فيما شاءوا ليس عليهم من الامة رقيب عتيد ولا من الوجدان زاجر عنيد وقلما منيت مملكة بهذا النوع من الحكم وبهذا البلاء من التسلط الا في زادها وساء معادها والشاهد على هذا من دول الاسلام سيأتي في هذا الكتاب وأما من دول اوروبا فيكفي فيه ان يقال ان الامبرطور شارلكان الذي قام في اوروبا في اوائل القرن السادس عشر بعد المسيح وملك معظم الديار الاوربية وتسلط على سائر الشعوب و لدول ثم لم يكن لسلطته حد في بيوت الاموال جعل ينفق منها في سبيل سيادته على الملوك في عصره ما لا يدخل تحت حساب حتى اذا احس بالعجز عن سياسة ذلك الملك العريض لفقر بيوت امواله ونها كه قوى رعيته انزوى في دير من الاديرة ولم يلبث ان مات فيه وانكشف بموته عن سماء الممالك الاوربية ظل الاسبانيول وذلك اساس ما بناه شارلكان لنفسه من الملك الكبير

حتى كأنه ما كان . لهذا لما تنبهت الشعوب الاوربية من سنة الغفلة ووضعوا حداً لسلطة الرؤساء والأمبراطرة اخذوا على أيديهم فيما اخذوا التسلط على بيوت الاموال وفرضوا الكل منهم كفايته منها بنسبة حاله في المعيشة وحال بلاده من الثروة كما كان ذلك على عهد الخلفاء في صدر الاسلام فكان من ذلك ان عم اليسر خزائن الدول الاوربية وتوفرت على القيام بشؤون الرعية الحربية والعلمية واعتزت بفضول المال بأسباب المنعة والجاه والقوة فبسطت جناح السلطان على معظم ممالك الارض وهذا شأن الحياة في الامم اذا دب دبيبها في جسمها ونبهت دورة الدم في عروقها والعكس بالعكس

ومن عجيب الامور ان يد الحاكم متى اطلقت في بيت المال يتفشى الخلل في سائر فروع الحكومة تفشيا وبيلا بحيث لو اراد الحاكم نفسه ان يتلافى ذلك الخلل لتعذر عليه ذلك بأي سبب من الاسباب ولو مهما كان قادراً ومملكته غنية واقرب شاهد نذكره للشرقي هنا ما كان في عهد المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الاسبق في مصر من الخلل العظيم في سائر فروع الحكومة المصرية بسبب تسلطه على أموال الحكومة وسرفه فيها وتبديده لها في الوجوه التي لا تستلزمها حياة الامة ولا الملك حتى كان من ذلك ان بات العامل في الحكومة والجندي في التكنة لا يتناولان مرتبهما الا كل بضعة شهور مرة مع غنى البلاد وثروتها ومع ماحملها من الديون التي تزيد عن مائة مليون من الليرات (الجنيهات)

ولما أحس بالخطر الذي أشرفت عليه البلاد والضيق الذي استحوذ على مالية الحكومة وهب لتلافي ذلك الخطر وأخذ في تنظيم شؤون البلاد تعذر عليه ذلك مع طول باعه في السياسة وحنكته في الامور ووجود رجال يساعدونه على ذلك القصد ثم فشل فشله المعروف في التاريخ وانتهى الامر بعزله عن أمارة

مصر باتفاق كل الدول صاحبات الديون في مصر مع الدولة العلية صاحبة الشأن فيها ولما ولي الامارة ابنه المرحوم توفيق باشا وأقبل منها على أمر جلل لا يقوم به الا المقيف الحازم الرأي وأراد أن ينقذ البلاد من ورطة العوز والحكومة من خلل النظام فاول مابدأ به ان كف يده عن بيوت الاموال وأمر بتنظيم شؤون الجباية وقيد نفسه بقانون مخصوص من جهة مايتناوله وأبناء عشيرته من الامراء من مال الحكومة وكان ذلك باشارة بعض مندوبي الدول صاحبات الشأن في المالية وهو لحسن قصده لم يقاوم رأيهم او يأبي قبول اشارتهم ومن ثمّ ظهرت في الحكومة علائم الاصلاح وبدت في الحال ثمرة تنظيم الشؤون المالية حتى حدث ما حدث في مصر من اسباب الثورة العرابية واحتلال الدولة الانكليزية في البلاد ثم مضى الامر لهذا العهد على وجهه واستمر نظام المالية في نمو وجباية البلاد في ازدياد حتى بلغت الى هذا العهد عشرة ملايين ونصفاً ونيفاً من الجنيهات وانتظمت سائر فروع الحكومة انتظاماً يحسدها عليه كثير من الشعوب الشرقيين وحكوماتهم وكل ذلك نتيجة كف يد الحاكم عن بيوت الاموال وضبط أصول الجباية وحسابات الحكومة والله يوفق من شاء لى ما شاء

هذا واما واضع بيت المال في الاسلام فانه ابو بكر (رض) كما مر في سيرته وانما كان ساذجاً تحشر اليه الاموال من الفيء والصدقة ثم توزع في اماكنها المشروعة وعلى الوجوه التي امر بها الله في الكتاب الكريم الذي وضع للمسلمين أصول التوزيع (المعروفة الآن بميزانية الحكومة المالية) وقد مر ذكر ذلك الا انه لم يكن له ضابط ولا قيد في ديوان وقد رأيت فيما مضي من سيرة عمر رضي الله عنه كيف نهض لوضع الديوان لما كثر الفيء والخراج وزادت الجباية ضبطاً لاموال بيت المال وتقييداً للنفقات وقد كان

ديوان بيت المال هو الدفتر الذي يضبط فيه الحساب ثم ما زال يترقى الحال حتى تفرع عن بيت المال عدة دواوين على عهد الخلفاء من بني أمية وبني العباس كافرادهم ديوان العطاء وحده وكذلك ديوان الخراج وديوان الاقطاع وسنستقصيها عند الكلام على رجال هذه الدول ان شاء الله وكل هذه الدواوين كانت تابعة لبيت المال وقد توسع الأئمة والفقهاء بعدُ في وضع الضوابط والقوانين التي تتعلق ببيت المال وكلها كانت استنباطا من أصول الشريعة وعمل الصحابة مثل كتاب الخراج لابي يوسف وما يشبهه من الكتب الواردة في مؤلفات الفقه الاسلامي الاّ انّ أمر بيوت الاموال تقلّب بعد ذلك بتقلب الدول الاسلامية وتغير بتغير الزمان وخرجت ضوابطه عن طوق الفقهاء واستأثر بها الامراء قلباً وإبدالاً ومحواً وإثباتاً على مقتضى الظروف والاحوال الى الآن

﴿ حسبته ﴾

أصل الحسبة هي مشارفة السوق والنظر في موازينه ومكاييله ومنع الغش والتدليس فيما يباع ويشرى فيه من المأكول والمصنوع وغيره ورفع الضرر عن الطريق ودفع الحرج عن السابلة وتنظيف الازقة وبالجملة هي كل الوظائف المتعلقة بما يعرف الآن بالمجالس البلدية ولها في الاسلام ولاية خاصة تسمى ولاية الحسبة واول من وضعها على ما يظهر هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد جاء في كنز العمال في حديث اخرجه ابن سعد عن الزهري انّ عمر بن الخطاب استعمل عبدالله بن عُتبة على السوق: وقال العلماء هذا اصل ولاية الحسبة

ومن ثم ترقت الحسبة في الاسلام ترقياً عجيباً حتى كانت من أهم الشؤون التي عني بها الخلفاء والفقهاء وقد توسع بعض العلماء بتوسع الحاجة في وظيفة والي الحسبة فجعلوها تشمل كل أمر بمعروف ونهي عن منكر ومن هؤلاء

شيخ الاسلام ابن تيمية فقد اجاز التوسع في ولاية الحسبة حتى في اقامة الصلوات الخمس في مواقيتها وتعاهد الأئمة والمؤذنين وإلزامهم باداء وظائفهم على مقتضى الشرع وحجته في جواز التوسع بهذه الوظيفة ما قاله عن الولايات في كتاب الحسبة في الاسلام المطبوع حديثاً في مصر ونصه

عموم الولايات وخصوصاً وما يستفيده المتولي بالولاية يتلقى من الالفاظ والاحوال والعرف وليس لذلك حد في الشرع فقد يدخل في ولاية القضاء في بعض الامكنة والازمنة ما يدخل في ولاية الحرب في مكان وزمان آخر وبالعكس وكذلك الحسبة وولاية المال اه

ومن هذا ترى مبلغ عناية القوم بهذه الوظيفة السامية وتوسعهم فيها وإتقانهم لها حتى انا رأينا من بعض آثار الحسبة على عهد الفاطميين قطعاً مستديرة من الزجاج ومزيجاً آخر معه على وزن الدينار والدرهم مكتوباً عليها وزن واف او ما هو بمعناه ومنها الاوزان الخفيفة وكما كانت تصدر من ولي الحسبة او المحتسب على تعيير المتأخرين لاجل ان ينضبط بها الناس عيار الدراهم والدنانير والاوزان على ما يظن منعاً للتلاعب والغش [illegible] على التاريخ الذي نحن فيه اسم المحتسب واسمه منذ نشأت مجالس البلدية في المملكة العثمانية وستحكم عليها في مكان آخر بتوسع ان شاء [illegible]

اما حسبة عمر رضي الله عنه فقد قدمنا انه استعمل عبد الله بن عتبة ومع ذلك فقد كان يقوم بنفسه بوظيفة المحتسب ويطوف السوق ويراقب المكاييل والموازين ويأمر بإماطة الاذى عن الطريق

اخرج الامام ابن الجوزي عن المسيب بن دارم قال : رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرب جمالاً ويقول حملت جملك ما لا يطيق

وفي كنز العمال عن زيد بن فياض عن رجل من اهل المدينة قال دخل عمر بن الخطاب السوق وهو راكب فرأى دكاناً قد أحدث في السوق فكسره

وفيه عن عبد الله بن ساعدة الهذلي قال: رأيت عمر بن الخطاب يضرب التجار بدِرّة اذا اجتمعوا على الطعام بالسوق حتى يدخلوا سكك أسلم ويقول لا تقطعوا علينا سابلتنا

وفيه عن عليّ انه كان يأمر بالمثاعب[1] والكنف تقطع عن طريق المسلمين

وفيه عن القاسم بن محمد انّ عمر بن الخطاب مرّ بحاطب بسوق المصلّي وبين يديه غرارتان فيهما زبيب فسأله عن سعرها فسعر مدّين بكل درهم فقال له عمر: حدثت بعير مقبلة من الطائف تحمل زبيباً وهم يعتبرون بسعرك فاما ان ترفع في السعر واما أن تدخل زبيبك البيت فتبيعه كيف شئت فلما رجع عمر حاسب نفسه ثم أتى حاطباً في داره فقال انّ الذي قلتُ ليس بعزمة ولا قضاء وانما هو شيء اردت به الخير لاهل البيت فحيث شئت فبع وكيف شئت فبع (اخرجه الشافعي في السنن)

وله اخبار غير هذه في الحسبة وقد اكتفينا عنها بما تقدم دلالة على الباقي

﴿ قضاؤه ﴾

كتبنا في سيرة أبي بكر فصلا عن القضاء في الاسلام وكيف كان يقضي ابو بكر وعمر رضي الله عنهما فلا نرى حاجة للمزيد هنا الا بعض أخبار عمر في القضاء فانا نأتي بها إتماماً للفائدة

كان عمر رضي الله عنه يتولى القضاء بنفسه وينيب عنه غيره لما هو معروف من أن القضاء في الاسلام وظيفة من وظائف الامام يجوز له أن يتولاها بنفسه

(١) مسايل الماء كما في النهاية

وأن يغيب بها عند الحاجة غيره وكان تحريه للعدالة في إنتخاب القضاة كتحريه في انتخاب الولاة لا يراعي في كليهما الا الاهلية والاستعداد والتقوى والعدل ويعلم ان اثم الظالم اذا ظلم على موليه فقد اخرج ابن الجوزي في المناقب عن عبد الملك بن عمير قال : قال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه من استعمل رجلا لمودة أو لقرابة لا يستعمله الا لذلك فقد خان الله ورسوله والمؤمنين

وأخرج عن عمران بن سليم عن عمر قال : من استعمل فاجراً وهو يعلم انه فاجر فهو مثله

وكما كان يتحرى في انتقاء العمال والقضاة التقوى والعدالة يتحرى العلم والمعرفة والذكاء ويبغض خرق العامل وجهله

أخرج ابن الجوزي عن محارب بن دثار عن عمر بن الخطاب انه قال لرجل قاض من أنت قال قاضي دمشق : قال كيف تقضي : قال اقضي بكتاب الله : قال فاذا جاءك ما ليس في كتاب الله قال أقضي بسنة رسول الله : قال فاذا جاءك ما ليس في سنة رسول الله : قال اجتهد رأيي وأوامر (أي أشاور) جلسائي : قال احسنت : وقال فاذا جلست فقل اللهم اني أسئلك ان افتي بعلم وان أقضي بحكم . وأسئلك العدل في الغضب والرضى : قال فسار الرجل ما شاء الله ان يسير ثم رجع الى عمر : فقال ما رجوعك : قال رأيت الشمس والقمر يقتتلان مع كل واحد منهما جنود من الكواكب : فقال مع ايهما كنت : قال مع القمر : قال يقول الله عز وجل (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) لا تلي لي عملا

وانما عزله لجهله وأبعده عن العمل لسخافة قوله وهكذا كان شأنه مع عماله رضي الله عنه

وكان لا يحب تعجيل الفصل في الخصومة رجاء ان يصطلح الخصمان وتمحى

آثار الضغائن من النفوس فقد جاء في كنز العمال عنه رضي الله عنه انه قال ردوا الخصوم حتى يصطلحوا فان فصل القضاء يورث الضغائن بين الناس : وأما كلامه في القضاء ووصاياه للقضاة فتظهر من الكتابين التاليين

﴿ كتابه في القضاء الى شريح القاضي ﴾

أما بعد اذا جاءك شيء في كتاب الله فاقض به ولا يلفتنك عنه الرجال فان جاءك امر ليس في كتاب الله فانظر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها فان جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به . فان جاءك ماليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ولم يتكلم فيه احد قبلك فاختر أي الامرين شئت ·ان شئت ان تجتهد رأيك وتقدم فتقدم·وان شئت ان تأخر فتأخر ولا أرى التأخير الا خيراً لك أهـ (من كنز العمال)

﴿ كتابه في القضاء الى أبي موسى الاشعري ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم (أما بعد) فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدلي اليك [1] فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له آس [2] بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك [3] ولا يخاف ضعيف من جورك والبينة على من ادعى واليمين على من انكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً . ولا يمنعك قضاء قضيته بالامس راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهم عند ما يتلجلج [4] في صدرك مما لم يبلغك في كتاب الله ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم . اعرف الامثال والاشباه وقس الامور عند

(١) رفع لك الامر وجيء به اليك (٢) اعدل وساو (٣) الحيف الجور والظلم كما في القاموس (٤) التلجلج التردد في الكلام كما في القاموس

ذلك ثم اعمد الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق فيما ترى واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي اليه (أي وقتاً محدوداً) فان احضر بينته أخذت له بحقه والا وجهت عليه القضاء فان ذلك انفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر. المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلوداً في حد اومجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً[1] في ولاء أو قرابة فان الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالشبهات. ثم اياك القلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر فانه من يخلص بها نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره وابدى فعله والسلام (من البيان والتبيين)

وهذا الكتاب على ايجازه هو الذي تدور عليه احكام القضاء الى هذا العهد

واما أقضيته فكثيرة لا يسعها هذا الكتاب فليرجع اليها من احب في كتب الحديث وقد خالف في بعض أحكامه ماقضت به السنة مراعاة للحال والمصلحة فلم يؤآخذ على ذلك لحسن قصده منها حكمه بتحريم المتعة وقد أحلت في ظروف مخصوصة ومنها حكمة بوقوع الطلاق الثلاث اذا صدر عن شخص مرة واحدة مع ان السنة قضت بوقوعه طلقة واحدة وأراد بهذا قهر النفوس على تجنب الطلاق لما يحصل عند المطلق من الندامة اذا احس بألم الحكم بوقوع الطلاق الثلاث وغير ذلك من الاحكام النافعة التي أخذ بها بعد كثير من أئمة المسلمين اقتداء بحسن رأيه وجميل قصده فليرجع اليها في مظانها من كتب الأئمة والمحدثين من شاء

---

(١) هو المتهم بسبب قرابته او ولائه

﴿ فراسته وذكاؤه ﴾

كان رضي الله عنه حديد الذكاء شديد الفراسة يكاد بفراسته يستطلع خبايا القلوب ويستخرج ما تكنه النفوس وقد ساعده تفرسه في الناس على وضع الشدة في مواضعها واللين في مواضعه حتى أخذ بنواصي الناس واستكانت له رغبة ورهبة وكان اشد الناس حذراً منه قريش كما كان هو اشد الناس حذراً منهم واستكناهاً لكنه ضمأرهم ليحسن الى محسنهم ويأخذ على يدي مسيئهم لهذا دبت في قلوبهم هيبته وفعلت في نفوسهم فراسته

لما جاء عمرو بن العاص من جيفر وأخبر المسلمين بكثرة من تجمع لهم من جيوش الردة في خلافة ابي بكر تفرق المسلمون وتحلقوا حلقاً واقبل عمر للتسليم على عمرو فمر على حلقة فيها نفر من المهاجرين وهم علي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد فلما دنا عمر منهم سكتوا : فقال فيم انتم فلم يجيبوه فاستطلع طلع بواطنهم وادرك بفراسته ماهو دائر بينهم من الكلام فقال لهم : انكم تقولون ما أخوفنا على قريش من العرب : قالوا صدقت : قال فلا تخافوهم أنا والله منكم على العرب اخوف مني من العرب عليكم والله لو تدخلون معاشر قريش جحراً لدخلته العرب في آثاركم فاتقوا الله فيهم ومضى

ولا يخفى ما في هذا الكلام من المغامز خلا ما فيه من الاستخفاف بقوة العرب وانما ادرك ماخامر نفوسهم من اخبار الردة فاراد ان يستفز منهم صدق العزيمة لمضافرة ابي بكر ومكاتفته على استخضاع العرب ويبين لهم انهم قدوة العرب وأئمة الناس فحيثما اتجهوا اتجه معهم الناس طوعاً او كرهاً وهذا هو الحق الذي تشهد له الحوادث العظمى التي حدثت بعد خلافة ابي بكر وعمر وسيق بها العرب الى ماسيقوا اليه ودخلوا مع قريش الى حيث دخلوا كما هو معروف في

التاريخ وسنيشير اليه في محله ان شاء الله

وحسب عمر من سعة المدارك وبعد النظر والذكاء قيامه ببيعة أبي بكر ومبادرته الى ذلك قبل اخوانه من المهاجرين مع تحققه ان أمر البيعة منوط بالشورى متوقف على اتفاق المهاجرين وغيرهم من أهل الحل والعقد لهذا اعتدها بعد ذلك فلتة وقى الله المسلمين شرها كما سترى في احدى خطبه التي تجيء في باب الخطب وانما عجل ببيعة أبي بكر لما كان يتفرسه في وجوه القوم ويتوقعه من المهاجرين من الاختلاف كما كان ذلك من الانصار ويا ويح الأمة لو حدث من الخلاف بين المهاجرين في ذلك العهد ما حدث في خلافة عثمان وما بعده اذ كان الاسلام غضاً طرياً والناس لوفاة النبي صلى الله عليه وسلم في اضطراب والعرب على قدم القيام على المسلمين وإنما تلافى هذا الخطر وحال دون ذلك الخلاف عمر رضي الله عنه بمبايعته لابي بكر لعلمه انه أقدم المهاجرين اسلاماً وأكبرهم سناً وأضعفهم عصبية فاذا تعجل بمبايعته قطع آمال المتطلعين الى الخلافة من أولي العصبيات الكبيرة فكانوا باجمعهم عصبية لابي بكر يذودون عن حوضه ويفون بحق طاعته لاسيما وان ليس لاحد منهم غاية بعد تقرير أمر الخلافة الا نصرة الدين والقيام على الحق شأنهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مدى حياته وانما هم تزاحموا على الخلافة بعدُ لاعتزاز كل فرد منهم بعصبيته او سابقته في الاسلام وكونه يرى نفسه أولى بخدمة المسلمين وأحق بامرة المؤمنين لانهم كما قدمنا في غير هـذا المحل كانوا كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها . أي كلهم أهل للخلافة وجـدير بخدمة ذلك المنصب فقيام عمر ببيعة أبي بكر قطع جهيزة قول كل خطيب وجعلهـم كلهم راضين بها لعلمهم بسابقته وفضـله وعزيمته ولاطمئنان ضمير كل فرد من المتطلعين اليها بصرفها عن الآخر وهذا

الذي دعا لارتياحهم جميعاً لخلافة أبي بكر وإنما كان القائم بها العارف بلزومها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم أجمعين

ومن عجيب فراسته التي كان كأنه ينظر منها بعين الغيب ما ذكره ابن عبد ربه في العقد قال: قال أبو بكر بن أبي شيبة كان عبد الله بن عباس من أحب الناس الى عمر بن الخطاب وكان يقدمه على الاكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ولم يستعمله قط فقال له يوماً كدت أستعملك ولكن أخشى أن تستحل الفيء على التأويل فلما صار الامر الى عليّ استعمله على البصرة فاستحل الفيء على تأويل قول الله تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى) واستحله من قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تفرس فيه ذلك عمر من قبل

هكذا كان مبلغ فراسة عمر رضي الله عنه خصوصاً في بني هاشم وقد كان يتفرس فيهم القيام يوماً لطلب الخلافة واثارة غبار الفتن والاستحواذ على ذلك المنصب الذي كانوا يرون أنفسهم احق الناس به على خلاف ما كان يراه جلة المهاجرين الذين يعلمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم منعهم من أن يعملوا له عملا كي لا يحدثوا أنفسهم بشيء من الامارة لانها غير النبوة ومن ذلك ما ذكره في العقد ان العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم طلب منه ولاية فقال له (يا عم نفس تحييها خير من ولاية لا تحصيها)

وكان عمر لتفرسه فيهم التطلع الى الامارة لايستعمل أحداً منهم كما لم يستعملهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجاهر بظنه هذا فيهم وقد جاهر به لعبد الله بن عباس مراراً ومنه ما تقدم ذكره في باب سياسته اذ قال له: يا ابن عباس اني خشيت أن يأتي عليّ الذي هو آت وأنت في عملك فتقول هلم الينا ولا هلم اليكم دون غيركم:

ولقد تحققت فراسته في بني هاشم بعدُ اذقضوا عصوراً طويلة في مكافحة الملوك ومزاحمة الخلفاء على الخلافة وأسسوا عدة دول أضخمها العباسية في بغداد والفاطمية في أفريقيا واهرقوا سيولاً من دماء اشياعهم واشياع غيرهم في سبيل نيل هذه البغية. وتأتي عن هذه المزاحمة من التشويش في امور الدول الاسلامية والاضطراب في المسلمين ما الله به عليم: على انهم لو اتعظوا بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ صرف أسلافهم عن الامارة وصرفها عنهم لما أقدموا على شيء من ذلك بل لكانوا اذا استمر في نفوسهم شيء من التطلع الى الخلافة سلكوا اليها سبيلا غير ذلك السبيل وجعلوا الأمة باجمعها طامحة الانظار اليهم ساعية بنفسها لاسناد منصب الخلافة لاهل الجدارة منهم وحسبهم موعظة وذكرى انّ عليّ بن ابي طالب رضي الله عنه على صلاحه وتقواه وسابقته في الاسلام وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهرته بالعدل والورع والزهد (ومن كعلي بعده) لم يتوفق لجمع كلمة الأمة على الرضى بخلافته لا لقصور فيه معاذالله وانما هو لما وقر في نفوس الامة يومئذ من ان الهاشميين بسبب قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينفكون عن الادلال على الناس وحب الاستعلاء على الكافة والناس يومئذ في إبّان نشأة الاسلام وعز الحرية وحظيرة المساواة والاخاء التي حشرهم اليها الاسلام بقوله تعالى (انما المؤمنون اخوة) وبقول النبي صلى الله عليه وسلم (لافضل لعربي على عجمي الاّ بالتقوى) فتوّهمُ ان يسلبهم بنوهاشم شيئاً من هذه النعمة بالاستعلاء عليهم كانوا غير ميالين لاستخلاف احد منهم يدلك على صدق هذا القول ما ذكره في العقد عن عبد الله بن عباس قال: ماشيت عمر ابن الخطاب يوماً فقال لي يا ابن عباس ما يمنع قومكم منكم وأنتم اهل البيت خاصة: قلت لا أدري: قال لكنني ادري انكم فضلتموهم بالنبوة فقالوا ان فضلوا بالخلافة

مع النبوة لم يبقوا لنا شيئاً وان أفضل النصيبين بأيديكم بل ما اخالها الا مجتمعة لكم وان نزلت على رغم انف قريش (يريد الخلافة)

﴿ نُبَذٌ من فنون اقواله واخباره ﴾

من اخباره في الشفقة ورقة القلب ما أخرجه في المناقب عن الاحنف بن قيس قال وفدنا على عمر رضي الله عنه بفتح عظيم فقال أين نزلتم : فقلت في مكان كذا فقام معنا حتى انتهينا الى مناخ رواحلنا فجعل يتخللها ببصره ويقول: الا اتقيتم الله في ركابكم هذه أما علمتم ان لها عليكم حقاً ألا اخليتم عنها فأكلت من نبتِ الارض : فقلنا يا أمير المؤمنين انا قدمنا بفتح عظيم فاحببنا التسرع الى امير المؤمنين بما يسره

عن نافع قال دخل شاب قوي المسجد وفي يده مشاقص (١) وهو يقول من يعينني في سبيل الله فدعا به عمر فأُتي به فقال من يستأجر مني هذا يعمل في أرضه فقال رجل من الانصار - انا يا امير المؤمنين : قال بكم تأجره قال كل شهر بكذا وكذا قال خذه فانطلق به : فعمل في ارض الرجل اشهراً ثم قال عمر للرجل : ما فعل أجيرنا : قال صالح يا امير المؤمنين : قال ائتني به وبما اجتمع له من الاجر . فجاء به وبصرة من دراهم : فقال (عمر للرجل) خذ هذه فان شئت فالآن اغز وان شئت فاجلس

وشفقته على هذا الرجل هي من جهة انه رآه قوياً واهلا للعمل فأعطاه لمن يستأجره كي لا يكون عالة على الناس

ومن جميل اخباره في تأديب الناس على ستر العورات وكتمان ما يمس بشرف الصيانة ماجاء في المناقب عن الشعبي قال اتى عمر بن الخطاب رجل فقال ان

---

(١) قال في القاموس المشقص كمنبر نصل عريض او سهم فيه ذلك والنصل الطويل او سهم فيه ذلك يرمي به الوحش

ابنة لي كنت وأدتها[1] في الجاهلية فاستخرجناها قبل ان تموت فأدركت معنا الاسلام فاسلمت ثم أصابها حد من حدود الله فاخذت الشفرة لتذبح نفسها وأدركناها وقد قطعت بعض اوداجها فداويناها حتى برأت ثم اقبلت بعد توبة حسنة وهي تخطب الى قوم أفأخبرهم بالذي كان : فقال عمر (رض) اتعمد الى ماستره الله فتبديه والله لئن اخبرت بشأنها احداً من الناس لاجعلنك نكالا لاهل الامصار نكحها نكاح العفيفة المسلمة

ومن اخباره في رفع القصاص عن القاتل دفاعاً عن الشرف والعرض ما أخرجه في المناقب عن الليث عن عبد الله بن صالح قال أتى عمر بن الخطاب بفتى أمرد وجد قتيلا ملقى على وجهه في الطريق فسأل عمر عن أمره واجتهد فلم يقف له على خبر ولم يُعرف له قاتل فشق ذلك على عمر وقال اللهم اظفرني بقاتله حتى اذا كان رأس الحول او قريباً من ذلك وُجد صبي مولود ملقى موضع القتيل فأتى به عمر فقال ظفرت بدم القتيل انشاء الله فدفع الصبي الى امرأة وقال لها قومي بشأنه وخذي منا نفقته وانظري من يأخذه منك فاذا وجدت امرأة تقبله وتضمه الى صدرها فاعلميني بمكانها فلما شب الصبي جاءت جارية فقالت للمرأة ان سيدتي بعثتني اليك تبعثي الصبي لتراه وترده اليك . قالت نعم اذهبي به اليها وأنا معك فذهبت بالصبي والمرأة معها حتى دخلت على سيدتها فلما رأته أخذته فقبلته وضمته اليها فاذا هي بنت شيخ من الانصار من اصحاب رسول الله فاخبرت عمر خبر المرأة فاشتمل عمر على سيفه ثم اقبل الى منزلها فوجد أباها متكئاً على باب داره : فقال يا أبا فلان مافعلت ابنتك فلانة : قال يا أمير المؤمنين جزاها الله خيراً هي من اعرف

(١) الوْد هو دفن البنات وهن أحياء وكانت عادة الوْد عند العرب في الجاهلية فلما جاء الاسلام ابطلها

الناس بحق الله تعالى وحق ابيها مع حسن صلاتها وصيامها والقيام بدينها فقال عمر قد احببت ان ادخل اليها فازيدها رغبة في الخير وأحثها على ذلك فقال جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين امكث مكانك حتى ارجع اليك. فاستأذن لعمر فلما دخل عمر امر كل من كان عندها فخرج عنها وبقيت هي وعمر في البيت ليس معها احد فكشف عمر عن السيف وقال لتصدقيني وكان عمر لايكذب: فقال على رسلك يا أمير المؤمنين فوالله لأصدقن: ان عجوزاً كانت تدخل عليّ فاتخذتها اماً وكانت تقوم في أمري بما تقوم به الوالدة وكنت لها بمنزلة البنت فامضيت بذلك حيناً ثم انها قالت لي يا بنية انه قد عرض لي سفر ولي بنت اتخوف عليها منه ان تضيع وقد أحببت ان اضمها اليك حتى ارجع من سفري. فعمدت الى ابن لها شاب امرد فهيأته كهيئة الجارية واتتني به لا أشك انه جارية فكان يرى مني ما ترى الجارية من الجارية حتى اغتفلني يوماً وانا نائمة فما شعرت حتى علاني وخالطني فمددت يدي الى شفرة كانت الى جنبي فقتلته ثم امرت به فالقي حيث رأيت فاشتملت منه على هذا الصبي فلما وضعته القيته في موضع ابيه فهذا والله خبرهما على ما أعلمتك: فقال عمر صدقتِ بارك الله فيك ثم اوصاها ووعظها ودعا لها وخرج وقال لأبيها بارك الله في ابنتك فنعم الابنة ابنتك وقد وعظتها وامرتها فقال الشيخ وصلك الله يا أمير المؤمنين وجزاك خيراً عن رعيتك

﴿ فنون شتى من اخباره ﴾

عن الحسن قال عاتب عيينة عثمان فقال له كان عمر خيراً لنا منك أعطانا فاغنانا وأخشانا فاتقانا

تظلم رجل من بعض عمال عمر وادعى انه ضربه وتعدى عليه: فقال اللهم اني لا أحل لهم اعشارهم ولا أبشارهم (أموالهم وأجسامهم) كلّ من ظلمه أميره فلا

امير عليه دوني ثم اقاده منه (أي اخذ له القود)

وقال المغيرة بن شعبة وذكر عمر فقال كان والله له فضل يمنعه أن يخدع وعقل يمنعه ان يخدع

في كنز العمال عن طاوس ان عمر قال أرأيتم ان استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل اقضيت ما علي قالوا نعم: قال لا حتى انظر في عمله أعمل بما امرته أم لا

وفيه عن عمر قال: الرعية مؤدية الى الامام ما ادى الامام الى الله فاذا رفع الامام رفعوا (أخرجه ابن سعد)

وفيه عنه انه قال لا ينبغي أن يلي هذا الامر الا رجل فيه اربع خلال اللين في غير ضعف والشدة في غير عنف والامساك في غير بخل والسماحة في سرف فان سقطت واحدة منهن فسدت الثلاث

وما أظن ان خليفة اتصف بهذا الصفات من غير تصنع ولا تكلف كعمر رضي الله عنه

وفيه عن قطن بن وهب عن عمه انه كان مع عمر بن الخطاب في سفر فلما كان قريباً من الروحاء سمع صوت راع في جبل فعدل اليه فلما دنا منه صاح ياراعي الغنم فاجابه الراعي: فقال له اني مررت بمكان هو أخصب من مكانك فان كل راع مسؤل عن رعيته ثم عدل صدور الركاب (أخرجه الامام مالك وابن سعد)

وتالله ان هذا الاهتمام بشؤون الناس حتى في ارشاد الرعاة الى اماكن الخصب لجدير بأن يقوم به كل خليفة من خلفاء المسلمين اقتداء بسلفهم الصالحين وهيهات هيهات فان الشهوات غلابة ومحبة الذات خلابة وليست كل النفوس خيرة كنفس عمر

وفيه عن سعيد بن المسيب ان عمر بن الخطاب قال في ولايته من ولي هذا

الامر بعدي فليعلم ان سير يده عنه البعيد والقريب وأيم الله ما كنت الا أقاتل الناس عن نفسي قتالا

واخرج ابن الجوزي في المناقب عن يحي بن جمدة قال : قال عمر لولا اني اسير في سبيل الله او أضع جبيني لله في التراب اوأجالس قوماً يلتقطون طيب القول كما يُلتقط طيب التمر لاحببت ان اكون قد لحقت بالله

وفيه عن ابن سعد قال: قال عمر والله ما أدري أخليفة انا أم ملك فان كنت ملكا فهذا امر عظيم : فقال قائل يا امير المؤمنين ان بينهما فرقاً قال ما هو : قال الخليفة لا يأخذ الا حقاً ولا يضعه الا في حق وأنت بحمد الله كذلك والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا فسكت عمر

وفيه عن الزهري قال كان جلساء عمر اهل القرآن كهولاً كانوا او شباناً

وفيه عن الاوزاعي قال : بلغني ان عمر (رض) سمع صوت بكاء في بيت ومعه غيره فمال عليهم ضرباً حتى بلغ النائحة فضربها حتى سقط خمارها وقال اضرب فانها نائحة لا حرمة لها انها لا تبكي لشجوكم انما تهريق دموعها على اخذ دراهمكم انها تؤذي امواتكم في قبورهم واحياءكم في دورهم . انها تنهي عن الصبر الذي امر الله به وتامر بالجزع الذي نهى الله عنه

وفيه عن عبد الله بن بريدة قال . ربما أخذ عمر بن الخطاب بيد الصبي فيجيء به ويقول ادع لي فانك لم تذنب بعدُ : وفيه عن محمد قال : كان عمر يشاور حتى المرأة

وفيه عن ابي امامة بن سهل قال : كتب عمر الى ابي عبيدة رضي الله عنهما علموا غلمانكم العوم ومقاتلتكم الرمي

ولا يخفى انه اراد بهذا التعليم التمرن على فنون الحرب من حال الصغر وانما كان تعلم الرمي من أهم لوازم الجند بالنسبة لذلك العصر

واما في هذا العصر فلوازم الحرب كثيرة ومنها تعلم فنون الكيمياء لاجل عمل المواد الالتهابية التي يحتاج اليها المحارب وتعلم الهندسة والميكانيات أي علم صناعة الآلات لاجل عمل المدافع والبنادق والقلاع والمتاريس ونحوها من لوازم القوّة والدفاع وفن الجغرافية لاجل معرفة اطوال البلاد وعروضها وسهولها ونجودها وطرقها وجبالها وأخلاق اهلها وقوتهم وثروتهم وغير ذلك مما يعين على معرفة البلاد وأهلها معرفة تامة قبل مهاجمتها واعلان الحرب على اهلها (ومن الغريب) ان يقوم منذ سنتين بعض علماء المسلمين في مصر معلنين على ملأ الناس ان ادخال اهون هذه العلوم في أصول التعليم في الازهر وهو فن تقويم البلدان غير جائز ولا مفيد وهم يقرؤن كل يوم مئات من مثل هذه الآثار والاخبار تدعو الى الحض على العناية بفنون الحرب وصرف الهمم الى مبارات الامم في مضمار الحياة والقوّة وكأنهم لا يقرؤن من ذلك شيئاً ولا يعلمون فانّا لله وانا اليه راجعون

وأخرج الطبريّ عن زيد بن اسلم قال قال عمر كنّا نعد المقرض بخيلا وانما هى المواساة

ومن مأثور كلامه قوله من كتم سره كان الخيار في يده : اشقى الولاة من شقيت به رعيته : اعقل الناس اعذرهم للناس : ما الخمر صرفاً باذهب لعقول الرجال من الطمع : لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً : مُرْ ذوي القرابات ان يتزاوروا ولا يتجاوروا : قلّما ادبر شيءٌ فأقبل : اشكو الى الله ضعف الامين وخيانة القويّ : من لا يعرف الشر كان أجدر ان يقع فيه (عن زهر الآداب وثمر الالباب)

ودخل عديّ بن حاتم على عمر فسلمّ وعمر مشغول فقال يا أمير المؤمنين أنا

عديّ بن حاتم فقال: ما اعرفني بك آمنت اذ كفروا ووفيت اذ غدروا وعرفت اذ انكروا واقبلت اذ ادبروا (عنه ايضاً)

ومن جميل قوله اياكم والمعاذير فان كثيراً منها كذب: وقوله تعلموا المهنة فانه يوشك احدكم ان يحتاج الى مهنته (المناقب)

عن قبيصة بن جابر قال: قال لي عمر بن الخطاب انك رجل حدث السن فصيح اللسان فسيح الصدر وانه يكون في الرجل عشرة اخلاق تسعة اخلاق حسنة وخلق سيئ فيغلب الخلق السيئ التسعة الاخلاق الحسنة فاتق عثرات الاشياء:

وفي المناقب عن عبيد بن ام كلاب انه سمع عمر يقول لا يعجبنكم من الرجل طنطنته[1] ولكن من ادّى الامانة وكفّ عن اعراض الناس فهو الرجل

وفيه عن اسماعيل بن أمية قال قال عمر الراحة في ترك خلطاء السوء: وما أعظمها من حكمة وأفيدها من موعظة لمن كان له قلب او ألقى السمع وهو شهيد

وعن مسروق قال تذاكرنا عند عمر بن الخطاب الحسب فقال: حسب المرء دينه واصله عقله ومروءته خلقه

ومن قوله في بيان فضيلة الكسب ماذكره في المناقب عن عطاء قال: قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لأن أموت بين شعبتي رَحلٍ (هو قتب الجمل) أسعى في الارض ابتغي من فضل الله كفاف وجهي أحبُّ اليّ من ان أموت غازياً

كلمة اجمالية في أخلاقه

هذا ما احببنا ايراده من مناقب عمر (رض) واخلاقه وسيرته ومنه تعلم كيف كان ذلك الرجل العظيم فيتمثل لك فيه صورة من النور وجسم من الفضيلة

(١) صوت صلاته في الليل

والكمال وعلم من اعلام الرجال الذين تفتخر بحياتهم الأمم ويقتدي بسيرتهم أرباب الهمم فالجد والصبر والثبات والجلد والقوة والعدل والتقوى والتواضع والرفق والحلم والبصيرة والرأي كلها أخلاق قلّ ان تجتمع في عدد عديد من الرجال وقد اجتمعت في عمر بن الخطاب كما رأيت فيما أوردناه من سيرته وكل أخلاقه هذه تكاد تكون فطرية لا يظهر عليها شيء من التصنع او التكلف ولو أردنا استقصاء كل أخباره وآثاره لأعجزنا هذا الامر كما أعجز كثيراً غيرنا من الفضلاء الذين حاولوا جمع أخباره وتتبع آثاره فلم يدركوا غايتها ولم يأتوا بمعشارها ومن احسن وصف موجز وصف به عمر ما روى ان معاوية بن ابي سفيان قال لصعصعة بن صوحان صف لي عمر بن الخطاب فقال

كان عالماً برعيته عادلاً في قضيته عاريا من الكبر قبولاً للعذر سهل الحجاب مصون الباب متحرياً للصواب رفيقاً بالضعيف غير محابٍ للقريب ولا جافٍ للغريب :

وكان من اخص صفاته الجد المصحوب بالحزم مع التأني في الامور والاستشارة في جليلها وحقيرها لهذا من تتبع سيرته لا يراه فشل في أمر من الامور بل كل تلك الاعمال التي عملها في خلافته وذلك الفتح العظيم الذي كان على عهده توفق اليه توفيقاً صاحبه من أول عهده بالخلافة الى حين وفاته وسبب هذا التوفيق هو الجد والحزم وعدم التردد في الامر وتمحيص الاشياء شأن كل رجل عظيم يريد مايقول وينال مايريد ولو بحثنا في تاريخ الامم القديمة والحديثة لوجدنا لكل امة رجلا أو رجالاً من رجال السياسة والحرب تفتخر بهم وتعلي ذكرهم ولكن ليس من هؤلاء الرجال من اجتمعت فيه كل تلك الخصال السامية والاخلاق الحميدة التي اجتمعت في عمر بن الخطاب . إذن فاذا افتخرت كل أمة

برجالها فنحن لا نبالغ اذا فاخرنا بهذا الرجل العظيم كل الامم واذا كان هناك مبالغة في القول أو غلو في الوصف ووقف غيرنا من سير رجال الامم المشهورين على من اتصف بكل صفات عمر فليبينه لنا وهو المتفضل وانا اضع له خدي في التراب اعترافا بالحق وإقراراً بفضل ذوي الفضل من رجال العالم

نعم ان من مشهوري الرجال رجالاً أسسوا ملكا عريضاً اوسع من ملك عمر وافتتحوا من الممالك مالم يفتتحه ونالوا من السيادة على الشعوب الكثيرة فوق ما نال ولكن هل منهم من كان كعمر جباراً غير ظالم كريماً غير مسرف عادلاً لا عن ضعف شجاعا غير متهور قنوعا غير شره زاهدا بغير تصنع حليما من غير جبن تقيا غير متنطع كلاّ ما نظن ان اوصافا كهذه تجمع في رجل واحد غيره قط لا سيما اذا نشأ في بيئة كبيئته وبين قوم كقومه حالهم من البداوة معروف والتاريخ حكم عدل وما بسطناه من سيرته في هذا الكتاب خير شاهد أمين وانا والله لتمنى لكثير ممن مضى من خلفائنا الذين نشأوا في مهاد الحضارة وحنكتهم تجارب الزمان وغذتهم لبان السياسة بعضاً من اخلاق عمر يحملون بها الامة على طريق الخير والسعادة ويربونها على الجد ويتنكبون بها طرق المهالك التي ساقتها اليها ايد الظلم والاستبداد والجهل باصول سياسة الرعية ولله في خلقه شؤون

﴿ أولياته ﴾

تقدم معنا كلام طويل على آثار عمر في الخلافة وفي تلك الآثار ماهو من ولياته ونحن ننقل هنا بوجه الاجمال اوليات عمر كما ذكرها السيوطي في تاريخه. فهو اول من كتب التاريخ من الهجرة وأول من اتخذ بيت المال وأول من سن قيام شهر رمضان وأول من عس بالليل وأول من عاقب على الهجاء وأول من ضرب في الخمر ثمانين وأول من حرم المتعة وأول من نهى عن بيع أمهات الاولاد

وأول من جمع الناس في صلاة الجنائز وأول من فتح الفتوح ومسح السواد وأول من حمل الطعام من مصر في بحر أيلة (البحر الاحمر) الى المدينة وأول من احتبس صدقة [1] في الاسلام وأول من أعال الفرائض [2] واول من أخذ زكاة الخيل واول من قال أطال الله بقاءك (قاله لعلي) واول من قال أيدك الله (وقال له ايضاً) واول من اتخذ الدرة واول من استقضى القضاة في الامصار واول من مصر الامصار واول من سمي امير المؤمنين وكان يكتب اولاً من خليفة ابي بكر اومن خليفة خليفة رسول الله حتى كتب مرةً الى عامل العراق ان يبعث اليه رجلين جلدين يسألهما عن العراق واهله فبعث اليه لَبيد بن ربيعة وعديّ بن حاتم فقدما المدينة ودخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاص فقالا استأذن لنا على أمير المؤمنين فقال عمر انتما والله اصبتما اسمه فدخل عليه عمرو فقال السلام عليك يا امير المؤمنين فقال ما بدالك في هذا الاسم لتخرجن مما قلت فأخبره وقال انت الامير ونحن المؤمنون فجرى الكتاب بذلك من يومئذ

وهو اول من اتخذ دار الدقيق يعين به المنقطع واول من وسع المسجد النبوي وفرشه بالحصباء

هذا ما نقله السيوطي من أوليات عمر عن النووي والعسكري وابن سعد ونزيد عليه انه اول من ضرب النقود في الاسلام واول من استعمل البريد لنقل الرسائل واول من اقام والياً للحسبة واول من شق الترع واقام الجسور واول من وضع المرابطة من الجند في الثغور وسمي الاجناد واول من امر بالعناية بالمناظير واول من عين شخصاً مخصوصاً لاقتصاص اخبار العمال وتحقيق

---

(١) أي وقف وقفاً (٢) أعال من العول المعروف في الفرائض وهي ان تزيد الفريضة في الحساب فتعدل القسمة على وجه معروف عند علماء الفرائض

الشكايات التي تصل الى الخليفة من عماله وهو محمد بن مسلمة وربما كان له أوليات أخرى غير هذه وقد تقدم الكلام على كل هذا مفصلاً فيما مر من هذا الكتاب

باب كتبه

١

﴿ كتب الى أبي عبيدة حين ولي الخلافة يوليه على جند الشام ﴾

أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه الذي هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات الى النور وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذي يحق عليك لا تقدم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده(١) لهم وتعلم كيف مأتاه ولا تبعث سرية الا في كثف من الناس واياك والقاء المسلمين في الهلكة وقد أبلاك الله بي وأبلاني بك فاغمض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها واياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم (هكذا وردت صورة هذا الكتاب في تاريخ الطبري) ورأينا صورة غيرها في حقائق الاخبار وهي بنصها

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقد وليتك أمور المؤمنين فلا تستحي فان الله لا يستحي من الحق واني أوصيك بتقوى الله العظيم الذي لا يفنى ويفنى سواه الذي استخرجك من الكفر الى الايمان ومن الضلالة الى الهدى وقد وليتك على جند خالد فاقبض الجيش منه ولا تنفذ المسلمين الى الهلاك رجاء غنيمة ولا تبعث سرية الى جمع كثير ولا تقل اني أرجو لكم النصر واياك والتغرير والقاء المسلمين الى الهلكة واغمض عن الدنيا عينك واله عنها قلبك واياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم وختبرت سرائرهم وبينك وبين الآخرة بيت كالحمام وقد تقدم اليه سلفك فتنتظر سيراً أو سفراً طويلاً من دار قد مضت نضارتها وذهبت منها زهارتها فأحرم الناس الخارج الى غيرها واتق الله في سرك ونجواك وتفكر في زاد التقوى وراع المسلمين ما استطعت وأما الحنطة والشعير التي وجدتموها في دمشق وكثرت مشاجرتكم عليها فهي للمسلمين وأما الذهب والفضة فيهما الخمس والسلام اه

(١) يختبره



وكتب الى أبي عبيدة يلومه على تركه حصار حلب

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبعد فقد ورد كتابك عليّ مع رسلك فسرني ما سمعت من الفتح وعلمت من قتل من الشهداء وأما ما ذكرت من انصرافك عن قاعة حلب الى النواحي التي قربت من انطاكية فهذا بئس الرأي أتترك رجلاً ما كت دياره ومدينته ثم ترحل عنه وتسمع أهل النواحي والبلاد بأنك ما قدرت عليه فما هذا رأي فيضعف رأيك ويعلو ذكره بما صنع ويطمع من لم يطمع فترجع اليك الجيوش وتكاتب ملوكها فاياك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين فبث الخيل في السهل والسعة واكففها في المضايق والجبال ومن المعدات الى حد الدروب ومن صالحك منهم فاقبل صلحه ومن سالمك فسالمه والله خليفتي عليك وعلى جميع المسلمين وقد انفذت اليك كتابي هذا ومعه أهل مشارف اليمن ممن وهب نفسه لله ولرسوله ورغب في الجهاد في سبيل الله وهم عرب وموال رجال وفرسان والمدد يأتيك متوالياً ان شاء الله تعالي اه

٣

وكتب أبو عبيدة كتاباً الى عمر يخبره فيه بانه لا يريد الاقامة بانطاكية لطيب هوائها وخوف اخلاد الجيوش الى الراحة فأجابه بما نصه

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واشكره ملياً (كثيراً) على ما وهب من النصر للمسلمين وجعل العاقبة للمتقين ولم يزل معيناً لطيفاً وأما قولك انك لم تقم بانطاكية لطيب هوائها فالله عز وجل لم يحرّم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات فقال تعالى في كتابه العزيز (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً اني بما تعملون عليم) وكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون [١] في مطعمهم ويريحون الابدان النصبة في قتال من كفر بالله وأما قولك انك تنظر أمري الذي آمرك به ان تدخل الدروب

(١) يتوسعون ويتنعمون

خاف العدو فأنت الشاهد وأنا الغائب والشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنت بحضرة عدوك وعيونك يأتونك بالاخبار فان رأيت الدخول الى الدروب صواباً فابعث اليهم السرايا وادخل معهم بلادهم وضيق عليهم مسالكهم وان طلبوا منك الصلح فصالحهم وأما قولك ان العرب أبصرت نساء الروم فارادوا التزويج فمن أراد ذلك فدعه ان لم يكن له في الحجاز أهل ومن أراد أن يشتري الاماء فدعه وذلك أصون لفروجهم والسلام عليك وعلى جميع من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته

(نقله والذي قبله في حقائق الاخبار عن منشآت السلاطين لفريدون بك)

٤

وكتب اليه كتاباً فقرأه على الناس بالجابية ونصه

من عبد الله عمر امير المؤمنين الى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك أما بعد فانه لم يقم أمر الله في الناس الا حصيف العقدة [١] بعيد الغرة [٢] لا يطلع الناس منه على عورة ولا يحنق في الحق على جرته [٣] ولا يخاف في الله لومة لائم (كنز العمال)

٥

وكتب الى ابنه ينصحه

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد فان من اتقى الله وقاه ومن توكل عليه كفاه ومن شكر له زاده ومن قرضه جزاه فاجعل التقوى عماد قلبك وجلاء بصرك فانه لاعمل لمن لا نية له ولا أجر لمن لاحسبة له ولا جديد لمن لا خلق له (العقد الفريد)

٦

وكتب الى أبي موسى الاشعري يوصيه

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد فان للناس نفرةً عند سلطانهم فاعوذ بالله ان تدركني واياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة واهواء متبعة ودنيا مؤثرة فاقم الحدود ولو ساعة من نهار واذا عرض لك أمران أحدهما لله والآخر للدنيا فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا فان الدنيا تنفد والآخرة تبقى وكن من خشية الله على وجل

(١) قوله حصيف العقدة اي محكمها والعقدة بالضم الولاية على البلد او هي من عقد الحبل ربطه وهي كناية عن احكام الامر بالمعنى الثاني واحكام الولاية بالمعنى الاول (٢) الغرة هي الغفلة (٣) قال في لسان العرب لا يصلح هذا الامر الا لمن لا يحنق على جرته اي لا يحقد على رعيته وفلان لا يحنق على جرته اي لا يكتم سراً

واخف الفساقَ واجعلهم يداً يداً ورجلا رجلا واذا كانت بين القبائل نائرة [1] وتداعوا بآل فلان فانما تلك نجوى الشيطان فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا الى أمر الله وتكون دعواهم الى الله والى الامام وقد بلغ امير المؤمنين ان ضبة تدعو بآل ضبة واني والله ما اعلم ان ضبة ساق الله بها خيراً قط ولا منع بها من سوء قط فاذا جاءك كتابي هذا فأنهكم عقوبة حتى يفرقوا [2] ان لم يفقهوا والصق بغيلان بن خرشة من بينهم وعد مرضي المسلمين وأشهد جنائزهم وافتح بابك وباشر أمرهم بنفسك فانما انت امرؤ منهم غير ان الله جعلك اثقلهم حملا وقد بلغ امير المؤمنين انه فشا لك ولاهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها فاياك يا عبد الله ان تكون بمنزلة البهيمة التي مرت بواد خصب فلم يكن لها همة الا السمن وانما حتفها في السمن واعلم ان للعامل مردّاً الى الله فاذا زاغ العامل زاغت رعيته وان أشقى الناس من شقيت به رعيته والسلام (مفتاح الافكار)

٧

وكتب الى معاوية وقيل الى أبي عبيدة

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فاني لم آلك في كتابي اليك ونفسي خيراً . اياك والاحتجاب واذن للضعيف وأدنه حتى تبسط لسانه وتجرئ قلبه وتعهد الغريب فانه اذا طال حبسه وضاق اذنه ترك حقه وضعف قلبه وانما ترك حقه من حبسه واحرص على الصلح بين الناس مالم يستبن لك القضاء واذا حضرك الخصمان بالبينة العادلة والايمان القاطعة فامض الحكم (مفتاح الافكار)



(كتابه لاهل ايلياء « القدس »)

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الامان اعطاهم اماناً لانفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من حيزها ولا من صلبهم ولا من شيء من اموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود وعلى اهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن

(١) قوله نائرة أي عداوة وقوله يفيئوا أي يرجعوا (٢) وقوله حتى يفرقوا أي يخافوا ويفزعوا واذا كانت بتشديد الراء فمعناها يتفرقوا

وعليهم ان يخرجوا منها الروم واللصوت [١] فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الارض قبل مقتل فلان [٢] فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على اهل ايلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا اعطوا الذي عليهم من الجزية شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ (تاريخ الطبري)

٩

(كتابه الى أهل لد)

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين أعطاهم أماناً لانفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص من حيزها ولا ملها ولا من صلبهم ولا من اموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم وعلى أهل لد ومن دخل معهم من اهل فلسطين ان يعطوا الجزية كما يعطى أهل مدائن الشام وعليهم ان خرجوا مثل ذلك الشرط الى آخره (عن الطبري)

١٠

(كتب الى سعد فى اليوم الذي يرتحل فيه من شراف)

أما بعد فاذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القوارس وشرق بالناس وغرب بهم (عن الطبري)

١١

(وكتب اليه أيضاً جواباً عن كتابه)

أما بعد فتعاهد قلبك وحادث جندك بالموعظة والنية والحسبة ومن غفل فليحدثهما [٣] والصبر الصبر فان المعونة تأتي من الله على قدر النية والاجر على قدر الحسبة • والحذر الحذر على من انت عليه وما انت بسبيله واسألوا الله العافية واكثروا من قول لا حول ولا قوة الا بالله • واكتب اليّ اين بلغك جمعهم ومن

(١) وفي رواية واللصوص وهو الظاهر (٢) هكذا في الاصل (٣) هكذا في الاصل والاحداث الابداء فليحرر

رأسهم الذي يلي مصادمتكم فانه قد منعني من بعض ما أردت الكتابة به اليك قلة علمي بما هجمتم عليه والذي استقر عليه امر عدوكم فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني انظر اليها واجعلني من امركم على الجلية وخف الله وارجه ولا تدل بشيء واعلم ان الله قد وعدكم . وتوكل لهذا الامر بما لاخلف له فاحذر ان تصرفه عنك ويستبدل بكم غيركم

١٢

(وكتب الى سعد وهو بشراف يريد العراق وحرب الفرس ما نصه)

اما بعد فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على امرك كله واعلم فيما لديك انك تقدم على امة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وان كان سهلا كؤوده لبحوره وفيوضه ودآدئه[1] الا أن توافقوا غيضاً من فيض واذا لقيتم القوم أو واحداً منهم فابدؤهم الشر والضرب واياكم والمناظرة لجموعهم ولا يخدعنكم فانهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم الا ان تجادوهم واذا انتهيت الى القادسية والقادسية في باب فارس في الجاهلية وهي اجمع تلك الابواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الاصل وهو منزل رغيب خصيب رحيب دونه قناطر وانهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما ثم ألزم مكانك فلا تبرحه فانهم اذا احسوك انغضتهم رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فان انتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الامانة رجوت ان تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مناهم ابداً الا ان يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وان تكن الاخرى كان الحجر في أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجرأ وبها اعلم وكانوا عنها اجبن وبها اجهل حتى يأتي الله بالفتح ويرد لكم الكرة عليهم

(هذا الكتاب وما قبله عن الطبري)

---

(١) كؤوده أي صعبه وفيوضه أي مياهه الفائضة والدآدا جمع دأداء وهو الفضاء الواسع وتوافقوا أي تلاقوا : غيضا من فيض أي قليلا من كثير : النقب الطريق يكون في الجبل والنقب وجمعها انقاب ولعل مراده بالانقاب هنا أنقاب القناطر التي على الانهار: والحجر والمدر كناية عن البادية والعمران أو المدن والفضاء لان المدر هي المدن والحجر هي نقا الرمل وقوله انغضتهم أي حركتهم

١٣

(وكتب الى سعد)

قد جاءني كتابك وفهمته فأقم مكانك حتى ينغض الله عدوك واعلم ان لها مابعدها فان منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فانه خرابها ان شاء الله (الطبري)

١٤

(وكتب اليه أبو عبيدة ومعاذ بن جبل ينصحانه)

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل الى عمر ابن الخطاب سلام عليك فانا نحمد اليك الله الذي لااله الا هو (أما بعد) فانا عهدناك وامر نفسك لك مهم فأصبحت وقد وليت أمر هـذه الامة أحمرها واسودها يجلس بين يديك الصديق والعدو والشريف والوضيع ولكل حصة من العدل فانظر كيف انت ياعمر عند ذلك وانا نحذرك يوماً تعنو فيه الوجوه وتجب [1] له القلوب وتنقطع فيه الحجج بحجة ملك قهرهم بجبروته والخلق داخرون [2] له يرجون رحمته ويخافون عقابه وانا كنا نتحدث ان أمر هذه الامة يرجع في آخر زمانها ان يكون اخوان العلانية اعداء السريرة وانا نعوذ بالله ان تنزل كتابنا سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا فانا انما كتبنا اليك نصيحة لك والسلام

(فكتب اليهما)

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة عامر بن الجراح ومعاذ بن جبل سلام عليكما فاني أحمد اليكما الله الذي لا اله الا هو (أما بعد) فقد جاءني كتابكما تزعمان انه بلغكما اني وليت امر هذه الامة احمرها واسودها يجلس بين يدي الصديق والعدو والشريف والوضيع وكتبتما ان انظر كيف انت ياعمر عند ذلك وانه لاحول ولا قوة لعمر عند ذلك الا بالله كتبتما تحذر اني ماحذرت به الامم قبلنا وقديماً كان اختلاف الليل والنهار بآجال الناس يقربان كل بعيد ويبليان كل جديد ويأتيان بكل موعود حتى يصير الناس الى منازلهم من الجنة والنار ثم توفي كل نفس بما كسبت ان الله سريع الحساب: كتبتما تزعمان ان امر هذه الامة يرجع في آخر زمانها ان يكون اخوان العلانية اعداء السريرة ولستم بذاك وليس هذا ذلك الزمان ولكن زمان

---

(١) تخاف (٢) اي اذلاء صاغرون

ذلك حين تظهر الرغبة والرهبة فتكون رغبة بعض الناس الى بعض اصلاح دينهم ورهبة بعض الناس اصلاح دنياهم . وكتبتما تعوذ اني بالله ان أنزل كتابكما مني سوى المنزل الذي نزل في قلوبكما وانما كتبتما نصيحة لي وقد صدقتما فتعهداني منكما بكتاب فلاغنى بى عنكما والسلام عليكما (مفتاح الافكار)

وله كتب غير هذه تقدم ايرادها في غضون أخباره وكتب أخرى كتبها الى عمرو ابن العاص وهو في مصر رأينا من تمام الفائده ان نرجئ ذكرها الى سيرة عمرو ابن العاص لان ايرادها في سيرته انسب لاشتمالها على تبادل المكاتبة بين الاثنين في شؤون خاصة سترى في محلها ان شاء الله

(كلام على وجوب التناصح في الاسلام)

وانت ترى من هذين الكتابين كيف كان المسلمون يتناصحون بالمعروف عملا بأمر كتابهم وهدى نبيهم ولا يمتنعون عن أداء النصيحة للامام لكونه اماماً له عليهم السلطان بل يرون ان النصيحة به احرى وله اولى وان له عليهم حق الطاعة كما لهم عليه حق النصيحة والارشاد الى مواقع الخطأ والتعهد بما يقيم الاود ويصلح العمل شأن الامم التي تعاون رؤساءها على البر وتعتمد في رفع شأنها على قوة التكافل في الحق والتعاون على شؤون الملك وقد انتهت بهم حرية الفكر والانطلاق عن قيود العبودية والقيام على حسن المناصحة ان لا يغفلوا ساعه عن نصيحة الامام وهو من هو : فذ الامة الاسلامية وفخر الاسلام والمثل المضروب في التقوى والعدل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم أجمعين وقد بلغ بهم الاغراق في حرية الضمائر وعدم الامساك عن الحق ان قال أحدهم لمثل ذلك الخليفة العظيم لما سأله عما اذا ترخص بأمر من أمور المسلمين (لو فعلت لقومناك تقويم القدح) أي تقويم السهم المعوج كما رأيت ذلك فيما بسطناه في باب سياسته فما ازداد ذلك الخليفة العظيم الا سروراً بقول ذلك المسلم واستبشاراً في أن المسلمين قائمون على شؤونهم رجال في أخلاقهم متمسكون بشرع نبيهم متنبهون لكل خطأ يصدر عن خليفتهم وكان ذلك دأبه مع الناس في استطلاع طلع ضمائرهم من جهته ليعلم مبلغ الحياة فيهم ويسترشد الى عيوبه بجميل نصحهم وصادق قولهم ولم يكن يخطر له على بال او يمر له في خيال ان استرشاده بآراء ذوي الرأي والبصيرة من المسلمين وانتصاحه بنصائحهم فيه حطة في شأنه أو مس لسلطانه لهذا كتب لابي عبيدة ومعاذ لما نصحاه في آخر كتابه (قد صدقتما فتعهداني منكما بكتاب فلا غنى بي عنكما) وقد رأيت فيما مر زجره لمن اعترض على قائل قال له اتق الله يا عمر وقوله

للمعترض دعه فلا خير فيكم اذا لم تقولوها ولا خير فينا اذا لم نسمعها اذا تقرر هذا علمنا ان التناصح بين المسلمين واجب لا يستثنى منه أمير ولا صغير بل الأمير اولى بان ينصح ويستنصح بسبب ما اوسد اليه من أمور الملك التي ليس من طوق الآحاد القيام بها الا اذا سلكوا سبيل الأثرة واطاعوا هوى النفوس فكان الانفراد بالسلطان والتسلط على الرعية والتطوح بمصالح الملك والدولة في مهاوي الهوى أحب اليهم من الانتصاح بنصيحة الاعوان والأخذ على شكائم النفوس الأمارة بالسوء التي يقودها الهوى الى تصور ان الامارة مرتبة لا ينبغي لها ان تكون الا في مصاف الملائكة المقربين او الانبياء المعصومين وحبذا لو تحقق هذا التصور لانسان من أولئك الامراء اذن والله لحكموا الناس بحكم الانبياء وهو هو التناصح الذي يهربون منه التعاون الذي يترفعون عنه وحسب هذا الترفع آفة انه اودى بدولة بني مروان في ابان شبابها كما اودي بكثير من اضرابها

المناصحة بالمعروف أس من أسس السعادة القومية في كل قبيل وعصر بل هي مدرسة الامة التي يتربى فيها الاخلاق وتنمو الفضيلة وتتطهر الاعراق وتنبت روح الألفة والتعاون وليس لمدرسة مثلها اثر في الاخلاق ومؤثر في نفوس الامة قط اذ تتناول بالتعليم الكبير والصغير عفواً بلا أجر وتسري روحها بين كل الطبقات مختارة بلا اكراه فيربي الكبير الصغير ويرشد المهتدي الضال وينصح الصغير الامير وكلهم يتبادل العوض مع الآخر بما ينفعه في اخلاقه ويقوم اوده فينتفع الكل بالكل وتعم السعادة والرخاء سائر الناس

أجل هذه هي المدرسة التي ربت مثل معاذ وابى عبيدة وعمر واضرابهم من عامة المسلمين وحصتهم فسادوا بالمناصحة والاخلاص على كل الامم وأدهشت سيرتهم عقول الشعوب وامتد ظل سلطانهم على نصف الكرة ونالهم من السعادة والعز والمجد فوق ما رأيت في هذا الكتاب

وهي هي المدرسة التي علمت الشعوب الأوربية حرية الضمائر والافكار ورفعتهم من حضيض الجهالة وسلكت بهم سبيل المجد وسودتهم لهذا العهد على الامم فملكوا ثلاثة ارباع المعمور وقضوا على استقلال الدول الشرقية فمحوا بعضه محواً وجعلوا بعضه صورة في الخيال قد باتت على وشك الزوال كما زالت دول الهند العظيمة وافريقيا الكبيرة والجاوى والقريم وبخارى وسمرقند وما لا يعد من الشعوب والدول الاسلامية

ليس بعجيب ان يصير المسلمون في أسر الدول المتغلبة ويتقلص ظل مجدهم عن الارض بعد اذ كان شأنهم في المناصحة والقيام على الحق ماذكر ثم بلغ ترك المناصحة وانحطاط النفوس والاخلاق بفريق كبير منهم ان صاروا يعدون الناصح بالمعروف خارجاً عن دينه خارجاً على سلطانه والدين يقول (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم) (واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) والنبي صلى الله عليه وسلم يقول (مَن لم يحمد عدلاً ولا يذم جوراً فقد بارز الله تعالى بالمحاربة) (١)

ومن البديهي ان مدح العدل وذم الجور انما يكون بان يقول المسلم للعادل المحسن عدلت وأحسنت وللجائر على نفسه او على غيره جرت وأسأت فاستقم كما أمرت وهو من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي وردت آياته الباهرة في الكتاب الكريم

ومن الاغراق في الجهالة والتناهي في الانحطاط ان يرى المسلمون بلادهم تخرب واستقلالهم ينتزع وملكهم يزول ودولتهم تدول والاوربيون قد غلبوهم على امرهم وزاحموهم فى ملكهم وتحكموا فيهم وفي دولهم وسبقوهم في العلم والمعارف والاختراع واجلبوا عليهم بالخيل والرجل وسدوا دونهم منافذ الصناعة والتجارة واذا دعاهم ناصح من اخوانهم غيور من بني دينهم الى النظر في اسباب انحطاطهم وارتقاء غيرهم وتقهقرهم وتقدم سواهم وأبان لهم طرفاً من تلك الاسباب وحكمهم في التفريق بين خطئها والصواب اعرضوا عنه اعراض المريض عن الماء الزلال بل ربما رماه بعضهم بانواع الزور وتقرب بمـاله واهله ودمه الى ولاة الامور رجاء نيل الحظوة عندهم والتزلف اليهم واكتساب رضاهم وان اغضب الله والمروءة والوجدان وخرج عن الانسانية والدين اذ لاوازع من النفس ينهاه ولافضيلة تلوي عنان شهوته عن ظلم اخيه والشواهد على هذا كثيرة في الاشخاص والاعمال سنأتي على بيانها في محالها ان شاء الله لتكون عبرة يتعظ بها الآتي والحاضر وصورة في التاريخ ترهب قلوب الاشرار وتزعج عن مواطئ الرذيلة اقدام الفجار

باب

خطبه

اوردنا عند ذكر استخلافه اول خطبة خطبها ورأينا في رواية أخرى رواها ابن الجوزي في المناقب عن جامع بن شداد عن ابيه ورواها غيره من المحدثين من طرق

(١) اخرج هذا الحديث في اسد الغابة في ترجمة المغيرة بن نوفل

اخرى ان اول خطبة خطبها عمر (رض) ان صعد المنبر وحمدالله واثنى عليه وقال (اللهم اني شديد فليني واني ضعيف فقوني واني بخيل فسخني) وقد رأينا هذ الخطبة في العقد الفريد بعبارة اطول الا انها لا تخرج عن هذا المعنى

٢

وفي تاريخ الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال لما ولي عمر بن الخطاب خطب الناس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله واثنى عليه ثم قال

أيها الناس انى قد علمت انكم كنتم تؤنسون مني شدة وغلظة وذلك اني كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه وجلوازه (شرطيه) وكان كما قال الله تعالى بالمؤمنين رؤفاً رحيما وكنت بين يديه كالسيف المسلول الا ان يغمدني او ينهانى عن امر فأكف عنه والا أقدمت على الناس لمكان امره فلم ازل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راض والحمد لله على ذلك كثيراً وانا به اسعد ثم قمت ذلك المقام مع ابى بكر الصديق خليفة رسول الله بعد رسول الله وكان من قد علمتم في رغبه ولينه فكنت خادمه وجلوازه وكنت كالسيف المسلول بين يديه على الناس اخالط شدتي بلينه الا ان يتقدم الي فأكف والا اقدمت فلم ازل حتى توفاه الله فكان عني راضياً والحمد لله على ذلك كثيراً وانا به اسعد . ثم صار امركم اليوم الي وانا اعلم انه يقول قائل كان يشتد علينا والامر الى غيره فكيف به لما صار الامر اليه فاعلموا انكم لا تسألون عني احداً قد عرفتموني وخبرتموني وقد عرفت بحمد الله من محمد نبيكم صلى الله عليه وسلم ما قد عرفت وما اصبحت نادماً على شيء كنت احب ان اسأله الا وقد سألته واعلموا ان شدتي التي كنتم ترونها ازدادت أضعافاً عن الاول على الظالم والمتعدي والاخذ للمسلمين لضعيفهم من قويهم وانى بعد شدتي تلك واضع خدي الى الارض لاهل العفاف واهل الكفاف ان كان بيني وبين من هو منكم شيء من احكامكم أن أمشي معه الى من احبه منكم فينصر فيما بيني وبينه : فاتقوا الله عباد الله وأعينونى على نفسي بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر واحضاري النصيحة فيما ولانى الله من امركم (١)

---

(١) تصرفت تصرفاً طفيفاً ببعض الالفاظ الواردة بهذه الخطبة لان الناسخ الذي نسخ لي سيرة عمر من تاريخ ابن عساكر من مكتبة دمشق لم يتمكن من ضبط الالفاظ المشوشة والمتشابهة لسقامة خط التاريخ

٣

وفي تاريخ الحافظ ابن عساكر أيضاً عن الشعبي قال : لما ولي عمر بن الخطاب صعد المنبر فقال

ما كان الله ليراني ان أرى نفسي اهلاً لمجلس ابي بكر فنزل مرقاة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : اقرأوا القرآن تعرفوا به واعملوا به تكونوا من أهله وزنوا أنفسكم قبل ان توزنوا وتزينوا للعرض الاكبر يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية . انه لم يبلغ حق ذي حق أن يطاع في معصية الله [1] ألا واني انزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولي اليتيم ان استغنيت عففت وان افتقرت أكلت بالمعروف

٤

وفي الخراج لابي يوسف خطبة بهذا المعنى الا انها اطول وأجمع رواها عن طلحة بن معدان قال

خطبنا عمر بن الخطاب خطبة فحمد الله واثنى عليه ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم وذكر ابا بكر فاستغفر له ثم قال : ايها الناس انه لم يبلغ ذو حق في حقه ان يطاع في معصية الله واني لا اجد هذا المال يصلحه الا خلال ثلاث ان يؤخذ بالحق ويعطى في الحق ويمنع من الباطل وانما انا وما لكم كولي اليتيم ان استغنيت استعففت وان افتقرت اكلت بالمعروف ولست ادع أحداً يظلم احداً ولا يعتدي عليه حتى أضع خده على الارض واضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق ولكم عليّ أيها الناس خصال اذكرها لكم فخذوني بها : لكم عليّ أن لا اجبي شيئاً من خراجكم ولا مما افاء الله عليكم الا من وجهه ولكم عليّ اذا وقع في يدي ان لا يخرج مني الا في حقه : ولكم علي أن لا ازيد اعطياتكم وارزاقكم ان شاء الله وأسد ثغوركم: ولكم عليّ ان لا ألقيكم في المهالك ولا اجمركم (أحبسكم) في ثغوركم . وقد اقترب منكم زمان قليل الامناء كثير القراء قليل الفقهاء كثير الامراء يعمل فيه اقوام للآخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب ألا من أدرك ذلك

---

(١) يعني بذي الحق نفسه وهو الحق الذي يعين به حد السلطة العليا بما لا يتعدى ما امر الله من العدل الى ما تأمر به النفس وتطلبه السيادة وهو من قبيل قول ابي بكر « رض » في احدى خطبه اطيعوني ما اطعت الله فيكم فرضي الله عن تلك النفوس السامية ما كان اعرفها للحق والعدل والزمها لشرعة الانصاف مع الرعية

منكم فليتق الله ربه وليصبر : يا ايها الناس ان الله عظم حقه فوق حق خلقه فقال فيما عظم من حقه « ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين ارباباً أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون » ألا واني لم ابعثكم أمراء ولا جبارين ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدي بكم فأدروا على المسلمين حقوقهم ولا تضربوهم فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تغلقوا الابواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم ولا تستأثروا عليهم وقاتلوا بهم الكفار طاقتهم فاذا رأيتم بهم كلالة فكفوا عن ذلك فان ذلك ابلغ في جهاد عدوكم: أيها الناس اني اشهدكم على أمراء الامصار اني لم ابعثهم الا ليفقهوا الناس في دينهم ويقسموا عليهم فيأهم ويحكموا بينهم فان اشكل عليهم شيء رفعوه اليّ اه

هذه الخطبة من اجمع خطبه لانها تمثل عدله وسياسته وعقيدته وتحدد وظيفته وتبين مقاصده وتنبئ عن اخلاصه في خدمة المسلمين وشدته على الظالمين ورأفته بالمظلومين الى غيرذلك مما يدركه القارئ من معاني هذه الخطبة الغراء فرضي الله عنه



﴿وخطب خطبة فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه﴾

يا أيها الناس اني قد وليت عليكم ولولا رجاء أن اكون خيركم لكم وافواكم عليكم وأشدكم استضلاعاً بما ينوب عن مهم اموركم ما توليت ذلك منكم ولكفى عمر مهماً محزناً موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها ووضعها أين اضعها وبالسير فيكم كيف اسير فربي المستعان فان عمر اصبح لا يثق بقوة ولا حيلة ان لم يتداركه الله عزّ وجل برحمته وعونه وتأييده (تاريخ الطبري)

٦

﴿وخطب فقال﴾

ان الله عز وجل قد ولاني امركم وقد علمت انفع ما بحضرتكم لكم واني أسئل الله ان يعينني عليه وأن يحرسني عنده كما حرسني عند غيره وان يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمر به ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من خلقي شيئاً ان شاء الله انما العظمة لله عز وجل وليس للعباد منها شيء فلا يقولن احد منكم أن عمر تغير منذ ولي: اعقل الحق من نفسي وأتقدم وأبين لكم امري فأيما

رجل كانت له حاجة او ظلم مظلمة او عتب علينا في خلق فليؤذني[1] فانما أنا رجل منكم فعليكم بتقوى الله في سركم وعلانيتكم وحرماتكم واعراضكم واعطوا الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا الي فانه ليس بيني وبين احد من الناس هوادة[2] وأنا حبيب الي صلاحكم عزيز علي عتبكم وأنتم أناس عامتكم حضر في بلاد الله وأهل بلدٍ لا زرع فيه ولا ضرعَ الا ما جاء الله به اليه وان الله عزّ وجل قد وعدكم كرامة كثيرة وأنا مسؤل عن أمانتي وما أنا فيه ومطلع على ما بحضرتي بنفسي ان شاء الله لا أكله الى احد ولا أستطيع ما بعد منه الاّ بالامناء واهل النصح منكم للعامة ولست أجعل امانتي الى احد سواهم ان شاء الله (تاريخ الطبري)

٧

﴿ وخطب أيضاً ﴾

فقال بعد ما حمد الله واثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم أيها الناس ان بعض الطمع فقر وان بعض اليأس غِنى وانكم تجمعون ما لا تأكلون وتأملون ما لا تدركون وانتم مؤجلون في دار غرور كنتم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤخذون بالوحي فمن اسرّ شيئاً أُخذ بسريرته ومن أعلن شيئاً أُخذ بعلانيته فأظهروا لنا احسن اخلاقكم والله أعلم بالسرائر فانه من اظهر لنا شيئاً وزعم ان سريرته حسنة لم نصدقه ومن اظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسناً واعلموا ان بعض الشح شعبة من النفاق (فأنفقوا خيراً لانفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) أيها الناس أطيبوا مثواكم واصلحوا اموركم واتقوا الله ربكم ولا تلبسوا نساءكم القباطيّ[3] فانه ان لم يشف فانه يصف[4] أيها الناس اني لوددت ان انجو كفافاً لا لي ولا علي واني لارجو ان عمرت فيكم يسيراً او كثيراً ان اعمل بالحق فيكم ان شاء الله وان لا يبقى احد من المسلمين وان كان في بيته الا أتاه حقه ونصيبه من مال الله ولا يعمل اليه نفسه ولم ينصب[4] اليه يوماً واصلحوا اموالكم التي رزقكم الله ولقليل في رفق خير من كثير في عنف والقتل حتف من الحتوف يصيب البر والفاجر والشهيد من احتسب نفسه واذا

---

(١) اي فليعلمني وهي من آذنه بالامر اي اعلمه به (٢) الهوادة بالفتح الصلح والاختصاص بالميل (٣) القباطي أثواب مشهورة وشف رق فحكى ما تحته ويصف لعله من الوصف او من التواصف وهو أن يصفوا الشيء بعضهم لبعض (٤) ولا يعمل اليه نفسه اي لا يجهد نفسه اليه اي يأتيه بلا طلب . ولم ينصب اي لم يتعب

واذا اراد احدكم بعيراً فليعمد الى الطويل العظيم فليضربه بعصاه فان وجده حديد الفؤاد فليشتره (تاريخ الطبري)

٨

﴿ وخطب أيضاً ﴾

فقال ان الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا عن غير مسئلة منكم له ولا رغبة منكم فيه اليه فخلقكم تبارك وتعالى ولم تكونوا شيئاً لنفسه وعبادته وكان قادراً ان يجعلكم لاهون خلقه عليه فجعل لكم عامة خلقه ولم يجعلكم لشيء غيره وسخر لكم ما في السموات وما في الارض وأسبغ [١] عليكم نعمه ظاهرة وباطنة وحملكم في البر والبحر ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ثم جعل لكم سمعاً وبصراً ومن نعم الله عليكم نعم عم بها بني آدم ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم وليس من تلك النعم نعمة وصلت الى امرىءٍ خاصة الا لو قسم ما وصل اليه منها بين الناس كلهم اتعبهم شكرها وفدحهم [٢] حقها الا بعون الله مع الايمان بالله ورسوله فانتم مستخلفون في الارض قاهرون لاهلها قد نصر الله دينكم فلم تصبح أمة مخالفة لدينكم الا أمتان أمة مستعبدة للاسلام واهله يجزون لكم يستصفون معائشهم وكدائحهم ورشح جباههم [٣] عليهم المؤونة ولكم المنفعة وأمة تنتظر وقائع الله وسطواته في كل يوم وليلة قد ملا الله قلوبهم رعباً فليس لهم معقل [٤] يلجئون اليه ولا مهرب يتقون به قد دهمتهم جنود الله عز وجل ونزلت بساحتهم مع رفاغة العيش [٥] واستفاضة المال وتتابع البعوث وسد الثغور باذن الله مع العافية الجليلة العامة التي لم تكن هذه الامة على أحسن منها مذ كان الاسلام والله المحمود مع الفتوح العظام فى كل بلد فما عسى ان يبلغ مع هذا شكر الشاكرين وذكر الذاكرين واجتهاد المجتهدين مع هذه النعم التي لا يحصى عددها ولا يقدر قدرها ولا يستطاع أداء حقها الا بعون الله ورحمته ولطفه فنسأل الله الذي لا اله الا هو الذي أبلانا هذا ان يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة الى

---

(١) أفاض (٢) أثقلهم (٣) قوله يجزون أي يعطون الجزية : وكدائحهم أي سعيهم أو مكاسبهم : ورشح الجباه عرقها (٤) حصن وملجأ (٥) رفاغة العيش سعته وخصبه

مرضاته واذكروا عباد الله بلاء الله عندكم واستتموا نعمة الله عليكم وفي مجالسكم مثنى وفرادى فان الله عز وجل قال لموسى (أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله) وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم (واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الارض) فلو كنتم اذ كنتم مستضعفين محرومين خير الدنيا على شعبة من الحق تؤمنون بها وتستريحون اليها مع المعرفة بالله ودينه وترجون بها الخير فيما بعد الموت لكان ذلك ولكنكم كنتم أشد الناس معيشة وأثبته بالله جهالة فلو كان هذا الذي استشلاكم[1] به لم يكن معه حظ في دنياكم غير انه ثقة لكم في آخرتكم التي اليها المعاد والمنقلب وأنتم من جهد المعيشة على ما كنتم عليه احرياء ان تشحوا على نصيبكم منه وان تظهروه على غيره قبله أما انه قد جمع لكم فضيلة الدنيا وكرامة الآخرة ومن شاء ان يجمع له ذلك منكم فاذكركم الله الحائل بين قلوبكم الا ما عرفتم حق الله فعملتم له وقسرتم انفسكم على طاعته وجمعتم مع السرور بالنعم خوفاً لها ولانتقالها ووجلا منها ومن تحويلها فانه لا شيء اسلب للنعمة من كفرانها وان الشكر أمن للغير ونماء للنعمة واستجلاب للزيادة: هذا لله علي من امركم ونهيكم واجب (تاريخ الطبري)

٩

﴿ وخطب لما شيع جيش سعد بن ابي وقاص ﴾

ان الله تعالى ضرب لكم الامثال وصرف لكم القول ليحيي به القلوب فان القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله. من علم شيئاً فلينتفع به. وان للعدل أمارات وتباشير فأما الامارات فالحياء والسخاء والهين واللين وأما التباشير فالرحمة وقد جعل الله لكل أمر باباً ويسر لكل باب مفتاحاً فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد. والاعتبار ذكر الموت بتذكر الاموات والاستعداد له بتقديم الاعمال. والزهد اخذ الحق من كل احد قبله حق (اي عنده) وتأدية الحق الى كل احد له حق. ولا تصانع في ذلك احداً واكتف بما يكفيه من الكفاف فان من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء. اني بينكم وبين الله وليس بيني وبينه احد وان الله قد ألزمني رفع الدعاء عنه فأنهوا شكاتكم الينا فمن لم يستطع فالى من يبلغناها نأخذ له الحق غير متعتع[2] (تاريخ الطبري)

---

(١) استشلاه دعاه ليحيه من ضيق او هلاك (٢) في القاموس تعتعه اي تلتله وحركه بعنف او اكرهه في الامر

١٠

وسمع مرة ان نفراً يقولون لو مات عمر لبايعنا فلاناً اعتماداً منهم على ان بيعة أبي بكر تمت بمبايعة نفر من المهاجرين والانصار فأراد عمر رضى الله عنه أن يبين لهم ان بيعة ابي بكركانت فلتة وان اهابته واستعداده وحرج الموقف الذي وقف به المسلمون يومئذ سوغ تلك البيعة فخطب فيهم هذه الخطبة التي رواها الشيخان فقال .

قد بلغني ان فلاناً منكم يقول لو مات عمر بايعت فلاناً فلا يغترن امرؤ ان يقول ان بيعة ابي بكر كانت فلتة الا وانها كانت كذلك الاّ ان الله وقى شرها وليس فيكم اليوم من تقطع اليه الاعناق مثل ابي بكر وانه كان من خيرنا حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن علياً والزبير ومن معهما تخلفوا في بيت فاطمة وتخلفت الانصار عنا بأجمعها في سقيفة بني ساعدة واجتمع المهاجرون الى ابى بكر فقلت يا ابا بكر انطلق بنا الى اخواننا من الانصار فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا رجلان صالحان فذكرا لنا الذي صنع القوم فقالا اين تريدون يامعشر المهاجرين قلت نريد اخواننا من الانصار فقالا عليكم ان لا تقربوهم واقضوا امركم يا معشرالمهاجرين فقلت والله لنأتينهم. فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة فاذاهم مجتمعون واذا بين ظهرانيهم رجل مزمل فقلت من هذا قالوا سعد بن عبادة فقلت ماله قالوا وجع فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو اهله وقال (اما بعد) فنحن انصار الله وكتيبة الاسلام وانتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة [١] منكم يريدون ان تختزلونا من اصلنا وتحضنونا من الامر فلما سكت اردت ان اتكلم وقد كنت زورت مقالة اعجبتني اردت ان اقولها بين يدي ابى بكر وقد كنت اداري منه بعض الجد وهو كان احلم مني واوقر فقال ابو بكر على رسلك فكرهت ان اغضبه وكان اعلم مني والله ما ترك من كلمة اعجبتني في تزويرى الا قالها في بداهته وافضل حتى سكت فقال

اما بعد فما ذكرتم من خير فأنتم اهله ولم تعرف العرب هذا الامر الا لهذا الحي من قريش هم اوسط العرب نسباً وداراً وقد رضيت لكم احد هذين الرجلين ايهما شئتم . فأخذ بيدى وبيد ابى عبيده بن الجراح فلم اكره مما قال غيرها وكان والله ان اقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من ثم احب اليّ من ان أتأمر على قوم فيهم ابو بكر

(١) الدفة الجيش يدفون نحو العدو : والاختزال : الاقتطاع وتحضنونا تكفوننا

فقال قائل من الانصار انا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب منا امير ومنكم امير يا معشر قريش وكثر اللغط وارتفعت الاصوات حتى خشيت الاختلاف فقلت ابسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعته وبايعته المهاجرون ثم بايعه الانصار اما والله ماوجدنا فيما حضرنا امراً هو أوفق من مبايعة ابي بكر . خشينا ان فارقنا القوم ولم تكن بيعة ان يحدثوا بعدنا بيعة فاما ان نبايعهم على ما لا نرضى واما ان نخالفهم فيكون فيه فساد

١١

﴿ وخطب فقال ﴾

ايها الناس ما الجزع مما لابد منه وما الطمع فيما لايرجى وما الحيلة فيما سيزول وانما الشيء من اصله وقد مضت قبلنا أصول ونحن فروعها فما بقاء الفرع بعد اصله انما الناس في هذه الدنيا أغراض تنتضل (١) المنايا فيهم وهم نصف المصائب مع كل جرعة شرق وفي كل اكلة غصص لا ينالون نعمة الا بفراق أخرى ولا يستقبل معمر من عمره شيئاً الا بهدم آخر من اجله وانتم اعوان الحتوف على انفسكم فأين المهرب مما هو كائن وانما يتقلب الهارب في قدرة الطالب فما اصغر المصيبة اليوم مع عظم الفائدة غداً واكثر جنبة الجانب جعلنا الله واياكم من المتقين (مفتاح الافكار)

١٢

﴿ وخطب فقال ﴾

ايها الناس انه اتى عليّ حين وانا احسب ان من قرأ القرآن انه انما يريد به الله وما عنده الا وقد خيل الى ان اقواماً يقرؤن القرآن يريدون به ما عند الناس الا فأريدوا الله بقراءتكم واريدوه بأعمالكم فانا كنا نعرفكم اذ الوحي ينزل واذ النبي صلى الله عليه وسلم بين اظهرنا فقد رفع الوحي وذهب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فانما نعرفكم بما اقول لكم الا فمن اظهر لنا خيراً ظننا به خيراً واثنينا به عليه ومن اظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه اقدعوا (٢) هذه النفوس عن شهواتها فانها طلعة فانكم الا تقدعوها تنزع بكم الى شر غاية ان هذا الحق ثقيل مريء وان

---

(١) في اساس البلاغة وخرجوا الى النضال وهم يتناضلون وينتضلون : ومعناه يترامون ويتبارون (٢) قوله اقدعوا أي كفوا وقوله نفس طلعة تكثر التطلع الى الشيء

الباطل خفيف وبيء وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة اورثت حزناً طويلا (مفتاح الافكار)

١٣

﴿ وخطب فقال ﴾

انما الدنيا امل مخترم (١) واجل منتقص وبلاغ الى دار غيرها وسير الى الموت ليس فيه تعريج فرحم الله امرءا فكر في امره ونصح لنفسه وراقب ربه واستقال ذنبه بئس الجار الغني يأخذك بما لا يعطيك من نفسه فان ابيت لم يعذرك اياكم والبطنة فانها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم ومؤدية الى السقم وعليكم بالقصد في قوتكم فهو ابعد من السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة وان العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه (مفتاح الافكار)

١٤

﴿ خطبته بالجابية عند اوبته من الشام الى المدينة ﴾

قال بعد ان حمد الله واثنى عليه الا اني قد وليت عليكم وقضيت الذي علي في الذي ولاني الله من امركم ان شاء الله قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم وابلغنا ما لديكم فجندنا لكم الجنود وهيئنا لكم الفروج وبوأناكم ووسعنا عليكم ما بلغ فيكم وما قاتلتم عليه من شأمكم وسمينا لكم اطماعكم وامرنا لكم باعطياتكم وأرزاقكم ومعاونكم فمن علم علم شيء ينبغي العمل به فبلغناه نعمل به ان شاء الله ولا قوة الا بالله (تاريخ الطبري)

باب

﴿ مقتل عمر ﴾

ذكر ارباب السير والمحدثون عن مقتل عمر ان ابا لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبة شكا اليه ارتفاع الخراج الذي ضربه عليه مولاه المغيرة وطلب اليه

---

(١) مخترم اي منتقص وقوله منتقض من الانتقاض وهو التراجع والانتكاث

تخفيفه فمن قائل انه وعده خيراً وعزم أن يلقى المغيرة في تخفيف الخراج عنه ومن قائلٍ انه سأله كم خراجك قال درهمان في كل يوم قال وايش صناعتك قال نحاس نقاش حداد قال فما أرى خراجك بكثير على ماتصنع من الاعمال فتوعده الغلام وانصرف فقال عمر توعدني العبد

قالوا ولما انصرف عمر الى منزله جاءه من الغد كعب الاحبار فقال ياأمير المؤمنين اعهدفانك ميت في ثلاثه أيام: قال وما يدريك قال أجده في كتاب الله عز وجل التوراة قال عمر الله انك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة : قال اللهم لا ولكني أجد صفتك وحليتك وانه قد فني أجلك : قال وعمر لايحس وجعاً ولا ألماً فلما كان من الغد جاءه كعب فقال ياأمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان وهكذا مازال يجيئه كل يوم الى مساء اليوم الذي قتل في صبيحته . وممن روى هذا الخبر وذكر فيه قول كعب هذا ابن جرير الطبري في تاريخه رواه عن المسور بن مخرمة

وروى في أسد الغابة عن أبي رافع ان أبا لؤلؤة لما طلب الى عمر ماطلب قال له عمر اتق الله وأحسن الى مولاك ومن نية عمر الى يلقى المغيرة فيكلمه ان يخفف عنه فغضب العبد وقال وسع الناس كلهم عدله غيري فأضمر على قتله فاصطنع له خنجراً له رأسان وشحذه وسمه ثم أتى به الهرمزان فقال كيف ترى هذا قال انك لاتضرب به أحداً الا قتلته قال فتحين أبو لؤلؤة عمر فجاءه في صلاة الغداة حتى قام وراء عمر وكان عمر اذا أقيمت الصلاة يقول أقيموا صفوفكم فقال كما كان يقول فلما كبر وجأه (طعنه) أبو لؤلؤة في كتفه ووجأه في خاصرته وقيل ضربه ست ضربات فسقط عمر وطعن أبو لؤلؤة بخنجره ثلاثة عشر رجلا (ممن حاولوا القبض عليه) فهلك منهم سبعة

وفي رواية ان أحد المسلمين التى على أبي لؤلؤة برنسا ليتمكن من القبض

عليه فلما أحس انه مأخوذ انتحر بخنجره : وفي رواية الطبري وغيره ان عمر لما سقط قال أفي الناس عبدالرحمن بن عوف قالوا نعم هو ذا قال تقدم فصل بالناس: فصلى عبد الرحمن بالناس صلاة خفيفة وعمر طريح ثم احتمل فأدخل داره فدعا بعلي وعثمان والزبير وسعد وأمرهم أن يتشاوروا في أمر الخلافة وقال لهم انتظروا أخاكم طلحة ثلاثا فان جاء والا فاقضوا أحدكم وليشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الامر شيء قوموا فتشاوروا وليصل بالناس صهيب : ثم قال لابي طلحة الانصاري ياأبا طلحة ان الله أعز بكم الاسلام فاختر خمسين رجلا من الانصار وكونوا مع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم : وقال للمقداد بن الاسود اذا وضعتموني في حفرتي اجمع هؤلاء الرهط وقم على رؤسهم فان اجتمع خمسة على رأي واحد وأبى واحد فأشدخ رأسه بالسيف وان اجتمع أربعة ورضوا وابى الاثنان فاضرب رأسيهما فان رضي ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله بن عمر فان لم يرضوا بعبد الله فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس

وفي المناقب عن ابن ميمون قال لما طعن عمر دخل عليه كعب فقال (الحق من ربك فلا تكن من الممترين) قد انبأتك انك شهيد فقلت من أين لي الشهادة وأنا في جزيرة العرب وفي تاريخ الطبري ان المهاجرين والانصار جعلوا يدخلون على عمر لما طعن فيسلمون عليه ويقول لهم أعن ملاء منكم كان هذا فيقولون معاذ الله ودخل في الناس كعب فلما نظر اليه عمر انشأ يقول

فأوعدني كعب ثلاثا أعدها ولا شك ان القول ماقال لي كعب
وما بي حذارُ الموت اني لميّتٌ ولكن حذار الذنب يتبعهُ الذنب

وفي رواية أبي جعفر الطبري ان عبيدالله بن عمر قتل بابيه ابنة أبي لؤلؤة

وقتل جفينة رجلا نصرانياً من اهل الحيرة أتى به سعد بن ابي وقاص ليعلم الناس الكتابة وقتل الهرمزان وان سبب قتله للاثنين الاخيرين ان عبد الرحمن بن أبي بكر قال غداة قتل عمر : رأيت عشية امس الهرمزان وابا لؤلؤة وجفينة وهم يتناجون فلما رأوني ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه وهو الخنجر الذي ضرب به عمر فقتلهم عبيد الله وقال والله لاقتلن رجالا ممن شرك في دم ابي يعرض بالمهاجرين والانصار فبلغ ذلك صهيباً فبعث اليه عمرو بن العاص فما زال به حتى اخذ منه السيف ثم ثاوره سعد بن أبي وقاص واخذه وحبسه في داره

هذه الروايات التي جاءت في قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن امعن فيها النظر وراجع ما كتبناه عن الهرمزان ونكثه عهد المسلمين قبل اسره المرة بعد المرة وكيف احتال للخلاص من القتل ثم اذا اضاف الى هذا ما ذكرناه في اخبار نهاوند من ان ابا لؤلؤة فارسي الاصل من نهاوند وقد كان اسره الروم ثم اسره منهم المسلمون ولما قدم سبي نهاوند الى المدينة جعل ابو لؤلؤة لا يلقى منهم صغيراً الا مسح رأسه وبكى وقال له اكل عمر كبدي وان جفينة نصراني وان كعب الاحبار يهودي حديث عهد بالاسلام وان مراجل الحقد على عمر وتدويخه لبلادهم وقهره لهم ولملوكهم كانت تغلي في صدور هؤلاء الدخلاء في الدين اتضح لديه ان قتل عمر لم يكن الا عن مؤامرة بين اولئك الدخلاء كما شهد بذلك عبد الرحمن بن ابي بكر وان السبب الظاهر الذي اختلقه ابو لؤلؤة تحته اسباب اهم واعظم وهي الغيظ والحقد على المسلمين وان كعبا كان واقفاً على امر هذه المؤامرة فانذر عمر بالقتل قبل ثلاثة ايام من قتله والا فقوله لعمر انه رأى خبر قتله في التوراة كلام غير معقول يرفضه العقل بتاتا وليس عليه دليل كما انه ليس لكعب ان يعلم الغيب وانما علمه عند الله ومن المحتمل ان لا يكون لكعب الاحبار يد في هذه المؤامرة الا

انه علمها واراد ان يعرض بذكرها لعمر رضي الله عنه بالكناية تحذيراً له ولم يشأ ان يصرح له بذلك لامر لانعلمه الا ان عمر رضي الله عنه لم يعبأ لسلامة صدره بقوله ولم يشدد عليه في السؤال وربما لم يخطر له ذلك الامر في بال لما يعلمه من نفسه من القيام على الحق والعدل وانصاف الناس مسلمهم وغير مسلمهم وعربيهم وعجميهم ومن كان هذا شأنه يكون بالطبع آمناً غائلة الناس وغدر الغادرين وخصوصاً عمر بن الخطاب الذي يحكي انه جاءه مرة رسول من قبل ملك الروم فوجده نائماً على الارض متوسداً الحصا فقال : لله انت عدلت فأمنت فنمت . ولكن قدر على المسلمين ان يغفلوا عن مضرة وجود امثال اولئك الدخلاء في المدينة في مثل عصر عمر الذي كانت فيه جيوشه تضرب في انحاء الارض و تثل عروش الملوك وتزعزع اركان الممالك وتشيد بنيان الاسلام وهذا كله مما يحفظ قلوب الاعداء ويطوي جوانحهم على دغل ويستدعي الانتباه لمثل ابي لؤلؤة والهرمزان وجفينة وامثالهم من الدخلاء ولا ينبغي ان يحسن بهم الظن الا مع الاحتياط والتحذر ريثما يتناسون ثأرهم وتضعف في نفوسهم اسباب الضغن ويسكنون الى سلطان المسلمين ويألفون حكم الاسلام ويوثق باخلاصهم في الطاعة وامانة الجوار هذا مع ان عمر رضي الله عنه كان يكره وجود الاعاجم في المدينة فلا ندري لهذا السبب ام لغيره فقد اخرج في المناقب عن ابن عمر قال كان عمر يكتب لامراء الجيوش لاتجلبوا علينا من العلوج احداً جرت عليه المواسي فلما طعنه غلام المغيرة قال الم اقل لكم لاتجلبوا علينا من العلوج احداً فغلبتموني : فربما كان على علم وبينة مما يبطنون الا انه لم يظن انهم يجرأون عليه مادام قائماً فيهم وفي كل الرعية بالقسط هذا ولما طعن عمر قال لابن عباس انظر من قتلني فجال ساعة ثم جاء فقال غلام المغيرة بن شعبة : قال الصنع : قال نعم : قال قاتله الله لقد امرت به معروفا

فالحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الاسلام ولما حمل الى بيته جزع الناس عليه جزعاً شديداً وكأنهم لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ وأما هو رضي الله تعالى عنه فقد أظهر من الثبات والجلد ماهو معروف به في حال الشدة والرخاء وكان اول همه النظر في أمر الخلافة وتقريرها على وجه يمنع من حصول الفتنة بعده فرأى ورأيه الحق ان يتركها شورى بين النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ففعل وبلغ به الحرص على دفع الفتنة وتعجيل نصب الخليفة بعده ان امر المقداد بما أمر كي لايكون بينهم فتنة وان كانت فان تقمع بالسيف

وفي المناقب عن ابن عمر ان عمر دعا بطبيب ينظر في جرحه فجاءه بطبيب من الانصار من بني معاوية فسقاه لبناً فخرج من الطعنة أبيض فقال له الطبيب ياأمير المؤمنين اعهد : فقال عمر صدقني أخو بني معاوية ولو قلت غير ذلك لكذبتك : فبكي عليه القوم حين سمعوا فقال لاتبكوا علينا من كان باكياً فليخرج ألم تسمعوا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعذب الميت ببكاء اهله عليه

وفيه عن جعفر بن محمد : قال لما طعن عمر اجتمع اليه البدريون المهاجرون والانصار فقال لابن عباس اخرج اليهم فسلهم عن ملاء منكم ومشورة كان هذا الذي اصابني قال فخرج ابن عباس فسألهم فقال القوم لا والله وَلَوَدَدْنَا أنْ زاد الله في عمرك من أعمارنا

وفي العقد عن ابن عباس قال دخلت على عمر بن الخطاب في ايام طعنته وهو مضطجع على وسادة من أدم وعنده جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال له رجل ليس عليك بأس : قال لئن لم يكن عليّ اليوم ليكونن بعد اليوم وان للحياة لنصيباً من القلب وان للموت لكربة وقد كنت أحب ان أنجي نفسي وأنجو منكم وما كنت من أمركم الا كالغريق يرى الحياة فيرجوها ويخشى ان يموت دونها

فهو يركض بيديه ورجليه . واشد من الغريق الذي يرى الجنة والنار وهو مشغول ولقد تركت زهرتكم كما هي ما لبستها فأخلقتها . وثمرتكم يانعة في اكمامها ما أكلتها وما جنيت ما جنيت الا لكم وما تركت ورائي درهما ما عدا ثلاثين او أربعين درهما : ثم بكى وبكى الناس معه : فقلت والله يا أمير المؤمنين أبشر فوالله لقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض ومات أبو بكر وهو عنك راض وان المسلمين راضون عنك : قال (أي عمر) المغرور والله من غررتموه أما والله لو ان لي ما بين المشرق والمغرب لافتديت به من هول المطلع

وفيه عن هشام بن عروة عن أبيه قال : لما طعن عمر بن الخطاب قيل له يا امير المؤمنين لو استخلفت : قال ان تركتكم فقد ترككم من هو خير مني وان استخلفت فقد استخلف عليكم من هو خير مني ولو كان ابو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول انه أمين هذه الأمة ولوكان سالم مولى حذيفة حياً لاستخلفته فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول ان سالما ليحب الله حباً لو لم يخفه ما عصاه قيل له فلو انك عهدت الى عبدالله فانه له أهل في دينه وفضله وقديم اسلامه قال : بحسب آل الخطاب ان يحاسب منهم رجل واحد عن أمة محمد ولوددت أني نجوت من هذا الامر كفافاً لا لي ولا علي : ثم راحوا فقالوا يا أمير المؤمنين لو عهدت فقال : قد كنت اجمعت بعد مقالتي لكم ان اولي رجلا أمركم ارجو ان يحملكم على الحق وأشار الى علي بن ابي طالب ثم رأيت ان لا تحملها حياً ولا ميتاً فعليكم بهؤلاء الرهط الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم انهم من أهل الجنة وذكر السبعة واستثنى من الشورى سعيد بن زيد وقال عن الستة فليختاروا منهم رجلا فاذا ولوكم والياً فأحسنوا موازرته (أي معاونته) في حديث طويل سيأتي معنا ما هو بمعناه في قصة الشورى ان شاء الله

ومن هذا تعلم مقدار حرج الموقف في منصب الخلافة الرفيع حتى ان عمر لم يقبل أن يتحمل مسؤليته بعد الموت كما تحملها في الحياة وانما يعرف هذه المسؤلية من كان له دين يردعه كعمر بن الخطاب رضي الله عنه واخوانه من الخلفاء الراشدين

أخرج في أسد الغابة عن عمرو بن ميمون في حديث طويل ان عمر قال لابنه ياعبد الله بن عمر انظر ما عليّ من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين الفاً قال ان وفى له مال آل عمر فأدوه من أموالهم والا فسل في بني عدي فان لم تقف اموالهم فسل في قريش ولا تعدهم الى غيرهم فأدعني هذا المال وانطلق الى عائشة أم المؤمنين فقل لها يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فاني لست اليوم المؤمنين أميراً وقل يستأذن عمر بن الخطاب ان يدفن مع صاحبيه فسلم (أي عبد الله) واستأذن ودخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن ان يدفن مع صاحبيه : فقالت كنت اريده لنفسي ولأوثرن به اليوم على نفسي : فلما اقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء : قال عمر ارفعوني فأسنده رجل اليه فقال ما لديك قال الذي تحب قد اذنت : قال الحمد لله ما كان شيء أهم اليّ من ذلك فاذا انا قبضت فاحملوني ثم سلم فقل يستأذن عمر بن الخطاب فان أذنت لي فادخلوني وان ردتني ردوني الى مقابر المسلمين

روي انه لما ثقل عمر قال لابنه عبد الله ضع خدي على الارض فوضعه على الارض فجعل يقول ويلي وويل أمي ان لم يغفر لي ربي ثم مات ولما توفي صلي عليه في المسجد وحمل على سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم وغسله ابنه عبد الرحمن وصلى عليه صهيب وكان تقدم قبل ذلك عليّ وعثمان للصلاة عليه فقال عبد الرحمن لا اله الا الله ما أحرصكما على الامرة أما علمتما ان أمير المؤمنين قال ليصل بالناس صهيب

قال في اسد الغابة روي أبو بكر بن اسماعيل بن محمد بن سعد انه قال طعن عمر يوم الاربعاء لاربع ليالٍ بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين ودفن يوم الاحد هلال المحرّم سنة اربع وعشرين وكانت خلافته عشر سنين وخمسة اشهر وواحد وعشرين يوماً قال : وقال عثمان بن محمد الاحمسي هذا وهم توفي عمر لاربع ليال بقين من ذي الحجة وبويع عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة

وتوفي عمر وهو ابن ثلاث وستين سنة وقيل اقل والاول أصح الأقوال في عمره

﴿ وصيته لمن يخلفه ﴾

اخرج ابن الجوزي وغيره من الحفاظ والمحدثين عن ابن عمر انه قال : دفع اليّ عمر كتاباً فقال اذا اجتمع الناس على رجل فادفع اليه هذا الكتاب واقرأه مني السلام فاذا فيه

اوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله وأوصيه بالمهاجرين الأولين : الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضـواناً وينصرون الله ورسوله : ان يعرف حقهم ويحفظ لهم كرامتهم . وأوصيه بالانصار خيراً (الذين تبوّؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا) الى قوله تعالى : المفلحون : ان يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وان يشركوا في الامر . وأوصيه بذمة [١] الله وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ان يوفي بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وان يقاتل من ورائهم (أي يحميهم) اه

---

(١) وهم أهل الذمة من غير المسلمين ويدخل فيها الفرس والكتابيون وكل من رضي بدفع الجزية للمسلمين فصار ذمة له ما لهم وعليه ما عليهم

هكذا انقضت حياة هذا الرجل العظيم نقية طاهرة بعد ان فتح الممالك ورفع منار الاسلام وبسط بساط العدل و بث روح الجد والنشاط في العرب وأسس لهم ذلك الملك العريض وفل بهم جيوش فارس والروم ورباهم على العفاف وكف يد الظلم واحترام العهود والوفاء بالذمة كما أمر به الاسلام وقررته شريعة محمد عليه الصلاة والسلام فسعدت بحياته الرعية من سائر الملل ودخل الامم في طور جديد من الحرية والعدل والأمن والراحة لم يكونوا يعهدونه ولم يكن لأسلافهم أن يروه وبلغ به الحرص على ذلك البذار الطيب الذي بذره في للسلمين أن أوصى عند آخر نسمة من حياته بتلك الوصية الغراء التي تدل على الهمة العالية والشيم الطاهرة والاخلاق البارة التي اكتسبها عمر من نبيه عليه الصلاة والسلام فكان خير قدوة للمسلمين وذكرى الفخر الخالد لهم بين الناس أجمعين

لما توفي عمر اكثر الشعراء من مراثيه فرثاه حسان بن ثابت وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وكانت زوجه وغيرهما

(صفته)

قال في أسد الغابة كان عمر أعسر يسراً يعمل بكلتا يديه وكان أصلع طويلا قد فرع [1] الناس كأنه على دابة وقال الواقدي كان عمر أبيض أمهق [2] تعلوه حمرة يصفر لحيته وانما تغير لونه عام الرمادة لانه اكثر من أكل الزيت وحرم على نفسه السمن واللبن حتى يخصب الناس : وقال بعضهم انه كان أسمر شديد السمرة وهو الاكثر عند أهل العلم

(١) علاهم (٢) الابيض لاحمرة فيه

باب

(ولده وعماله)

(ولده)

قال ابن قتيبة ولد عمر بن الخطاب هم عبد الله وحفصة أمهما زينب بنت مظعون : وعبيد الله (وهو الذي قتل الهرمزان وجفينة) وأمه مليكة بنت جرول الخزاعية : وعاصم وأمه جميلة بنت عاصم بن ثابت حمي الدبر: وفاطمة وزيد وأمهما أم كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب : ومجبر واسمه عبد الرحمن : وابو شحمة (وهو الذي حده أبوه في الخمر فمات) واسمه أيضاً عبد الرحمن : وبنات أخرى

وأما الذين أعقبوا من أولاد عمر فهم عبد الله وعبيد الله وعاصم ومجبر وعقب مجبر هذا بادوا ولم يبق منهم احد

(عماله)

كان عماله على الامصار سنة ٢٣ أي السنة التي توفي بها على مكة نافع بن عبدالحارث الخزاعي.وعلى الطائف سفيان بن عبدالله الثقفي وعلى الكوفة المغيرة ابن شعبة وعلى البصرة أبو موسى الاشعري . وعلى مصر عمرو بن العاص . وعلى دمشق معاوية بن ابي سفيان . وعلى حمص عمير بن سعد وعلى البحرين وما حولها عثمان بن أبي العاص الثقفي وعماله في الحرب من علمنا من القواد الذين مر ذكرهم قبل وكاتبه زيد بن ثابت وكتب له معيقيب أيضاً وعلى بيت ماله عبد الله بن أرقم وحاجبه يرفأ مولاه

باب

(الحالة الاجتماعية على عهده)

كانت الحالة الاجتماعية على عهد عمر غيرها على عهد أبي بكر رضي الله عنهما اذ

توطد على عهد الثاني للمسلمين الملك وشيدت دعائم الدولة وصارت تلك الامة العربية المشهورة بالانقسام والتفرق والجهل بامور الدولة والانغماس في الجهالة وسذاجة الفطرة سائسة ملك وربة سطوة ومجد ومقننة قانون وصاحبة دين جعلها أمة تذكر في التاريخ بانها أعظم الامم وكانت تلك الحياة العربية والجامعة الملية مع انها بادية الظهور تنمو بسرعة وتؤذن بانقلاب عظيم يحدث في أنحاء العالم وتهتزله أركان الدول العظمى يومئذ حيث اندفعت هذه الامة بقوة الجامعة الاسلامية والاتحاد القومي على أطراف الممالك المجاورة لها وهي فارس والروم فانتزعت من الأولى سلطانها وتغلغلت بجيوشها في أحشاء بلادها وقلبت سرير ملكها وأزعجت قادتها ورؤساءها وألجأت للانكماش الى أطراف البلاد الشرقية والتخلي عن الملك أسرة الاكاسرة من ملوكها وانقصت من الثانية أطرافها وقلصت عن سورية والجزيرة ومصر ظلها وهي تتقدم في داخل بلادها وتهدد بالهجوم عاصمة الامبراطور

تأصلت في تلك الممالك جذور الاستعباد وتناسى الروم معنى الحرية التي كان يقاتل دونها أسلافهم الرومان ويدافعون عنها يد الامبراطرة والملوك وخنع الفرس للاكاسرة واستعبدوا لاشراف البلاد فألف الفريقان حكم العبودية وفقدوا مبدأ الاعتماد على النفس والاستقلال الذاتي في الحياة فجاءهم العرب وقد امتزج في دمائهم حب الحرية حتى مايطيقون علو امير المؤمنين عليهم واستئثاره بشيء من أمورهم دونهم كما رأيت فيما مر فنفثوا في روعهم روحاً جديدة من حب الاستقلال الذاتي والحرية الشخصية فهبوا كمن نشط من عقال فوضعوا ايديهم في أيدي الغالبين علامة الشكر والوفاء وشعروا حينئذ بانهم بشر لا ينحطون في الحقوق العامة عن مرتبة الامراء وبلغ بهم ذلك ان لما أهين رجل مصرى من

ابن أمير مصر عمرو بن العاص شخص الى مقر الخلافة يشكوه ويطلب انتصافه منه ولم يعد الا بعد ان استنزل أباه عن منصة إمارته فقدم هو وابنه الى المدينة وأقادا ذلك الفرد من الرعية بحضور الخليفة كما سبق ايراده في غير هذا المحل وما نعلم ان قوما بلغت بهم الحرية الشخصية يوماً مبلغها في ذلك العصر وتمتعوا بعدل مثل ذلك العدل وهو حال ما أهنأه لتلك الامم يومئذ من حال رفعهم من حضيض الذل والعبودية الى ذرى العز والحرية وبشرهم بعصر جديد وسعادة ما عليها مزيد

خالط العرب هـذه الأمم ودال اليهم ذلك الملك العريض ورأوا أبهة الحضارة واستشعروا بلزوم الحياة المدنية للامم الغالبة وليس لديهم من ذلك الا الاستعداد الفطري لقبول الخير والشر والشرع الالهي الذي دعاهم الى الخروج من ظلمات البداوة فاخذوا بحكم الضرورة يقلدون مجاوريهم في العادات وبدأوا يبارونهم في مضمار الحياة وكان مطمح نظرهم وأول عملهم بالطبع تقليد مجاوريهم في الامور الحربية واستعمال آلات القتال الفارسية والرومية ليقابلوا القوة بمثلها ويعدوا لهذه الفتوح عدتها ثم تطرقوا من ذلك الى الامور السياسية والادارية فوضع الخليفة عمر رضي الله عنه التاريخ ودوّن الدواوين على نحو ماهو موجود في الدولتين الرومية والفارسية ثم أقبل على ترتيب الولايات وتقسيم الاعمال وانتقاء العمال ثم فرض الاعطيات وقرر مصرف الفيء في غير سرف ولا تقتير ونشر جناح الامن وأقام ميزان العدل وقرر اصول الجباية بلا اجحاف في حقوق الرعية ولا غبن للدولة فعم الرخاء وبدأت مظاهر العمران تتجلى في أنحاء المملكة وانهال الغنى والثروة على الفاتحين وخطوا خطىً خفيفة الى ميدان الراحة والنعيم مع الأخـذ على الشكائم والتخوشن في المأكل والملبس والتوسط في العيش والقصد في الانفاق والامساك عن البذل خوف الاخذ على أيديهم من عمر بن

الخطاب رضي الله عنه كما أخذ على يد خالد بن الوليد اذ وصل بعشرة آلاف من الدراهم شريفاً من أشراف العرب كما رأيت في باب سياسته مع العمال

هذا من وجه ومن وجه آخر فان عمر رضي الله عنه لم يدع للعرب بداً اذ دفع بهم في غمار الحضارة وقذف بهم الى ميدان الحروب وقتاً للاخلاد الى الراحة والايواء الى ظل التنعم والسكون تحت كنف الامصار بل شغلهم عن ذلك بالفتح والهاهم بادخار المغانم عن التمتع بها ريثما يفل من غرب الدول المجاورة ويأمن غائلة الامم المغلوبة وكان له بهذا مآرب أخرى أيضاً وهي أشغال العرب في الحروب وزجهم في مضمار الفتح ليأنسوا بأصول الاجتماع والحضارة وتتبدل أخلاقهم الجافية وتزول من نفوسهم أسباب التنافر والانتماء الى العصبية الداعية الى الشقاق والفرقة يدلك على هذا ما كتبه لابي موسى الاشعري في الكتاب عدد ٦ الذي جاء في باب كتبه وأمره فيه بأن يضرب من ينادي بالعصبية بالسيف

استفاد العرب في حالتهم الاجتماعية من هذه السياسة العمرية لكن اندفاعهم للفتح وتفرقهم في انحاء الممالك وتعجلهم في ذلك الظهور قبل تأصل الدين في عامتهم نشأ عنه بعد تشويش في الدين والملك منه عدم التمكن من محو آثار الوثنية من البلاد المفتتحة مع دخول أهلها في الاسلام وانما اختفت هذه الآثار حيناً ثم بدأت تظهر ثانية منصبغة بصبغة أخرى دعت لسرعة تفرق أهواء المسلمين وظهور البدع والمبتدعين خصوصاً بين الاعاجم من المسلمين مما لا محل لتعداده وذكره في هذا المقام . ومنه سرعة تقهقر الامة العربية بمقدار سرعة تقدمها في الحضارة والمدنية الى غير ذلك من الامور التي ربما يمر معنا ذكرها في هذا الكتاب ومع هذا فاذا نظرنا من جهة أخرى الى سياسة عمر في تعجل الفتح نرى لها فوائد كبيرة في حينها وذلك لان دفعه للقوم الى الفتح في إبان الظهور وحين التحمس

مهد لهم السبيل لقهر الامم وتدويخ الممالك لا سيما وانه كان من ورائهم جزاه الله عنا وعنهم خير الجزاء يؤدبهم بأدبه ويحملهم على القناعة والقصد ويحبب فيهم الامم ويغل ايديهم عن التطاول الى حقوق الغير ويأمرهم بمحاسنة الناس وحماية أهل الذمة حتى كان من ذلك ان ارتاح لحكمهم الشعوب وسهل عليهم استخضاع الأقوام وبث دعوة الاسلام فلم يخرج على سلطانهم خارج إباء لحكمهم أو تظلما من سياستهم مع حداثة عهدهم في الفتح وقلة الحامية منهم بين ظهراني الشعوب الخاضعين لسلطانهم الآمنين في أوطانهم

بسط المسلمون على عهده يد السلطة على الشعوب واستفتحوا أغلاق الكنوز وملكوا ما ملكوا من البلاد ومع هذا فلم تأخذهم الدنيا بزخارفها ولم يغرهم الغنى والسلطان بالنعيم ولم يبطرهم المال ولم تخط بهم الحضارة الا خطىً قليلة الى الامام فكانوا وسطا في المعيشة في كل الامور ذلك لان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يريدهم على البطء في السير في طريق الترقي ويحملهم على التوسط في العيش فلا يمنعهم منعاً ولا يدفعهم دفعاً اللهم الا الامراء والعمال فانه كان يحملهم على طريقته في التقشف وشظف العيش لحكمة ذكرناها فيما سبق من هذا الكتاب يدلك على هذا كتابه الى أبي موسى الاشعري الذي يقول له فيه : بلغني انه فشت لك ولاهلك هيئة في المطعم والملبس : وينصحه بالتزام القصد . وتأنيبه لسعد بن ابي وقاص على ان سمي داره في البصرة قصر سعد وغير هذا من اخباره الكثيرة مع العمال ومنها شرطه عليهم ان لا يأكلوا نقياً ولا يركبوا برذونا الخ ما جاء في باب سياسته مع العمال وأما عامة المسلمين فكان لا يريدهم على هذا الحال ولا يمنعهم عن التمتع بما احل الله لهم من الطيبات بل يرغب حملهم على طريق الوسط وحسبك دليلاً على هذا كتابه الى أبي عبيدة بن الجراح الذي يلومه فيه

على رحيله من انطاكية لطيب هوائها وتنعم المسلمين فيها

وأما انه كان يريدهم على البطء في السير في طريق الترقي فيدلك عليه ماروواه عامة أهل السير أن الاحنف بن قيس وفد عليه مرة وتكلم عن أهل البصرة بكلام دل عمر على سعة عقله فاحتبسه عنده حولا وأشهراً ثم سرحه وكذلك فعل مع زياد بن أبيه لما وفد عليه من العراق ورأى فيه قوة العارضة والفطنة وزلاقة اللسان احتبسه عنده ولما سأله زياد عن السبب قال كرهت ان أحمل الناس على فضل عقلك . وانما كان يريد للعرب بهذه السياسة الترقي التدريجي حتي في المدارك على ان مخالطتهم الامم وسكنى الامصار غيرولا شك من أخلاقهم والان من طباعهم وزاد في معارفهم ولا يعقل ان قوما كانوا يظنون الكافور ملحاً ايام فتح المدائن تصير اليهم كنوز الارض بعد ذلك ويسوسون الامم الا باستعداد عظيم في قوى المدارك كمن في نفوسهم وأظهره الاحتكاك بتلك الامم على وجه خال بالطبع عن كل شائبة من شوائب التصنع والختل المشهور بهما أهل الامصار في ذلك العصر وفي كل عصر فهم اذن كانوا أحسن أخلاقا وأسد عملا على سذاجة فطرتهم وجدة اسلامهم ممن حاربوهم من الامم وهذا شأن لاينكر على مثل عصر عمر رضي الله عنه الذي دأب فيه هذا الخليفة العظيم على تدريب هذه الأمة على أصول السياسة وتهذيبها على وفق ما جاء به القرآن من آيات الحث والترغيب في أسباب الظهور على الامم يدلك على هذا ماروواه الطبري في أخبار القادسية ان رستم زعيم الفرس وقائدهم قال يومئذ : أكل عمر كبدي أحرق الله كبده علَّمَ هؤلاء حتى علموا : وفيه دليل على ان العرب لم يكونوا قبل الاسلام في نظر الفرس شيئاً مذكوراً لبعدهم عن أسباب الحضارة واغراقهم في الجهالة ولما اجتمعوا على كلمة الاسلام وانكفأوا على مملكتي فارس والروم وظفروا بحسن قيادة عمر

رضي الله عنه بدولتي الفرس والروم عرف رستم وأشباهه من زعماء الدولة الفارسية عظم قدر عمر بن الخطاب وبعد نظره في السياسة وحسن قيامه على تربية المسلمين وتعليمهم كيف تكون حياة الامم ولهذا قال رستم ما قال ولا جرم فلا خلاص الراعي لله وحبه لرعيته وحسن قيامه على مصالح الأمة دخل عظيم في تسودهم على الامم وتعززهم بالعلم والقوة والعكس بالعكس

وبالجملة فالحالة الاجتماعية على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على حداثة عهد أهلها في تسنم ذرى الارتقاء تمثلها لك سيرة هذا الخليفة الجليل في قالب الجد والاستقامة والعزيمة وتظهرها لديك في مظهر النهوض الى ارتقاء قمم المجد التي انتهى اليها المسلمون فيما بعد بسيرهم سيراً حثيثاً مدة تزيد على جيلين وقفوا بعدها وقفة المستريح من وعثاء سفر شاق للتلذذ بجني ثمرات الجد والنشاط والعمل وهكذا حتى تغير الحال وانقلب الجد والنشاط الى فتور واهمال وكان بعد ذلك ما كان من هبوط مستمر بلغ بنا الآن ان فقدنا كل حول وقوة الا من السفاسف والاوهام وكل اشتغال الا بالاباطيل وكل سعي الا وراء الرتب والالقاب التي أضحكت علينا الامم وأسرعت ببقية الاخلاق الفاضلة فينا الى هوة العدم : والغربيون يبعثون الينا كل يوم بنذير من الرهبوت والقوة وواعظ من العلم والاعتبار ومنبه من التسلط على الممالك الاسلامية والديار الشرقية ومرشد الى كيف تكون حياة الامم وسيادة الشعوب ونحن سكوت لايسمعون لنا ركزاً الا في تهاتر ولا يحسون منا حركة الا الى تدابر قد امتزج الاستعباد في نفوسنا حتى مانطيق الحرية ولا نرضى العلم ولا نقبل التذرع الى السيادة والسعي الى المجد وهي حالة يا الله تمزق غشاء القلوب وتنذر بشق الجيوب فواغوثاه وواعمراه

﴿ اعتذار ﴾

هذا جهد ما استطعته في استقصاء أخبار رجل الامة العظيم عمر بن الخطاب رضي الله عنه واني لأرجو بما بذلته من الجهد وما عانيته من النصب وتعب الفكر في تطبيق الحوادث وجمع الاشباه والنظائر وضرب الامثال وتحقيق الاخبار واستنتاج النتائج واداء النصيحة أن يقابل قومي خدمتي هذه بالقبول ويحملوا كل ما خطه قلمي على محمل الاخلاص في خدمة الملة والحق والله يشهد اني لا غرض لي أرمي اليه سواه ولا أرغب في هذه الحياة الا فيه فان اصبت فيما كتبت فذلك ما أتمناه والا فالانسان محل الخطأ وصاحب الفضل من ردّ اليّ خطأي ونبهني الى غلطي لاصلحه في الجزء الذي يلي هذا الجزء وحسبي مارأيته من قومي في جميع الاقطار الاسلامية من الاقبال على الجزء الاول من هذا الكتاب تنشيطاً لي ودافعاً لي الى المضي في عملي والمثابرة على اتمام هذا الكتاب على أسلوبه الجديد مهما عانيت من المشاق ولاقيت من التعب اذ كل شيء سهل بعد رضي قومي عن كتابي هذا . وقد بعث رضاؤهم في نفسي رجاءً عظيما في تحقيق أمنيتي التي قصاراها تنبيه العقول الراقدة لا الفاقدة الى سير أسلافهم الكرام ورجال الاسلام العظام الذين يمثلون صورة الحياة العالية في أجلى مظاهر الجد والقوة والنشاط فيقوم منها خيال في النفوس الخامدة يزعجها عن مواطن الخمول والرذيلة وينهض بها الى تناول المجد من قمته الشامخة بوسائل الجد لا بالوسائل السافلة والله ملهم الصواب

هذا وقد كنت وعدت قرّاء الجزء الاول بان أصدر هذا الجزء مشتملاً على سيرة عمر بن الخطاب ومن اشتهر في دولته وبهذا عنونت هذا الجزء الآني لما انتهيت من سيرة عمر رضي الله عنه وجدت ان الجزء قد زاد عن الحجم الذي قدرناه له ولو أضيفت اليه سيرة رجال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما وسعنا

الوفاء بشرط بيع الاجزاء بثمن هين ونخالف ذلك رغبتي في تعميم الكتاب لا سيما وان كثيراً من قراء الجزء الاول سألوني سرعة انجاز سيرة رجل الاسلام عمر بن الخطاب لهذا رأيت أن اصدر هذا الجزء خلواً من سيرة مشهوري الرجال في خلافة عمر رضي الله عنه وان أرجئها الى الجزء الذي يليه فاسأل القراء المعذرة كما أسأل الله التوفيق انه أكرم مسؤول

كلمة الجرائد

وشكر للمنتقدين

التمست في الجزء الماضي من أهل الفضل وارباب الجرائد الانتقاد على ما في ذلك الجزء من خطأ ربما بدر به القلم لاصلحه في هذا الجزء فسبق بهذا التفضل من المجلات العلمية كل من مجلة المقتطف والهلال الشهيرتين اللتين خصتا بخدمة المعارف والعلم منذ أنشئتا الى هذا العهد فطلبت الي الاولى أن اوسع النظر في تواريخ الغربيين واستقصي منها حالة دولة الروم على عهد الفتح الاسلامي لاتوسع في بيان العلل والاسباب التي أوجبت قهر تلك الدولة بواسطة الجيوش العربية وفي الحقيقة فان هذا الامر من الامور الجديرة بتدقيق المؤرخين الخليقة بالنظر والتأمل لهذا راجعت اشهر التواريخ الافرنجية التي كتبت عن العرب والروم في ذلك العهد كتاريخ الامبراطورية الشرقيـة لادوردجيبون الانكليزي وتاريخ العرب للمؤرخ الفرنساوي ديفرجي والذي رأيته فيهما وفي غيرهما من التواريخ مالا تخلو منه كل دولة في مبادئ ضعفها من المفاسد الاجتماعية والسياسية كالظلم وحب الشهوات ونبذ القانون وتجاذب أطراف الرياسة وغير ذلك وزاد عليه في الدولة البزنطية تفاقم خطب المجادلات الدينية التي اودت بحياة القوم السياسية الا ان الامبراطور هرقل كان والحق يقال عضداً عظيماً لهذه الدولة في حال

ضعفها ذلك لانه من أعاظم الملوك البزنطيين وأشدهم حرصاً على حياة الدولة كما نرى ذلك من وقائعه الشهيرة مع المسلمين ومكافحته لهم بجيوش الروم مكافحة أهل العزيمة والحزم ومهاجمته لهم الكرة بعد الكرة لكن لم يغن عنه ذلك الكفاح شيئاً في جانب قوة المسلمين وكفاءة قوادهم العظام على انّ الاطلاع على تاريخ الروم وأخبار دولة الخلفاء الراشدين في عهد الفتح ولو مجردة عن التعليقات السياسية والقياسية يكفي المؤرخ أن يستخرج العلل والاسباب من ثنايا السطور ومتفرقات الاخبار وقد بذلت في هذا الجزء جهد المستطاع في تتبع العلل السياسية والاجتماعية التى دعت لسرعة ظفر المسلمين بدولة الفرس والروم يومئذ ولم أدع خبراً من الاخبار الا أردفته بما خطر لي من الخواطر الفلسفية أو وقفت عليه من الحقائق التاريخية لأمثل ذلك العصر في صورة يراها القارئ كأنما هو فيه خصوصاً فيما يتعلق بدولة الخلفاء الرشدين وسياسة المسلمين فان أصبت فيما قلت وبينت ثمة فذلك هو المطلوب والا فوق كل ذي علم عليم وللمقتطف في تنبيهي الى ذلك فضل أشكره عليه من صميم الفؤاد

انتقد المقتطف الاغر كلاما آخر من كتابي وسألني بياناً عمن هو المسؤل عن بعض الحوادث التاريخية التي جرت في بعض انحاء القطر السوري في منتصف القرن الماضي والجواب عن هذا لاعلاقة له بهذا الجزء وانما هو من خصائص الاجزاء الاخيرة من هذا الكتاب وسيأتي في محله ان شاء الله

وأما مجلة الهلال الغراء فقد انتقدت عليّ قولي في الجزء الماضي أن دمشق كانت على عهد الفتح الاسلامي حاضرة بني غسان وقد أفردت للجواب عن هذا الانتقاد فصلاً مخصوصاً في هذا الجزء فيه البيان الكافي فلاحاجة هنا لغير اسدائها شكوى ومشاركتها في أجرى لانها كانت السبب في استقصائي للادلة

التاريخية التي اذا لم تفد في بابها اليقين فانها تكون عوناً للباحثين

وحبذا لو حذت حذو هاتين المجلتين كل المجلات العربية في انتقاد الكتاب وتتبع ما فيه من الخطأ إذن والله لزادتني انبعاثاً لتحقيق الاخبار وبسط الافكار ونبهتني الى ماربما لم يخطر لي من الحوادث التاريخية في بال اذ العلم اجزاء لا يتناولها عقل الفرد والأمة جسم لا يتحرك عضو منه الاّ بالاستمانة باخيه فما بال مجلاتنا التي هي عون المعارف وسند الباحثين ومنار المسترشدين لا تفيض من كنوزها على المؤلفين الاقوال أحسن واجاد ألعلها تجهل ان مدرسة الامة العامة هي الكتب والمؤلفات وان الجرائد هي المسيطرة على هذه المدرسة المكلفة بتمهدها بالنظر والبحث فيما يفسد اخلاق الناس او يصلحها من خير او شر وحق او باطل

او لعلها تجهل انّ معظم البلاء الذي حلّ بالشرقيين عامة والمسلمين خاصة انما كان منشأوه الكتب التي شحنت بالاباطيل وانتزعت من النفوس ملكات العلم الصحيح فأفسدت الاخلاق وأضعفت العقول وجعلت الحق والباطل في نظر اكثر الناس سواء بل جعلت الحق عند فريق كبير تابعاً للاهواء ان شاءت جعلته باطلاً وضربت به وجوه العماء

ان جرائد الشرق ولا نكران للحق مصابة بنفس مصاب الأمة لم تستثن من ذلك البلاء لانها لا تحفظ على صفحاتها للمؤلفين غير المدح والاطراء فلا تنبه المؤلفين الى حقيقة ولا تمنعهم من سرد باطل

هذا وما خلا المجلات فقد انتقد عليّ بعض الادباء إغفالي تفسير الالفاظ اللغوية التي وردت في كلام القوم في الجزء الماضي على اني لم أغفلها الا اقتصاداً للوقت كما نبهت على ذلك ثمة ومع هذا فقد استدركت هذا الخطأ في هذا الجزء ففسرت الالفاظ اللغوية الا ما كان منها كثير التداول مفهوماً بقرينة المجاورة

فاني لم أفسره اعتماداً على ذكاء القارئ

وقد نبهني بعضهم ايضاً الى غلطات مطبعية غير ماصححته في آخر ذلك الجزء فعزمت ان أضيفها الى فهرس الخطأ والصواب الذي يلحق بهذا الجزء

وانتقد عليّ بعضهم كثرة استعمال الالفاظ الدينية كالدعاء بالصلاة والترضي بحجة ان التاريخ ينبغي ان يكون خلواً من ذلك الحشو اذ يقرأه المسلم وغير المسلم ومن يرى لزوم الدعاء ومن لا يراه

ونحن مع علمنا بأن هذا شيء لم يرد عن لسان الصحابة والتابعين بل اصطلح عليه بعض المحدثين بقصد تعظيم الصحابة وان لهؤلاء من الفضيلة الذاتية مايغنيهم عن مثل هذا التعظيم وان اكبر المحدثين والمؤرخين كابن جرير الطبري لم يستعمل الدعاء في تاريخه الالكبار الصحابة واستعمله بالترحم لابالترضي وفيه دليل على أن وجوب التعظيم انما هو في القلب لافي اللسان والمؤرخ في الخيار باستعمال أية صيغة من صيغ التعظيم اللفظية أو عدمه

مع هذا كله فاني لم أر بأساً من ايراد ذلك الدعاء اقتداء بالائمة المحدثين الاّ اني رمزت اليه بحرفي (رض) على اصطلاح بعض المتأخرين ليتلوه من شاء ومن شاء فلا : ولا يخفى على فطنة المنتقد ان ذلك العصر عصر ديني أكثر مما هو سياسي والصحابة هم الرجال الذين قام بهم الاسلام وضمير كل انسان يستشعر بشيء من وجوب التعظيم ان لم يكن باللسان ففي القلب عند ذكر كل رجل عظيم من أي قبيل أو ملة كان فكيف بالمسلم عند ذكر رجال أمته العظام وائمته الكرام الذين رفعوا منار الاسلام واسسوا ذلك الملك العريض واعلوا شأن المسلمين

﴿ تنبيه ﴾

نقلت عن منتخب كنز العمال كثيراً من الاحاديث في هذا الكتاب ولم أذكر اسماء المخرجين اكتفاء بالعز والى كنز العمال ليراجعه من احب معرفة المخرج الذي ذكر في الكنز فيرجع الى كتابه عند قصد معرفة السند وكذلك نقلت عن السيرة العمرية لابن الجوزي التي جردها من السند أسامة بن مرشد واكتفى باسم الصحابي فقط كثيراً من الاحاديث المتعلقة بسيرة عمر رضي الله عنه وعزوتها الى السيرة ومن احب معرفة سلسلة سند كل حديث فليرجع الى الاصل ويوجد منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية بمصر

فهرست

الجزء الثاني من اشهر مشاهير الاسلام

﴿تمت الفهرست﴾